في معترك القضيّة اللبنانية

د. عصام كمال خليفة
أحد أساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانيّة

A
956.92
K45f
c.2

د. عصام كمال خليفة
أحد أساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانية

في معترك القضية اللبنانية

١٩٨٥

جميع الحقوق محفوظة

طبعـة أولى

توطئـــة

هذه المحاضرات ألقيت في أوقات مختلفة وفي أماكن متنوعة ، وأغلبها طبع في كراريس من قبل تجمع «الديمقراطيين العلمانيين» . كان الهدف الأساسي من وراء اعدادها التصدي لموجات التعصب واللاعقلانية التي اجتاحت مجتمعنا والقيام بالتحليل والنقد لجملة مقولات متداولة في أوساط القوى اللبنانية المتصارعة . وإن نشرنا لها ، في هذا الظرف بالذات ، يهدف الى بلورة تيار نقدي على امتداد كافة الأحزاب والطوائف ينطلق من المصلحة التاريخية للشعب اللبناني ، والمساهمة في الدفاع عن القضية اللبنانية بما هي قضية حق في تقرير المصير والاستقلال وتحقيق الديمقراطية الكاملة المضامين .

إن الكارثة اللبنانية لا تتجسد فقط في الدمار والخراب والتقتيل والفرز السكاني على أساس طائفي — مع انها أمور اساسية وخطيرة — وانما أيضاً تتجسد في استمرار مختلف القوى بعدم ممارسة النقد الذاتي البنّاء وفك الارتباط مع القوى الخارجية التي تريد القضاء على وطننا ومجتمعنا ودولتنا .

وكما انتصر اللبنانيون في ماضي تاريخهم الطويل على المصاعب والكوارث فإنني ، في هذه المرحلة ، أحاول أن أتخطى التشاؤم الآني وأؤكد على أن اجيالنا الآتية ستستوعب العبر من هذه الحرب وتعود الى اخوة الوطنية اللبنانية ، فتمارس بعزم وحماس وفرح عملية بناء لبنان المستقبل على أسس انسانية وعلمانية وديمقراطية متقدمة .

حدتون ١٥/ ١/ ١٩٨٥

مقدمات أولية*

حول مقولة الطائفة — الطبقة

* محاضرة ألقيت بدعوة من «الديمقراطيين العلمانيين» بتاريخ ١١ ت٢ ١٩٧٧.

منطلقات واشارة

جدير بنا قبل التطرق الى موضوعنا ان نحدد **بعض المنطلقات العامة** التي تشكل الأساس الذي يوجه تحليلنا :

١ ــ نحن نعتبر أنفسنا في حالة صراع شامل مع الأيديولوجيات الطائفية ، المسيحية والاسلامية ، باعتبارها أحد أهم مظاهر التخلف التي تكبل مجتمعنا .

٢ ــ نحن ملتزمون بمصالح الفئات المستغلة من شعبنا ، ونسعى الى بناء مجتمع الديمقراطية الحقيقية بمضامينها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتكاملة .

٣ ــ نحن نؤمن بالحل العلماني على مستوى النظام وعلى صعيد المجتمع ، وذلك كمدخل ضروري ولازم لقيام النظام والمجتمع الديمقراطيين.

٤ ــ نحن في نقدنا لبعض القوى التي تطرح نفسها كقوى تغيير ، من خلال بعض طروحاتها النظرية وبعض مواقفها العملية ، إنما نفعل ذلك من موقع محاولة تجذير عملية التغيير وتسريعها ، في مجتمعنا .

٥ ــ اننا نرفض ، بعد هذه الحرب ــ الكارثة ، المنهج القائل بأن كل منتقد لطروحات قيادات جبهة الأحزاب (الحركة الوطنية اللبنانية) أو لممارستها ، قبل الحرب أو خلالها أو بعدها ، هو من القوى المعيقة لتحقيق التطور التقدمي في

مجتمعنا، أو أنه من القوى المساهمة في تنفيذ «المؤامرة» على شعبنا. بل اننا نذهب الى القول أن كل من لا يحلل ما حدث مستنتجاً العبر والدروس هو متهم بأنه معيق لعملية التغيير الحقيقي ومشارك في «مؤامرة» تجهيل الشعب.

٦— ان شعوباً كثيرة عانت، كما عانى شعبنا، حروباً داخلية مدمرة، لكنها استطاعت أن تنكب على تجاربها، وأن تحلل اخطاءها، وأن تنهض من كوارثها لتبني غدها على أساس التقدم والحرية.

٧— اننا ننطلق في نضالنا من موقع الالتزام العميق بمصالح شعب لبنان وشعوب المنطقة العربية، وذلك في مواجهة ثلاثة اخطار متحالفة بشكل مباشر أو غير مباشر:

— الصهيونية وما تمثل على الصعيد الدولي.

— الاستعمار وما يجنيه من أطماع في ثروات منطقتنا.

— التخلف الداخلي وما يوفر من عوامل الضعف ومظاهر الاستغلال وظروف التدخل الخارجي.

وعلى صعيد آخر، نجد من الضروري **الاشارة** الى أن بحثنا في مقولة الطائفة— الطبقة لا يعني ان قيادات جبهة الاحزاب عممت هذه المقولة بشكل شامل وواسع. ولكن، ما يمكننا تأكيده أن ثمة اشارات اليها في أدبيات تلك القيادات، وهناك تطبيق لها في الموقف السياسي العام لجبهة الاحزاب قبل وابان الحرب اللبنانية. وإن مبادرتنا بالتصدي لهذه المقولة هو جزء من نقدنا لجملة مقولات سائدة في هذه المرحلة من صراعنا الأيديولوجي، ونرى بأن السكوت عنها يعيق قضية التغيير والتقدم في لبنان وعلى امتداد المنطقة العربية.

بعض النصوص من أدبيات جبهة الاحزاب حول مقولة الطائفة— الطبقة

من ضمن تحليلها للواقع الاجتماعي في لبنان، ربطت بعض القيادات في جبهة الاحزاب، وبعض الأوساط الاعلامية المؤيدة لها، بين الطائفة المارونية— أو على الأصح بين فئة من هذه الطائفة— وبين ما سمته الامتيازات الطبقية. فلقد قال الأستاذ جورج حاوي: «نحن نعيش واقعاً من تمركز وتركز الامتيازات الطائفية على الصعيد الاقتصادي وعلى الصعيد الاجتماعي وخاصة على الصعيد السياسي». ويضيف: «ان الفئات العليا الاقتصادية ووريثة الاقطاع السياسي في الطائفة المارونية هي التي تحتكر القسم الأكبر من هذه الامتيازات»[1].

وفي مجال تبريره للممارسات الطائفية التي قام بها حزبه قال حاوي: «مع ادراكنا لكونها (أي الكتائب) صاحبة مصلحة في ذلك، كان لا بد من مواجهة منطقها ونهجها بالموقف الذي واجهناها به، وان بدا في مظاهره منطقاً طائفياً. والحزب قد عطل سلاح الطائفية الذي أريد له أن يكون وسيلة لضرب المقاومة ولاقامة الديكتاتورية، الى سلاح ايجابي في هذه المرحلة بالذات وجه ضد القوى التي لجأت الى التسعير الطائفي»[2].

وإذ يقر الأستاذ حاوي بالطابع الطائفي للحرب اللبنانية، ويحاول أن يعطي صفة الايجابية لبعض الممارسات الطائفية من قبل حزبه، يذهب نديم عبد

الصمد — وهو قيادي في نفس الحزب — في مقالة له في مجلة «نوفيل روفي انترناسيونال»[٣] :

«لقد أصبح لبنان مسرحاً للصراع الطبقي المحتدم، ونهضت جماهير العمال الواسعة والفلاحين وباقي الفئات الشغيلة من الشعب للدفاع عن حقوقها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية».

اما خليل الدبس فيرى «ان الطغمة المالية تسعى الى انشاء حرس خاص للدفاع عن مصالحها، وليس أفضل من الطائفية — الفاشية، في ظروف لبنان، لتأمين مثل هذه القاعدة». ويتساءل: «لماذا لا تصبح الطائفة المارونية كلها حرساً خاصاً لهذه المصالح؟»[٤].

والمرحوم كمال جنبلاط أوضح في أكثر من مقال وبيان تأكيده على الامتيازات المارونية، وحلل الخوف النفسي عند بعضهم وأعاده الى «اقتنائهم للمال وسيطرتهم على الأرض والمتاجر والمصارف والصناعة، أو بالأحرى الى ضياع المصالح والامتيازات السياسية والاقتصادية التي تعودوا على ممارستها»[٥]. ويقترح لمعالجة تعصب هؤلاء الخائفين «الضرب الحاسم بالحديد» وكذلك يجب أن «يعزلوا كالمريض في طور الاستشفاء النفساني والنقاهة»[٦]. وهو يشبه بعض الموارنة» وكأنهم بيض آريون اقحاح مصنفون من جنس الملائكة، وجمهور اللبنانيين وسائر الطوائف زنوج أو من العناصر السوداء التي تناضل لأجل حقوقها البدائية في الحياة في روديسيا أو في جنوب أفريقيا»[٧]. والامتيازات المارونية تشبه عند البعض، «امتياز الأبيض على الزنجي في بلدان افريقيا يوم كانت خاضعة لأسوأ ألوان الاستعمار، أو امتياز العظم الأزرق على العظم الأصفر، أو ميزة الهولاكي المتسلط على من أخضعهم بحد السيف...»[٨].

وفي مقالات أخرى يشير كمال جنبلاط الى «أن التيار الانعزالي الماروني الطائفي التقليدي يحارب من أجل ابقاء امتيازاته»[٩]، لكن «روديسيا اللبنانية هي على وشك الانهيار وان دولة الطوائف تشرف على نهايتها»[١٠].

وعن الجانب السياسي من الامتيازات المسيحية يقول: «ان نسبة تمثيل المسيحيين في المجلس بأربعة وخمسين نائباً، وتمثيل المسلمين بخمسة وأربعين لا تعتبر الا بشكل مغلوط ومناف للمعادلة الطائفية». وإذ يطرح النسبية في التمثيل النيابي فذلك مع الخلفية المنطلقة من الاعتبار بأن «نسبة المسلمين الشعبية التي أخذت تتجاوز الستين بالماية من الشعب. ولذا وقعت المفارقة وقام التناقض: أكثرية شعبية تمثلها أقلية. وأقلية نسبية شعبية تمثلها أكثرية»[١١].

أما منظمة العمل الشيوعي فتعتبر أن «الطائفية السياسية هي البناء الفوقي السياسي والقانوني والايديولوجي للمجتمع الرأسمالي اللبناني الخاضع للسيطرة الاقتصادية البورجوازية»[١٢]. وفي مجال تحليلها لأوضاع الطوائف تتوقف المنظمة عند الموقع المتدني الذي يعطيه النظام السياسي اللبناني للطائفة الشيعية ككل ضمن هرم الامتيازات الطائفية التي ينهض عليها هذا النظام[١٣]. وعلى هذا الأساس تدعو المنظمة الى «علاقة تعايش مديد مع حركات المطالبة بحقوق الطوائف المحرومة، بينما تدعو بالمقابل «الى تصادم مديد ضمن خط صراعي مستقيم مع جميع حركات الدفاع عن الاستثمار الطائفي وعن ديمومة الامتيازات الطائفية»[١٤].

ويقول حازم صاغية[١٥]: «الصيغة اللبنانية ليست فعلياً سوى امتيازات مادية وثقافية طائفية وطبقية، تحظى على قاعدتها أقلية طائفية، ما هي الا الطائفة المارونية، بمجموعة من الامتيازات التي تبدأ باتجاه مجمل التوظيفات المالية الى مناطقها وتنتهي بسيطرتها على المؤسسات الحيوية في جهاز الدولة، وتحرم طوائف كاملة — استطراداً — من الحد الأدنى المطلوب توافره. وليس من الصدفة في شيء أن تكون كسروان والمتن هي أكثر المناطق ازدهاراً، ولا أن ينتمي كافة مكتومي لبنان المحرومين من الهوية الى طائفة واحدة بعينها». ويذهب صاغية، في نفس العدد من «السفير»، إلى أن «اليسار اللبناني ما كان ليشهد نقلته الملحوظة منذ أيار ١٩٧٣ حتى أيامنا هذه لو أنه مارس سياسة أدارة الظهر والترفع عن

الاقتتال الطائفي ، ولا معنى للخوف من أن تؤدي مثل هذه الصراعات الى ابتلاع الطائفة للطبقة » .

ويجدر بنا أخيراً أن نعرض هذا الاستنتاج الذي ورد في مجلة « شؤون فلسطينية »[١٦] ، وهو يعكس رأياً سائداً في بعض أوساط مثقفي المقاومة : « الصراع الطائفي في لبنان هو انعكاس مباشر للصراع القومي في سبيل التحرر من القبضة الامبريالية ، وهو ، بهذا المعنى ، وفي التحليل الاخير ، الشكل المؤقت للصراع الطبقي العربي في الساحة اللبنانية » .

ما هي النقاط العامة التي نستنتجها من هذا العرض ؟

١ ــ ان أغلب قيادات جبهة الاحزاب اعتبرت أن الموارنة كطائفة ، أو على الأقل جزءاً منهم ، هم أصحاب الامتيازات الاقتصادية ــ الاجتماعية والسياسية في البلاد .

٢ ــ ان المسلمين ، وبخاصة الشيعة ، هم الفئات المغبونة .

٣ ــ ثمة حركات طائفية يمكن ، بل يجب ، التحالف معها ، وثمة حركات طائفية يجب التصادم معها .

٤ ــ إن الصراع الطائفي في هذه الحالة يحمل مضموناً طبقياً .

٥ ــ واستطراداً فثمة طائفية ايجابية وهي تلك التي تستعملها جبهة الاحزاب ، وهناك طائفية سلبية وهي التي يستعملها الخصم .

في اطار هذه المنطلقات التي نستنتجها من مقولة الطائفة ــ الطبقة ، ما هي الملاحظات العامة التي يمكننا أن نسجلها على قيادة جبهة الاحزاب في مجال نظرتها الى حقل الصراع مع الفئات الاخرى ، والأهداف التي وضعتها ، والاستراتيجية التي اعتمدتها في تحركها السياسي ؟

تأثير مقولة الطائفة ــ الطبقة على الخط السياسي لجبهة الاحزاب

كانت قيادة جبهة الأحزاب تعتبر النفوذ ضمن الجماهير الاسلامية في المدن والارياف حقلاً أساسياً للتنازع . وبالفعل كانت قوى هذه الجبهة قد نمت في المناطق الاسلامية ، وخاصة ضمن شيعة الجنوب وضواحي بيروت وبعض سنة صيدا وطرابلس واقليم الخروب وضواحي زحلة وبعض أحياء بيروت الغربية . وثمة تضافر لعدة عوامل تاريخية وسياسية ، لا مجال لطرحها هنا ، أدت الى تكوين هذا الشكل من التوغير المتكافئ والأحادي الجانب لجبهة الاحزاب ضمن مختلف الطوائف والمناطق اللبنانية .

ومنذ بداية السبعينات ، بدأ التحالف الجنبلاطي الشيوعي يطمح الى ترجيح كفته ضمن اطار ما كان يطلق عليه تسمية « الشارع الوطني » واطره التمثيلية ، من نيابة ووزارة وهيئات ملية وجمعيات ثقافية ونواد محلية وغيرها . وقد اتخذ صراعه مع القيادات التقليدية للجماهير الاسلامية اشكالاً شتى من انتخابات المقاصد في عام ١٩٧٠ ، الى تهديد نفوذ الأسعد في الجنوب في الانتخابات النيابية لعام ١٩٧٢ ، الى الاصطدام العنيف مع الحكومة السلامية في بداية عام ١٩٧٣ ، الى التنطح لتمثيل « الشارع الوطني الاسلامي » في الحكم على حساب الصف التقليدي من خلال وزارة رشيد الصلح ووزرائها الجنبلاطيين في نهاية عام ١٩٧٤ ، الى دخول عناصر من جبهة الاحزاب في هيئة خريجي المقاصد واللجنة التنفيذية للمجلس الشيعي الاعلى في بداية عام ١٩٧٥ .

ومن **الأهداف** التي تهمنا في موضوعنا ، والتي وضعتها جبهة الاحزاب :

١ — السعي الى تغيير نوعي في النظام السياسي في اتجاه تحقيق المشاركة ، والتمثيل النسبي ، وتعديل بنية القوات المسلحة بأحداث التوازن الطائفي في مجلس قيادة الجيش وقوى الأمن .

٢ — الاسراع في حصر واضعاف القيادات الاسلامية التقليدية وانتزاع الزعامة السياسية الفعلية والصفة التمثيلية منها . والزعامات المقصودة بالدرجة الأولى تتشكل من صائب سلام في بيروت السنية ، رشيد كرامي في طرابلس السنية ، كامل الأسعد في الجنوب الشيعي ، والمير مجيد أرسلان في عاليه الدرزية .

٣ — بعد فشل محاولات الضرب والتشهير والاحتواء في السنوات السابقة ، السعي للتغلغل ضمن حركة الامام موسى الصدر (حركة المحرومين) في اتجاه استقطاب قواعدها ، والاستفادة المباشرة من زخمها التعبوي ، وتقاسم قيادتها على المدى المتوسط ، أو اثبات ان قوى جبهة الاحزاب هي وحدها القادرة على تحقيق المطالب الوطنية والاجتماعية المشروعة لجماهير الشيعة في الريف والضواحي .

ومن **الاستراتيجيات** التي اعتمدتها جبهة الاحزاب لايصالها الى أهدافها والمتصلة بمقولة الطائفة — الطبقة ما يلي :

١ — عزل ودحر القوى التي كانت تعتبرها قوى تحمي امتيازات الطائفة المارونية ، وضرب القيادات التقليدية الاسلامية للحلول مكانها ولكن في اطار المزايدة على تخاذلها في لعب دورها وتحقيق شعاراتها . ولا بد من الاشارة الى أن هذا الخط الاستراتيجي كان يعتمد كلياً على اللعب ضمن الاطر التقليدية القائمة للسياسة اللبنانية والمراهنة على تناقضاتها وليس على محاولة لتبديلها جذرياً ولعزل القوى التقليدية ضمن قواعدها على أسس لا طائفية وتغييرية علمانية واضحة .

٢ — ومن جهة أخرى اعتمدت جبهة الاحزاب ، في مجال الاستقطاب والتجمع السياسي والجماهيري ، استغلالاً مقصوداً لازدواجية المطالب المرفوعة : فالتمثيل النسبي يمكن اعتباره كمطلب ديمقراطي وعصري ويمكن في الوقت نفسه عرضه وتأويله كمطلب ينصف « الطوائف المغبونة والمحرومة » ضمن منطق النظام الطائفي (انصاف الكتل الطائفية كل حسب وزنه الديمغرافي ، انهاء التسلط الماروني والامتيازات ، والتجنس الخ) . تحت شعار « الغاء الطائفية السياسية » أرادت جبهة الاحزاب أن تجمع بين من يقصد بهذا الشعار قلب الميزان القائم لصالح طائفته لوفرة عددها غير المعلن أو قوتها الصاعدة ، ومن يقصد به تغيير الاطار الطائفي للنظام السياسي في لبنان لصالح نظام ديمقراطي علماني عصري يساوي بين المواطنين .

ضمن هذا الخط الاستراتيجي ، وضعت جبهة الاحزاب نفسها في خط مواجه للكتلة الطائفية المسيحية ، ونظرت الى هذا الموقف في الربط بين هذه الكتلة الطائفية وبين السيطرة الطبقية ، علماً أن رهانها على الصف الاسلامي الطائفي وامكانية سيطرتها عليه لم تنجح كما كانت تتصور .

وهكذا بدل أن تلعب جبهة الاحزاب دورها ككتلة رئيسية مناقضة للكتلتين الطائفيتين ، وان تقود القوى الديمقراطية والعلمانية التغييرية ، فقد وضعت نفسها تحت راية الشعارات والأيديولوجية الطائفية الاسلامية ، الأمر الذي أدى الى تخليها عن جوهر ومبرر وجودها في الواقع السياسي اللبناني ، بل والعربي أيضاً .

هذا على مستوى التحرك السياسي ، فهل صحيح ، على مستوى التحليل الاجتماعي — الاقتصادي والتاريخي أن المسيحيين عامة ، والموارنة — أو بعضهم — يتمتعون ، كما ذهبت قيادات جبهة الاحزاب ، بالامتيازات : الاقتصادية — الاجتماعية والسياسية ؟ سوف نناقش هذه المقولة من زاويتين :

١ — تسليط بعض الاضواء على الخلفية التاريخية التي سببت ، نسبياً ، غنى بعض المناطق المسيحية على المناطق الاسلامية .

٢— تحليل سريع للواقع الطبقي في المجتمع اللبناني عشية اندلاع الحرب اللبنانية .

بيد أنه من الضروري التشديد على حقيقتين أساسيتين :

أ— ثمة اختلاف جوهري بين الطائفة والطبقة . فالطائفة هي جماعة منظمة من الناس يمارسون معتقداً دينياً بوسائل وطرق وفنون معينة . انها اذن تجمع ديني في الأصل والممارسة والغاية . واذا ما اكتسبت مع الزمن بعداً اجتماعياً سياسياً ، فذلك عائد الى نوع فهمها وتطبيقها للدين ، والى الظروف التاريخية التي اجتازتها .

أما الطبقة فإنها ، على نقيض الطائفة ، جماعة من الناس يشتركون في وضعية معيشية ، اقتصادية واجتماعية ، اشتراكاً قائماً على ادراك لوحدة المصالح والقيم فيما بينهم وعلى دفاع متكامل عنها بشتى الوسائل المناسبة . انها ، اذن ، تجمع اقتصادي— اجتماعي في الأصل والممارسة والغاية .

ب— ان المهم في عرضنا التاريخي لأسباب غنى بعض المناطق المسيحية على بعض المناطق الاسلامية ، والواقع الطبقي عشية الحرب اللبنانية ، هو تلمس عناصر آلية التكوين الطبقي والطائفي أكثر من معرفة صورة التركيب الطبقي أو الطائفي في لحظة معينة . في أي اتجاه يسير التكوين الطبقي ؟ هل الى مزيد من التفاوت على أساس طائفي ، أم هل الى تقارب وتدامج بين الطوائف ؟

الخلفية التاريخية التي سببت غنى بعض المناطق المسيحية على بعض المناطق الاسلامية

يمكن ايجاز الأسباب التي أدت الى غنى بعض المناطق المسيحية على بعض المناطق الاسلامية بالتالية :

١— **أسبقية المسيحيين في مجال التجارة** : تعود أسبقية المسيحيين في مجال التجارة الى أيام السلطنة العثمانية حيث كان التطابق واضحاً بين جماعات الأقليات الدينية ومهن معينة ، وحيث كان تركز هذه الأقليات في ميادين الحرف والمضاربة والتجارة وغيرها من الخدمات الاقتصادية مما يمكن اعادته : من ناحية الى استبعادها من الوظائف الحكومية والجيش ، ومن ناحية أخرى الى ميلها الى النشاط الاقتصادي والى الاستقلال الذاتي للملة[١٧] .

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر ، وبموازاة تصاعد الرأسمالية في أوروبا ، أخذت العائلات المسيحية في لبنان ، وبخاصة الاورثوذكسية ، تزداد ثروة وثقافة ونفوذاً . فالحماية الاجنبية لم تمنحها امتيازات سياسية فحسب ، بل وفرت لأبنائها أيضاً ، وهم عملاء التجارة مع أوروبا في ذلك الحين ، منافع تجارية ومالية[١٨] .

وهكذا كان التجار المسيحيون في لبنان جزءاً من شبكة تربط بيروت

بالاسكندرية وليفورنو وتريستا ومرسيليا ، وقد وفرت لهم معرفتهم المباشرة بالحياة الاوروبية تفوقاً في اتقان الأساليب الحديثة للتجارة والشؤون المالية .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ، ومع تصاعد ازدياد المصالح الفرنسية في السلطنة ، وخاصة في سوريا ولبنان ، لعب الوسطاء اللبنانيون المسيحيون دوراً أساسياً في توسيع التجارة الفرنسية مع المنطقة تصديراً واستيراداً . فنلاحظ مثلاً في تقرير للقنصل الفرنسي سنة ١٩١٣— ١٩١٤ أن عدد مستوردي المواد المصنعة من أوروبا ومصدري المواد الخام اليها بلغ ٩٠ شخصاً في بيروت ، منهم فقط ٩ من المسلمين والبقية مسيحيون . أما في صيدا وصور ، حيث يشكل المسلمون أكثرية بين السكان ، فكان المسيحيون يسيطرون أيضاً على التجارة ، وفي حقل شركات التامين كان هناك مسلم واحد من أصل ٣٤ شخصاً . كذلك فإن وكلاء الشركات البحرية بلغ ١٥ شخصاً كلهم مسيحيون وأجانب . أما مصدرو الحرير سنة ١٩١٠— ١٩١١ فكانوا بأكثريتهم الساحقة من المسيحيين اذ كان المسلمون يصدرون ٦٠ في المئة من كمية الحرير المصدرة[١٩] ، علماً أن أماكن انتاج هذا الموسم الرئيسي للاقتصاد اللبناني كانت متركزة في المناطق المسيحية ، وخاصة حيث يوجد أديرة ، وإلى حد ما في المناطق الدرزية . وكانت الرهبانية اللبنانية المارونية تنتج سنوياً نحو ٣٥٠ ألف اقة شرانق ، ويدخل الصندوق العام للرهبانية نحو ٣٥٠٠ ليرة ذهبية من موسم الشرانق وحده[٢٠] .

وفي ظل الانتداب استمر اعتماد الفرنسيين على التجار المسيحيين اللبنانيين في الهيمنة على أسواق المنطقة . فكان تجار بيروت يشرفون على مرور بضائع بملايين الفرنكات المحمولة الى تركيا وإيران وفلسطين وسوريا ومصر والعراق ، وقد خلّف هؤلاء التجار ثروات طائلة جداً ، وشكلوا القاعدة الأساسية للبورجوازية التجارية في لبنان المستقبل[٢١] .

ومع تصاعد قطاع الخدمات ، في ظل الاستقلال ، استمر التجار المسيحيون بالاستفادة في هذا المجال .

٢— **أسبقية المسيحيين في مجال التعليم** : ليس من شأننا التوسع في هذا الموضوع وانما حسبنا الاشارة الى عدة عوامل ساعدت المسيحيين على أن يكون لهم أسبقية في مجال التعليم .

أ— علاقاتهم التاريخية مع الغرب ، وخاصة مع روما وفرنسا . وقد نتج عن هذه العلاقة ذهاب العديد من أبناء الطائفة المارونية خاصة لتحصيل الدراسات العالية في أوروبا (في المدرسة المارونية في روما التي انشئت أواخر القرن السادس عشر) . وقد ساهم الطلاب العائدون في ايجاد نهضة علمية في أوساط الطائفة .

ب— مجمع اللويزة الذي عقد عام ١٧٣٦ . وقد برز من مقررات هذا المجمع ، فيما يتعلق بموضوعنا ، عدة نقاط :

— التعليم يجب أن يبدأ من الصغر قبل أن ترسخ العادات السيئة .

— ان التعليم يجب أن يصبح الزامياً وقريباً من المجاني : «ان المطارنة والاساقفة والخوارنة ورؤساء الأديرة تهتم وتقيم معلمين ، ويحرروا أسماء الأولاد القابلين للعلم ، ويأمروا أهلهم بأن يرسلوهم الى المدرسة . والفقراء والأيتام تؤمن لهم الكنيسة معاشهم . وأجرة المعلم يعطي منها جزءاً أهل الأولاد وجزءاً الكنيسة»[٢٢] .

— ان الكنيسة هي المسؤولة الأولى عن تنظيم التعليم والاشراف عليه .

— توصية المجمع بمعاملة البنات في شؤون التعليم تماماً كالصبيان ، على أن تتولى الراهبات أمر تربيتهن وأرشادهن الى الصلاح والتقوى[٢٣] .

ج— الارساليات التبشيرية : وهي قديمة العهد في لبنان وبلاد الشام ، وفي الوقت الذي كانت تثير الريبة والشك في نفوس غالبية المسلمين (لنشاطاتها الدينية والسياسية والاقتصادية) كانت من جهة أخرى تسدي النفع بتعليم المسيحيين الكتابة والقراءة بحيث سهلت لهم سبل الترقي الاجتماعي من خلال

الوظائف المختلفة التي أخذوا يشغلونها في الادارة(٢٤). وقد أدى التزاحم بين البعثات التبشيرية الى زيادة عدد المدارس والى فتح الجامعتين الاميركية واليسوعية. وبينما كانت اليسوعية تكاد تقتصر على الطلاب المسيحيين، كانت الجامعة الاميركية تضم طلاباً من كل الطوائف مع أرجحية مسيحية(٢٥).

د — **التعليم في ظل الانتداب وفي فترة الاستقلال**: في ظل سياسة الانتداب بقيت الهيمنة للتعليم الخاص. وفي سنة ١٩٣٥ توزعت نسبة الأمية بين الطوائف على النحو التالي: ٨٣ بالمئة بين الشيعة، ٦٦ بالمئة بين السنة، ٥٣ بالمئة بين الأرثوذكس، ٤٨ بالمئة من نمو التعليم الرسمي الذي وفر لأبناء الطبقات الفقيرة مجال التعليم، بقي للتعليم الخاص على مستوى المدرسة وعلى مستوى الجامعة الدور الهام، الأمر الذي أبقى على نوع من التفوق للمسيحيين وأن يكن أقل بكثير مما كان عليه سابقاً(٢٦).

هـ — **أسباب عدم انكباب المسلمين على المدارس في العهد العثماني**: أوضح الشيخ رشيد رضا، صاحب مجلة «المنار»، ظاهرة الامية عند المسلمين، فأعادها الى أن اغنياء المسلمين كانوا يعتقدون أن طلب العلم انما يراد لطلب الرزق، ومن العار على أبنائهم أن يطلبوا العلم للارتزاق «من شق القصبة»(٢٧). بالاضافة الى كون المدارس في أغلبها مسيحية، فقد كانت السلطات العثمانية تغرس فكرة الحذر من هذه المدارس حتى يظل المسلمون على حالهم فلا يطلبون اصلاحاً ولا يطالبون بحق.

ولكن، ما يجدر ملاحظته هو أن التفاوت بين الطوائف قد تضاءل كثيراً في مجال الانكباب على التعليم، ويمكن القول ان التعليم في لبنان هو أحد أهم سبل الترقي الاجتماعي.

٣ — **عدم وجود خدمة العلم في جبل لبنان**: إن وجود خدمة العلم في ولاية بيروت والأقضية الاربعة، وعدم وجودها في المتصرفية، مع قيام حروب عديدة

خاضتها السلطنة في البلقان خاصة، أدى الى استنزاف الطاقات البشرية في المناطق الاسلامية والى شل نسبة كبيرة من الشباب الذين كان بامكانهم تطوير المستوى الاقتصادي فيها، بينما، في المقابل، كان مسيحيو الجبل يثمرون جهدهم البشري في تطوير أوضاعهم الاقتصادية.

٤ — **الهجرة**: بغض النظر عن أسبابها المختلفة، وعن بعض نتائجها السلبية، فإن تركز الهجرة في المناطق المسيحية بشكل خاص، إبان المتصرفية وفي المرحلة اللاحقة للحرب العالمية الأولى، أدى الى تحسن الوضع الاقتصادي في هذه المناطق لسببين: التخفيف من كثافة السكان وما نتج عن ذلك من امكانية التخفيف، نسبياً، من تفكك الحيازات الزراعية، ومن جهة أخرى تدفق الأموال والمساعدات من دول الاغتراب، وكذلك الرساميل واليد العاملة المدربة والنشيطة التي وفرها بعض المهاجرين العائدين، وهي عوامل لعبت دوراً هاماً في تطور الصناعة وقطاع الخدمات(٢٨).

وأما الهجرة الاسلامية فقد حدثت خاصة بعد الحرب العالمية الثانية نحو أفريقيا والبلاد العربية بشكل خاص.

٥ — **تفاوت المعاملة بين لبنان الصغير والمناطق المضمومة أبان عهد الانتداب وحتى خلال فترة الاستقلال**. فبسبب احتجاج المناطق المضمومة الى جبل لبنان وطلبها الوحدة مع سوريا كانت معاملتها كمناطق من الدرجة الثانية، فالضرائب هناك أكثر ارتفاعاً من الضرائب في جبل لبنان، وادارة حصر التبغ تختلف امتيازاتها أيضاً عنها، كذلك تفرض الرسوم الضريبية على المواد الغذائية الأولية كالملح والسكر وغيرهما، فبقيت المناطق المضمومة في موقع وسط بين سوريا ولبنان. وفيما كان فلاحو الجبل — بسبب عوامل عدة، وخاصة استفادتهم من موسم الحرير — يحافظون على ملكياتهم الصغيرة ويشترون قطعاً جديدة من أراضي المقاطعجية الذين اخذت سلطتهم بالتراجع، كان فلاحو المقاطعات المضمومة يرزحون تحت سيطرة اقطاعية متماسكة نسبياً تهيمن على ملكيات واسعة غير

معرضة للتجزئة وتمارس فيها شتى أنواع الاستغلال والحرمان والظلم الاجتماعي، وكانت سلطات الانتداب تدعم هؤلاء الاقطاعيين وتعتمد عليهم، بل أن أغلب نواب هذه المناطق في المجالس المتتابعة في عهود الاستقلال كانوا في أكثريتهم الساحقة من هؤلاء الاقطاعيين، وقد كان من نتيجة ذلك عدم اهتمامهم بتحسين مناطقهم وتحقيق المشاريع الانمائية المختلفة فيها (مدارس، مستشفيات، مشاريع اصلاح زراعي، وطرقات وكهرباء وصناعات الخ...).

٦— **تمركز الاصطياف حول بيروت**: إن الخيرات الناتجة عن موسم الاصطياف لم تعم لبنان كله بل تمركزت، بشكل أساسي، في المناطق المحيطة ببيروت والقريبة منها أي على محاور الطرقات الممتدة بين بيروت — عاليه — بحمدون — صوفر، وبيروت بيت مري — برمانا — ضهور الشوير وبكفيا. ولئن تعدت ذلك فنحو كسروان شمالاً والشوف جنوباً، والمعلوم أن أغلب سكان هذه المناطق من المسيحيين.

٧— **تمركز المناطق الزراعية في الاطراف**: من الملاحظ أن الأكثرية الساحقة من العاملين في الزراعة توجد في المناطق التي ضمت الى لبنان سنة ١٩٢٠ في الشمال والبقاع والجنوب، وهذه المناطق هي في غالبيتها من المسلمين. أما القطاع التجاري الذي يستغل الزراعة فهو بأكثريته من سكان الجبل أو من المسلمين السنيين سكان المدن[٢٩]. وعليه، ولما كان قطاع الخدمات هو المشكل لنسبة ثلثي الدخل القومي وقطاع الزراعة لا يشكل أكثر من عشرة في المئة من هذا الدخل، يبدو من البديهي أن يسيطر المسيحيون — كونهم أكثرية في قطاع الخدمات — على نسبة أكبر من الدخل القومي.

٨— **الولادات عند المسلمين أكثر منها عند المسيحيين**: من المسلّم به عند دراسي علم السكان أن ثمة عوامل متعددة تؤثر في الولادات منها العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية. وكل هذه العوامل تتفاعل فيما بينها وتؤدي عندنا الى زيادة عدد الولادات عند المسلمين أكثر منها عند المسيحيين.

LAU Byblos Library

ماذا يمكن أن نستنتج من هذه الخلفية التاريخية؟

١— من الصحيح أن هناك بعض المناطق المسيحية أكثر غنى من بعض المناطق الاسلامية.

٢— ليس صحيحاً أن المسلمين بغالبيتهم فقراء، وأن المسيحيين بغالبيتهم أغنياء. بل يمكن القول ان هناك طبقات مختلفة في كل الطوائف.

٣— ان العوامل التي أدت الى التمايز بين مناطق مسيحية ومناطق اسلامية هي عوامل تاريخية ليست عائدة لتخطيط مسبق من قبل المسيحيين أو المسلمين، وبالتالي لا يمكن توجيه الاتهام الى هذه الطائفة أو تلك بأنها كانت المسؤولة عن هذه الظواهر.

٤— ان التطور كان يسير لمصلحة التخفيف من هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية بين المناطق وبين الطوائف.

٥— ان الصراع الاجتماعي لتخطي الفوارق الاقتصادية بين أبناء الطوائف وصولاً الى بناء مجتمع ديمقراطي لا مكان فيه للاستغلال، يجب أن ينطلق من فهم تاريخي لأصول وأسباب تلك الفوارق ومواجهة المشكلة على نحو لا يؤدي الى التفكك والصدام الطائفي.

التركيب الطبقي في لبنان عشية الحرب

ليس من شأننا التفصيل في تحليل الواقع الطبقي في المجتمع اللبناني عشية الحرب اللبنانية ، لكن حسبنا التوقف عند بعض الحقائق الهامة (مستندين فيها وفي غيرها على دراسات للصديق سليم نصر ولا سيما كتابه عن الطبقات الاجتماعية في لبنان). وتهمنا هذه الحقائق لكونها تسلط بعض الأضواء على صحة مقولة الطائفة ــ الطبقة .

١ ــ على صعيد الطبقات البورجوازية في لبنان نلاحظ الوقائع التالية :

١ ــ **في مجال الملكية العقارية** : ثمة ملكيات لا تزال واسعة لبكوات عكار (سنة) ، وبعض العائلات الشيعية في الجنوب ، وبعض الأديرة وخاصة المارونية في جبل لبنان . هذه الملكيات تتفتت لصالح بورجوازيات ناشئة في المدن .

التجار والمرابون الصيداويون ، وغالبيتهم من السنة أيضاً ، يشترون على امتداد الساحل الجنوبي ، ويشاركهم في ذلك مهاجرون عائدون غالبيتهم من الشيعة .

وهناك تجار ومرابون في زحلة ، غالبيتهم من الروم الكاثوليك ، يشترون في البقاع .

ب ــ **في المجال الصناعي** : ثمة بورجوازية سنية في بيروت وطرابلس تسيطر على ثلث الصناعات الثقيلة . وثمة بورجوازية من الروم الكاثوليك والارثوذكس تسيطر على ثلث الصناعات الثقيلة أيضاً . وهناك بورجوازية مارونية تسيطر على الثلث الأخير ، وخاصة في مجال النسيج .

ج ــ **في مجال التجارة** : هناك وجود متساو تقريباً للبورجوازيات السنية والأرمنية والمسيحية ، وخاصة المارونية (في القطاع الثالثي) .

د ــ **في المجال المالي والمصرفي** : من الملاحظ وجود هيمنة لبورجوازية من الروم الكاثوليك والسريان في هذا القطاع ، وكذلك هناك وجود للبورجوازية المارونية وبدايات لبورجوازية شيعية .

انطلاقاً مما تقدم يمكن الاستنتاج أن البورجوازية المارونية ليست هي المهيمنة بالشكل الذي طرحته جبهة الاحزاب ، بل ان وجودها في هذه الطبقة هوبنسبة وجود الطائفة المارونية في المجتمع اللبناني ككل تقريباً .

٢ ــ **على صعيد الطبقات الوسطى** : ليس هناك دراسات علمية وحصرية في هذا المجال ، لكن يمكننا ملاحظة عدة أمور :

أ ــ **على صعيد القطاع العام** : هناك نسبة متساوية أو متقاربة من الموظفين المسيحيين والمسلمين طبقاً لاحصاءات صادرة عن مجلس الخدمة المدنية .

ب ــ **في مجال المهن الحرة** : من أصل ٨٠٠٠ محام ومهندس وطبيب هناك ١٥٠٠ سني و٩٠٠ شيعي و٣٠٠ درزي أي نسبة ٣٤٪ تقريباً من المجموع ، ولا شك أن التفاوت الطائفي موجود في هذا القطاع غير أن هذا التفاوت كان يسير في اتجاه التناقص مع نمو التعليم الرسمي وتطور الجامعة اللبنانية .

٣ ــ على صعيد الطبقات الشعبية :

أ ــ **العمال الصناعيون** : ثمة دراسة لمرلين وسليم نصر حول الصناعة الكبيرة

LAU-Byblos Library

في ضواحي بيروت الشرقية (المشكلة لثلث الصناعة الكبيرة في لبنان) بينت أن ٤٥٪ من العمال الصناعيين في هذه المنطقة من المسيحيين و٥٥٪ من المسلمين، ويشكل العمال الموارنة من النسبة الأولى ٢٩٪ ويشكل الشيعة من النسبة الثانية ٤٤٪.

على ضوء ذلك يمكن التساؤل عن مدى صحة القول بأنه لا يوجد في الطائفة المارونية فئات عمالية؟

ب — **الفلاحون**: ان تمركز الموارنة والشيعة والدروز بشكل عام في المناطق الزراعية يؤدي الى الاستنتاج بأنهم هم الأكثرية المشكلة للفئات الفلاحية في لبنان. مع الاشارة الى وجود فلاحين من الروم الكاثوليك خاصة في البقاع ومناطق الجنوب ووجود روم أورثوذكس وسنة في عكار والكورة والبقاع والجنوب.

وهكذا يتضح بأن تحليل جبهة الاحزاب للواقع الاجتماعي في لبنان هو تحليل غير صحيح، وبالتالي فإن البورجوازية المارونية ليست وحدها هي صاحبة الامتيازات، كما أن بين الموارنة طبقات شعبية تعاني من الحرمان.

وحسبنا ايراد بعض النتائج السلبية التي نتجت عن التحليل الاجتماعي الخاطئ وعن الاستراتيجية السياسية التي اعتمدتها جبهة الاحزاب.

LAU-Byblos Library

في بعض النتائج السلبية التي أدت اليها مقولة الطائفة — الطبقة

في الحقيقة لا يمكننا الجزم والتأكيد أن مقولة الطائفة — الطبقة هي المسؤولة وحدها عن السلبيات التي سنوردها، لكن من الأكيد أنها كانت في طليعة المقولات والمواقف التي أدت الى الأوضاع الحالية.

ما هي النتائج السلبية؟

١ — بدل أن يتم عزل حقيقي، على صعيد الواقع الاجتماعي، لأحزاب الجبهة اللبنانية، فقد عرفت هذه الاحزاب توسعاً أفقياً، واستطاعت استقطاب قوى اجتماعية كان من مصلحتها حدوث التغيير.

٢ — إن الهجمات الجماعية التي مارستها المقاومة الفلسطينية وجبهة الاحزاب (منطلقة من مقولة الطائفة — الطبقة) وضعت هذه القوى الاجتماعية — في الوسط المسيحي — في موقع اللاخيار، ففضلت الاحتماء بالآلة العسكرية لاحزاب الجبهة اللبنانية، لأن البديل لم يكن الخلاص والنظام الجديد، بل كان اجتياحاً واذلالاً يذكران بأيام أهل الملة وأهل الذمة، اذا لم نقل ابادة لكل مظاهر الحياة والعمران.

٣ — ان التدخل الفلسطيني العسكري، وخاصة بعد معركة الجبل، قد أيقظ نزعة اقليمية وطنية في أوساط لبنانية واسعة. ومهما قيل بأن المقاومة جرت الى هذا الموقف دفاعاً عن النفس، فإن هذا القول يفتقر الى الحجج والبراهين المقنعة.

٤ — ان التركيز المستمر على الموارنة كطائفة واطلاق التهم الجماعية بحقهم ، والطعن بانتمائهم العربي (لا سيما وإن عروبة الطاعن لم تربط ببعد علماني ديمقراطي) ، وتشبيههم بالصهاينة ، وطرح المشكلة في لبنان وكأنها تحل اذا انتزعت منهم الامتيازات ، إن التركيز على كل ذلك أدى الى نتائج خطيرة ليس أقلها تقوية التيارات التعصبية الموجودة في الأوساط الشعبية المارونية خاصة والمسيحية عامة ، وهذه التيارات ذات جذور تاريخية ، وكان لها وزنها ورأيها المتشدد في المفاصل التاريخية التي مرت بحياة لبنان . فهذه التيارات كانت متحمسة للبنان الكبير من منظار حاجة لبنان — المتصرفية — الى مكاسب جغرافية (سهلية ومرفئية) تساعده على مواجهة المصاعب الاقتصادية . وهذه التيارات كانت مصرة على استمرار الوجود الفرنسي ولم تكن متحمسة لما يسمى في تلك الفترة «معركة الاستقلال» .

وحتى بعد الاستقلال فقد تقدمت قيادات روحية عالية في الطائفة المارونية بمذكرة الى الأمم المتحدة كانت بعنوان «لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق» .

وفي فترة الخمسينات والستينات بدأت ملامح ايديولوجية وفكرية تتبلور داعية «لقومية لبنانية» ولدعوات لغوية عامية وما الى ذلك من الطروحات الاقليمية . وفي هذه الحرب ، ضمن الأفق الطائفي الذي سارت به ، أخذ ساعد هذه الأيديولوجيا الاقليمية يشتد ، فكانت ابحاث الكسليك من أكثر المحاولات الفكرية تماسكاً نسبياً ، الأمر الذي أدى بجزء كبير ، حتى من الاوساط المتعلمة ، الى العودة الى الحذر من الانفتاح على القضايا العربية وترديد بعض المصطلحات التي أصبحت رائجة (من مثل التعددية الحضارية ، الكانتونات ، اللامركزية السياسية الخ ...) .

ألا نستطيع التساؤل عما هو دور مقولة الطائفة — الطبقة في تقوية مثل هذه التيارات؟

٥ — لقد شددت قيادات جبهة الاحزاب على اعتبار الطائفية مجرد وسيلة في أيدي أصحاب المصالح لمنع حدوث الصراع الاجتماعي الطبقي ، واعتبرت ان الرد يمكن أن يكون بمواجهتها بـ «طائفية أيجابية» تكون طريقاً لتفجير الصراع الطبقي .

LAU-Byblos Library

ان هذا الموقف يتجاهل كون الطوائف هي وجود تاريخي لعبت دوراً هاماً ، ولا تزال ، في التاريخ اللبناني ، وبالتالي فإن الصراع الطائفي لا يتحول بأي حال الى صراع طبقي بل يرسخ الأيديولوجية الطائفية ويضعف الايديولوجية الطبقية . وهذا ما هو حاصل في الوضع اللبناني الراهن .

٦ — ان الأحزاب التي تطرح نفسها كبديل في أي مجتمع يفترض ان تتمتع بعدة مميزات أساسية منها : معرفتها بالواقع الاجتماعي الذي تتحرك فيه ، وبالتالي امتلاك التصور الواضح لما تريد تغييره والبديل الذي تريد فرضه .

ومن هذا المنطلق الا يحق لنا التساؤل : هل فهمت جبهة الاحزاب الواقع الاجتماعي اللبناني؟ وهل الاستراتيجية التي اتبعتها أوصلت الى أحداث التغيير المطلوب؟

بل يمكننا أن نتساءل : هل السلطة البديلة التي فرضتها جبهة الاحزاب والمقاومة على المناطق التي سيطرت عليها — أو لا تزال في الجنوب — هي أفضل من السلطة التي كانت قائمة؟

ان التغيير في لبنان مرتبط بحسم جملة منطلقات بالغة الأهمية : الايمان بلبنان الوطن ، وبأن قوى التغيير هي القوى المستقلة من كل الطوائف ، وبأن المقاومة الفلسطينية ليست «الرافعة الثورية» في لبنان بل ان مجال ثورتها هو أرض فلسطين المحتلة .

فهل تقوم قوى تغييرية تصارع قوى التخلف والاستغلال ، موفقة بين مقتضيات المسألة الاجتماعية الاقتصادية من جهة ، وحاسمة للمضمون العلماني للمسألة القومية والانتماء العربي من جهة أخرى؟

ان السؤال لبالغ الأهمية ، وعلى كل فهناك قوى سوف تستمر في صراعها من أجل بناء لبنان العلماني الديمقراطي العربي ، مواجهة لكل المصاعب المحتملة .

مراجع

(١) مجلة «الأخبار» ، العدد ١٣٠ ، ٩ آب ١٩٧٥ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) العدد التاسع ، أيلول ١٩٧٥ .

(٤) مجلة «الأخبار» ، العدد ١٢٦ ، ١٩٧٥ .

(٥) جريدة «الأنباء» ، ١٢ شباط ١٩٧٦ .

(٦) جريدة «الأنباء» ، ٢٣ تشرين الأول ١٩٧٥ .

(٧) جريدة «الأنباء» ، ١٢ شباط ١٩٧٦ .

(٨) جريدة «الأنباء» ، ٢٦ حزيران ١٩٧٥ .

(٩) جريدة «الأنبياء» ، أول آب ١٩٧٦ .

(١٠) جريدة «الأنباء» ، ١٠ نيسان ١٩٧٦ .

(١١) جريدة «الأنباء» ، ١٢ حزيران ١٩٧٦ .

(١٢) تقرير منظمة العمل الشيوعي . صيف ١٩٧٥ . ص ٢٩ .

(١٣) المرجع نفسه . ص ٦٩ .

(١٤) المرجع نفسه . ص ٦٩ .

(١٥) جريدة «السفير» . ٤ تموز ١٩٧٥ .

(١٦) العددان ٥٠ / ٥١ . ١٩٧٥ . ص ٣٧ و٣٩ .

(١٧) زي هرشلاغ . مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط . ص ٣٨ .

(١٨) البرت حوراني ، الفكر العرب في عصر النهضة ، ص ٥٨ — زين نور الدين زين . نشوء القومية العربية ، ص ٤٧ .

(١٩) فؤاد شاهين . الرأسمالية اللبنانية وفدرالية الطوائف . ص ٢٩ . (نقلاً عن اطروحة مخطوطة للدكتور بطرس لبكي) .

(٢٠) الأب مارون كرم . قصة الملكية في الرهبانية اللبنانية المارونية . ص ٢٣٦ .

(٢١) مسعود ضاهر . تاريخ لبنان الاجتماعي . ص ١١٦ .

(٢٢) المجمع اللبناني ، طبعة ١٧٨٨ ، ص ٣٧٨ .

(٢٣) الفكر العربي في مائة عام ، ص ٤٧٢ و٤٧٣ .

(٢٤) زين زين ، المرجع السابق ، ص ٥٣ و٥٤ — كمال الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث ، ص ٤٢ — جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ص ٩٧ — ١٠٩ .

(٢٥) مسعود ضاهر ، المرجع السابق ، ص ١٧٦ .

(٢٦) قال الرئيس بشارة الخوري : «لم يكن العلم وقفاً على طائفة دون اخرى ، وسيكون العلم اليوم غير خاضع للطائفية» . (مجموعة خطب ، ص ٢٩) .

(٢٧) مجلة «المنار» ، المجلد ١٩ ، الجزء الثالث .

(٢٨) سعيد حماده ، النظام الاقتصادي في سوريا ولبنان ، ص ٨٧ .

(٢٩) فؤاد شاهين ، المرجع السابق ، ص ٢٣ .

LAU-Byblos Library

LAU-Byblos Library

مقدّمات أوليّة*

حول مقولة التعددية الحضارية

* محاضرة ألقيت بدعوة من «الديمقراطيين العلمانيين» بتاريخ ٦ ك٢ ١٩٧٨.

LAU-Byblos Library

منطلقات

ان قيامنا ، في هذه الدراسة ، بتفنيد مقولة التعددية الحضارية يحملنا على إيراد بعض المنطلقات التي توجه تحليلنا :

١ — ان حرية الرأي ، أو التعددية بالمفهوم المسلم به في علم السياسة ، ليست مجال نقاشنا في هذه الدراسة . بل اننا نؤكد أن التعددية ، التي هي نقيض المنحى التوليتاري في السلطة والدولة والمجتمع ، هي مجال تأييد وممارسة من قبلنا كديمقراطيين علمانيين .

٢ — ان ما نسعى لتفنيده هو مقولة « التعددية الحضارية » التي شكلت ، ولا تزال ، أطروحة تحمل في ثناياها المقدمات النظرية لحل « الكانتونات » أو « اللامركزية السياسية » ، هذا الحل الذي يعتبر ، من وجهة نظرنا ، مدخلاً عملياً لتفكيك الوطن اللبناني ولبلقنة المشرق العربي بما يتفق مع مخططات العدو الصهيوني والقوى الدولية التي تريد استمرار سيطرتها على منطقتنا .

٣ — اننا نسلم بأن المجتمع اللبناني يعاني ، في المرحلة الراهنة ، أزمة كيانية عميقة هي محصلة لجملة عوامل وتراكمات وفي طليعتها :

— واقع الاستغلال الاجتماعي .

— توتر العلاقات بين الطوائف .

— أزمة القوى السياسية التي كانت في الحكم أو في خارجه .

— نتائج الوجود الفلسطيني وتداخله مع مظاهر التوتر الاجتماعي والطائفي والسياسي .

— تأثير الأنظمة العربية وخاصة سوريا .

— تأثيرالوجود الصهيوني وخططه لمستقبل المنطقة .

— تأثير القوى الدولية وبخاصة أميركا وروسيا وبعض البلدان الأوروبية ، ومقتضيات مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية في المنطقة .

ولئن كنا نستشعر عمق الأزمة الكيانية الراهنة لوطننا ، بتشعبات جذورها ، فإننا نطمح في نقاشنا الحلول المطروحة ، ومنها مقولة التعددية الحضارية ، الى الانطلاق من استيعاب مجمل هذه التحديات ، لإيجاد حل يرسّخ الوطن اللبناني على أسس من الاستقرار والصمود ، وعلى نحو ينسجم والاتجاه الانساني لحركة التاريخ .

٤ — من الخطأ الانتظار بأننا في هذه الدراسة سوف نبين أنه ليس في لبنان بنى اجتماعية (طوائف) متمايزة في بعض خصائصها. فنحن نعتقد بأن أية ايديولوجية — بما فيها مقولة التعددية الحضارية — لا تأتي من لا شيء بل تعكس بنيات وتراكمات اجتماعية وسياسية وثقافية موجودة في المجتمع اللبناني. وما يهمنا التأكيد عليه هو :

— ان التمايز بين الطوائف لا يشكل «تعدد حضارات» .

— ان هذا التمايز ليس — كما يذهب منظرو «التعددية الحضارية» ظاهرة ازلية أبدية يجب أن تبقى وتتثبت في عقول الناس واعرافهم وفي طبيعة النظام السياسي المرتجى .

— إننا نعتبر ان الكيانات الطائفية لها تأثيرها في مجتمعنا اللبناني من نظام العائلة ، الى نظام التزاوج ، الى المؤسسات المختلفة ، الى التربية ، الى قاعدة المجتمع الاثنية ، الى توزيع الناس ، الى السكن ، الى الهجرة من الريف الى

LAU-Byblos Library

المدينة . لكن مفهومنا لهذه الكيانات ينطلق من فهم تاريخي لها في واقعها وفي مستقبل تغيرها . وعلى قاعدة هذا الفهم الجدلي الدينامي نصارع لبناء المجتمع والنظام العلمانيين. وهذا التوجه — في بعديه الأيديولوجي والاستراتيجي — يتناقض قطعاً مع مقولة «التعددية الحضارية» و«الكانتونات» .

٥ — ان تفنيدنا لمقولة «التعددية الحضارية» ، وما ينبثق عنها من مشروع سياسي ، يحملنا على التفريق بين فئتين :

أ — فئة — تشكل الأكثرية الساحقة — وهي مخلصة في سعيها لإيجاد مخرج من أزمتها الكيانية . ونحن نحترم اخلاصها واليها نتوجه .

ب — فئة — تشكل الأقلية الضئيلة — وهي سيئة النية ، تابعة لقوى خارجية ، تعرف انها ، تحت ستار اعطاء الحل للأزمة العميقة التي تعصف بمجتمعنا ، تقدم مشروعاً يشكل مدخلاً الى أزمات وويلات توصل مجتمعنا اللبناني — وربما المنطقة العربية — الى مرحلة التفتت والدمار . واللغة الوحيدة مع هذه الفئة هي الصراع الشامل الذي لا يقبل الحلول الوسط .

٦ — ان رواج هذه المقولة — خاصة في الأوساط المسيحية — لا يعني ان مسؤولية هذا الرواج تقع فقط على قصور الأيديولوجيا السائدة عند المسيحيين ، بل يجب علينا التأكيد على مسؤوليات ثلاث :

— الأيديولوجيا المتخلفة السائدة في أوسع الأوساط الاسلامية (وخاصة قضية العروبة وعدم ربطها بالبعد العلماني) .

— طروحات جبهة الاحزاب النظرية (وخاصة مقولة الطائفة — الطبقة) . وتأثير هذه المقولة على الاستراتيجية وبعض الممارسات الطائفية لتلك الجبهة .

— طبيعة الصراع الصهيوني — الفلسطيني في تشعباته وانعكاساته على المجتمع والنظام في لبنان (وبشكل خاص خطط الصهيونية لبلقنة المنطقة ، والأخطاء الفادحة والسلوك اللاعقلاني المتخلف من قبل المقاومة الفلسطينية) .

القسم الأول

أهم المرتكزات النظرية لمقولة التعددية الحضارية

أولاً : في المرتكزات النظرية :

لن نستطيع أن نعرض في هذه الدراسة كل الطروحات المتعلقة بهذه المقولة. ولكننا سنأخذ طروحات منظرين ثلاثة يعتبرون الأكثر تماسكاً نسبياً على الصعيد الفكري، وهم: الأب يوسف مونس، والدكتور فؤاد أفرام البستاني، والأستاذ امين ناجي. وسوف نعرض، بإيجاز، موقفهم من: الاسلام، المسيحية، مفهوم الوطن، العروبة، الحل المقترح.

١ــ الموقف من الاسلام والمسلمين:

أــ الأب يوسف مونس[١] :

يذهب الأب مونس الى أن «البنية الأثنية الاسلامية العربية، أي اثنية أهل السهول والبوادي (روح البادية ــ ابن خلدون)، تغلب عليها روح الترحال والغزو والتهديم والتدمير، ويطبعها القرآن بطابعه وخلقيته المميزة (تيوقراطي مطلق، عقدة التسامي، روح السلطة، الجهاد المقدس، وروح العدوانية)»[٢].

LAU-Byblios Library

ويدين الأب مونس المرحلة التي سبقت الحرب اللبنانية، حيث رحنا نخلط ونمزج بتعهر فكري وسياسي وحضاري مخجل نفسيات شعوب أهل الجبال والكبرياء وأهل السهول والعبودية، أهل المدائن الثابتة والحضارة المرهنة مع أهل البداوة والغزو، أهل البحار والسفر والشواطئ مع أهل الصحاري والبوادي، أهل التحولات والمتغيرات الأدونيسية والتجسدات الوثنية والمسيحية مع ذهنيات أهل الثوابت المنزلة المطلقة في اللغة والشرع والمعتقد[٣].

وعلى صعيد الموقف السياسي «اما أن يتنازل المسلم عن اسلامه ليلتقي بالمسيحي على قدم المساواة في الاخوة البشرية والوطنية وفي ممارسة السلطة السياسية وهذا غير جائز في الاسلام، واما أن يرضى المسيحي بحكم الاسلام وان يصبح من أهل الذمة وهذا ضد حرية الانسان والديمقراطية»[٤].

ويدين الأب مونس موقف الاسلام الذي ينمّي ــ في رأيه ــ «روح العدوانية والعنصرية وروح التسلط والتعالي ومركبات الكبرياء والتسامي. وهو (أي الاسلام)، بدافع عدواني مقدس، يبرر الاضطهاد الشرس الذي يمس الحرية الانسانية في أقدس خيار لها»[٥].

بــ الدكتور فؤاد افرام البستاني[٦] :

يؤكد الدكتور البستاني بأنه «إذا رضي المسلمون اليوم، تحت ضغط الظروف، بالتنازل عن بعض ما يفرضه دينهم فسيأتي غيرهم غداً وينقض باسم الدين عينه ما ابرمه سلفه»[٧].

جــ امين ناجي[٨] :

يقول الأستاذ أمين ناجي بأن «الاسلام دين ودولة، سلوك واخلاق، حياة يومية ومعاملات»[٩]. ثم يؤكد في مقالة وردت في الصياد أن «الاسلام يطلب من المسلم أن يحيا اسلامه في نظام اسلامي: الحاكم يجب أن يكون مسلماً، والفقه الاسلامي مصدراً للتشريع، والأحوال الشخصية النظام الوارد في القرآن

الكريم ، والمسلم المرتد يقتل شرعاً ... فالوحدوية العضوية بين الديني والدنيوي تجعل الحياة من نواحيها كافة اسلامية المنطلق والجوهر والهدف »[١٠] .

٢ — الموقف من المسيحية والمسيحيين :

أ — الأب مونس :

يذهب الأب مونس الى أن « البنية الاثنية اللبنانية المسيحية ، أي أثنية أهل الجبال والبحار (جبل لبنان) ، تغلب عليها المحاور الجغرافية الثابتة وحضارة وفولكلور أهل الجبال »[١١] ، وان الموقف المسيحي « ينطلق من المحبة والشهادة والخدمة وبذل الذات ، وينمي روح الأخوة والاحترام » ، انه موقف « المحبة ، ورغم خطأه في مسيرته التاريخية ، ينطلق من قبول تمايز الآخرين ، وينتهي حتى الى الشهادة لهم بفدائهم وببذل الذات حباً لهم »[١٢] .

ب — الأستاذ أمين ناجي :

يعتبر الأستاذ أمين ناجي بأن « المسيحيين يميزون بين حقلي الزمنيات والروحانيات ، فهم « يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . إنهم « علمانيون في طبيعة تطلعاتهم المدنية وان تأخرت العلمانية — لأسباب تاريخية — في الظهور في أوروبا »[١٣] .

ج — الدكتور فؤاد افرام البستاني :

يعتبر الدكتور البستاني بأن « سبب هذا النزاع الأساسي يعود الى الاختلاف بين المعتقد الديني الاسلامي والمعتقد المسيحي في النظر الى الدولة والوطن ... »[١٤] . ويؤكد في الوثيقة المقدمة الى سيدة البير[١٥] « بأن لبنان كما ننظر اليه نحن (المسيحيون) ، حل بذاته ، وكما ينظرون اليه هم (المسلمون) : أزمة مستمرة »[١٦] . وينطلق من ان « الشعب اللبناني ، في تكوينه الحاضر ،

LAU-Byblos Library

يعيش على مستويين متباينين في الدين والحضارة : المسيحية والاسلام »[١٧] . ويستنتج ان « لا بد من تسوية المستويين أو فصلهما لتصبح الحياة ممكنة »[١٨] .

٣ — الموقف من الوطن :

أ — الأب مونس :

يؤكد الأب الدكتور أن « الوطن ليس في تعريفه الأساسي حدوداً جغرافية فقط تعيش ضمنها مجموعة من الناس فسيفسائية التركيب ، بل مجموعة من البشر موحدة في اثنيتها ، أي هي واحدة في ماضيها وفي حاضرها وتطلعاتها المستقبلية . بتعبير آخر هي واحدة موحدة في حضارتها »[١٩] . ويضيف « اما أن يكون الوطن مؤلفاً من أثنية حضارية واحدة ليحيا واما لا يكون »[٢٠] . هذا على الصعيد النظري العام بالنسبة لمفهوم الوطن ، فهل ينطبق هذا المفهوم على لبنان ؟ « ان لبنان هو وطن مكون من مجموعات اثنية وديانات وحضارات مختلفة في أصلها وفي تاريخها » . ويعتبر الأب مونس « ان الوطن في الاسلام لا يرتبط بالأرض بل بالناس (جماعة المسلمين) ، لذلك لا يمكن أن يلتقي الأسلام بأناس لهم ولاء لأرض معينة »[٢٢] .

ويستشهد بكتاب الدكتور الشيخ صبحي الصالح ، النظم الاسلامية ، ص ٢٥٥ ، حيث ورد أن « ولاء المسلم لا يكون الا للأمة الاسلامية . فلا قيمة للوطن الا بارتباطه بالدين »[٢٣] .

إن الاستنتاج واضح من سياق هذه المقدمات : لا امكانية بناء وطن موحد بين المسلمين والمسيحيين.

ب — الدكتور البستاني :

يوضح الدكتور البستاني رأيه في الوطن الذي يسعى لإنشائه : « اما المسيحيون فقد قاتلوا مئات السنين ليكون لهم وطن ولا يكونون فيه أهل

ذمة »[٢٤]. انه «لبنان المتصرفية مضاف اليه : بيروت ، ورقعة أرض في البقاع تبدأ من أقدام جبال الأرز — صنين — الكنيسة — الباروك ، وتمتد عشرة كيلومترات في السهل باتجاه سلسلة جبال لبنان الشرقية . على أن تبحث بعمق مسألة القرى المسيحية في ما تبقى من البقاع ، وفي عكار ، وفي الجنوب »[٢٥].

ج — الأستاذ أمين ناجي :

لا يشير الأستاذ ناجي الى مفهومه للوطن لكنه يطرح «المناطقية كحل يجعل من «لبنان دولة تحافظ فيها كل جماعة من جماعاته على خصائصها في اطار حرية الضمير ، واحترام الغير ، والمواطنية الكاملة ، وتكافؤ الفرص »[٢٦] . وهذا الموقف يؤمّن «الوحدة في التنوع» .

٤ — الموقف من العروبة :

أ — الأب مونس :

يقع الأب مونس في بعض التناقض عند تصديه لمفهوم العروبة : فتارة يؤكد ، بشكل مطلق وشامل ، بأن «العروبة عصبية دينية» وانها «عنصرية جديدة»[٢٧] ، بينا يشير في مكان آخر الى أن العروبة تعني ، للمسيحي ، «تياراً حضارياً ، ثقافياً ، فكرياً ، لغوياً ، أدبياً ، سياسياً ، ثورياً ، يكون نقطة تحول في رسم وجه الانسان الشرقي الجديد» . وتعني العروبة للمسلم الاسلام وحسب : «العروبة هي الاسلام والاسلام هو العروبة»[٢٨] .

ويذهب الأب الدكتور الى التقرير بأن «العقل العربي يعاني من انحرافات لن يمكنه التخلص منها»[٢٩] .

ب — الدكتور البستاني :

يذهب كاتب «الروائع» وصاحب «دائرة المعارف» الى اطلاق الحكم العام

LAU-Byblos Library

الذي — في رأيه — لا يقبل المناقشة : «فما من أحد حتى اليوم حدد العروبة بغير ما يؤول الى قيام الدولة الاسلامية »[٣٠] .

ج — الاستاذ أمين ناجي :

يذهب الى التأكيد بأن علاقة الاسلام بالعروبة هي علاقة العلة بالمعلول ولا يمكنها أن تحيا لحظة واحدة اذا لم يكن الاسلام نسغها »[٣١] . «ولا عروبة لولا الاسلام . ولا استمرار للعروبة لولا الاسلام »[٣٢] . لكنه بعد هذه الأحكام القاطعة المانعة يعود فيستدرك بأن الذين لم يربطوا العروبة بالاسلام ثلاث فئات :

«أ — المسيحيون (ومن بينهم نجيب العازوري ، وقد كان في خدمة أهداف سياسية غربية معينة) الذين رأوا في ما بعد أنهم يسيرون في خط مخالف للحقيقة » .

«ب — الشيوعيون والماركسيون الذين يمتطون أي جواد يوصلهم الى هدفهم ، والعروبة بين أيديهم ستتحطم اشلاء » .

«ج — المسلمون الذين ليست لهم مسؤولية حزبية أو عقائدية أو رسمية ... وليس عند أكثرهم من الاسلام أكثر من الانتماء السوسيولوجي »[٣٣] .

٥ — الحل المقترح :

أ — الأب مونس :

يرى أن الحل يكون باحتذاء «الأمثال التقدمية لهذا النهج ، الثقافي والحضاري العلمي الصحيح ، كثيرة وأهمها سويسرا والاتحاد السوفياتي وبلجيكا وكندا »[٣٤] .

ب — الدكتور البستاني :

يمكن اعتبار الحل الذي يطرحه رئيس الجامعة اللبنانية الأسبق الأكثر تطرفاً ،

فهو يستنتج «ان الصيغة اللبنانية الحالية غير قابلة للعيش وان الجيل الذي حاول بناء دولة معاصرة منذ ١٩٤٣ حتى اليوم جيل عمل في الفراغ»[٣٥] . ومن جهة أخرى «لم يجن لبنان الصغير من تجربة لبنان الكبير سوى الخراب والافلاس»[٣٦] . ولذلك «كانت اعادة النظر في الصيغة اللبنانية الحالية أمراً ملحاً»[٣٧] . وقد رأينا أنه — مع جواد بولس وشارل مالك وادوار حنين — قد اقترح العودة الى لبنان المتصرفية مع بعض التعديلات .

ج — امين ناجي :

ينطلق الأستاذ أمين ناجي ، في تصوره للحل المقترح ، من «البديهيات» التالية :

١ — اللبنانيون شعب غير متجانس .

٢ — اسلام المسلم لا يكتمل الا بالنظام الاسلامي .

٣ — العروبة جسم روحه الاسلام .

واعتماد البديهيات أعلاه يوصل تلقائياً الى الاقرار :

١ — بحق المسلمين في أن يعيشوا وفاقاً لنظامهم الاسلامي .

٢ — بحقهم في الايمان بالعروبة وبكل مستلزماتها .

والاقرار بالتالي :

١ — بحق غير المسلمين في الحياة في نظام علماني تام شامل .

٢ — بحقهم في الحياة في مجتمع لا يخشون أن يكونوا فيه أهل ذمة أو مواطنين من درجة ثانية[٣٨] .

والهدف الذي تجد فيه «المسألة اللبنانية» حلها الدائم النهائي :

LAU-Byblos Library

«١ — اما أن يعيش غير المسلمين في دولة خاصة بهم ، مستقلة تماماً ، ويعيش المسلمون في دولة خاصة بهم أيضاً (أو يلتحقوا بدولة أخرى) . وهذا حل مثالي (بالمعنى الخلقي للفظة) .

«٢ — واما اذا ارتؤي الابقاء على الجمهورية اللبنانية القائمة بحدودها الحاضرة — أن يوضع ميثاق وطني جديد ينظم الدولة على أساس الكونفدرالية»[٣٩] .

ثانياً : تطبيق مقولة التعددية الحضارية في الموقف السياسي للجبهة اللبنانية :

لقد استعرضنا حتى الآن أهم الجوانب النظرية التي شكلت الأسس التي قامت عليها مقولة التعددية الحضارية في لبنان .

ولقد كانت هذه المقولة في أساس القرارات السياسية الخطيرة التي اتخذتها الجبهة اللبنانية في خلوات ثلاث عقدتها في سيدة البير وأهدن وزغرتا .

ففي النص الرسمي للبيان الذي أقرته خلوة الجبهة اللبنانية التي عقدت في ٢١ و٢٣ كانون الثاني ١٩٧٧ في دير سيدة البير ، جاء القرار التالي :

«اعتماد تعددية المجتمع اللبناني ، بتراثاته وحضاراته الأصيلة ، أساساً في البنيان السياسي الجديد للبنان الموحد ، تعزيزاً للولاء المطلق له ، ومنعاً للتصادم بين اللبنانيين ، بحيث ترعى كل مجموعة حضارية فيه جميع شؤونها ، وبخاصة ما تعلق منها بالحرية وبالشؤون الثقافية والتربوية والمالية والأمنية والعدالة الاجتماعية وعلاقاتها الثقافية والروحية مع الخارج وفقاً لخياراتها الخاصة»[٤٠] .

وفي النص الصادر عن خلوة زغرتا التي عقدت في ٢١ و٢٢ كانون الثاني ١٩٧٨ جاء في المادة ٧ من ميثاق الجبهة ونظامها الداخلي :

«ان يؤسس البنيان السياسي الجديد للبنان الموحد، على تعددية المجتمع اللبناني بتراثاته وحضاراته الأصيلة، بحيث ترعى كل مجموعة حضارية فيه جميع شؤونها، وبخاصة ما يتعلق منها بالحرية وبالشؤون الثقافية، والتربوية، والمالية، والأمنية، والعدالة المجتمعية، وما يتعلق بعلاقاتها الثقافية والروحية مع الخارج وفقاً لخياراتها الخاصة»(٤١).

مراجع القسم الأول

(١) لبنان المستقبل من الانصهار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي. سلسلة القضية اللبنانية رقم ١٢. منشورات الكسليك. كما نشر هذا البحث على حلقات في نشرة «اللبناني» بتوقيع الأب مونس.
(٢) المرجع نفسه. ص ٨.
(٣) المرجع نفسه. ص ١٤.
(٤) المرجع نفسه. ص ٢٣.
(٥) المرجع نفسه. ص ٢٥.
(٦) لبنان الكبير: مأساة نصف قرن. سلسلة القضية اللبنانية رقم ١. منشورات الكسليك.
(٧) المرجع نفسه. ص ٦.
(٨) الاسلام السياسي وهوية لبنان. سلسلة القضية اللبنانية رقم ١٤. منشورات الكسليك — ومقال في مجلة الصياد. العدد ١٦٧٦. تاريخ ٩/ ١٢/ ١٩٧٦.
(٩) الاسلام السياسي... المرجع السابق. ص ٣٠.
(١٠) مجلة الصياد. المرجع السابق. ص ٥٢.
(١١) الأب يوسف مونس. المرجع السابق. ص ٨.
(١٢) المرجع نفسه. ص ٦.
(١٣) مجلة الصياد. المرجع السابق. ص ٥٣.
(١٤) فؤاد افرام البستاني. المرجع السابق. ص ٤.
(١٥) قدم هذه الوثيقة مع فؤاد افرام البستاني كل من شارل مالك وجواد بولس وادوار حنين.
(١٦) راجع مجلة العمل الشهري. العدد الأول. ص ١١٠.
(١٧) المرجع نفسه. ص ١٠٧.
(١٨) المرجع نفسه. ص ١٠٧.

(١٩) الأب يوسف مونس. المرجع السابق. ص ٨.
(٢٠) المرجع نفسه. ص ٩.
(٢١) المرجع نفسه. ص ٩.
(٢٢) المرجع نفسه. ص ٢٤.
(٢٣) المرجع نفسه. ص ٢٨ — ٢٩.
(٢٤) فؤاد افرام البستاني. المرجع السابق. ص ١٥.
(٢٥) من وثيقة مقدمة الى خلوة الجبهة اللبنانية في دير سيدة البير. مجلة العمل الشهري. العدد الأول. ص ١١١.
(٢٦) مجلة الصياد. المرجع السابق. ص ٥٦.
(٢٧) الأب يوسف مونس. المرجع السابق. ص ٣٣.
(٢٨) المرجع نفسه. ص ٣٠.
(٢٩) المرجع نفسه. ص ٣١.
(٣٠) فؤاد البستاني. المرجع السابق. ص ١٢.
(٣١) الاسلام السياسي وهوية لبنان. المرجع السابق. ص ٣٠.
(٣٢) المرجع نفسه. ص ٤١.
(٣٣) المرجع نفسه. ص ٣٩.
(٣٤) الأب يوسف مونس. المرجع السابق. ص ١٨.
(٣٥) فؤاد البستاني. المرجع السابق. ص ٢٢.
(٣٦) المرجع نفسه. ص ٢٤.
(٣٧) المرجع نفسه. ص ٢٤.
(٣٨) المرجع نفسه. ص ٤٦.
(٣٩) المرجع نفسه. ص ٤٨.
(٤٠) مجلة العمل الشهري. العدد الأول. ص ١١٤.
(٤١) جريدة الأنوار. تاريخ ٢٣/ ١/ ١٩٧٨.

LAU-Byblos Library

القسم الثاني

نقد أهم المرتكزات النظرية لمقولة التعددية الحضارية

١ــ في الموقف من الاسلام :

يمكن اختصار موقف منظري التعددية الحضارية ، بالنسبة للاسلام ، بالنقاط التالية :

أ ــ لم يتمكن الاسلام والمسلمون من انشاء حضارة ، بل كانوا أهل غزو وتدمير .

ب ــ لا امكانية لتكيف المسلم مع وضع اجتماعي وسياسي حيث تسود المساواة والحرية الانسانية .

ج ــ حتمية عودة ابناء المسلمين ، في المستقبل ، الى النظام الاسلامي في حال تخلي ابنائهم ، مرحلياً ، عنه .

د ــ الاسلام دين ودولة .

هـ ــ الاسلام يفرض ، حتماً ، قيام نظام اسلامي حيث يجب أن يكون الحاكم مسلماً ، والفقه مصدر التشريع الخ ...

و ــ العقل الاسلامي مصاب بتخلف «لن» يستطيع التخلص منه .

LAU-Byblos Library

ما هو ردنا على هذه النقاط ؟

ــ بالنسبة للنقطة أ :

اذا كان صحيحاً أن المسلمين في أكثريتهم الساحقة يعانون ، في المرحلة التاريخية الراهنة ، من مظاهر التخلف ، واذا كان بعضهم في الماضي ــ وربما في الحاضر ــ قد عاش حياة بداوة ومارس الغزو والنهب ، فهذا أمر يعود الى أسباب تاريخية وجغرافية (اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية الخ ...) وليس الى كونهم يدينون بدين الاسلام .

وعلى صعيد الحضارة والعمران فنحن نترك الاجابة على دور الاسلام والمسلمين في هذا المجال الى ثلاثة من كبار مفكري ومؤرخي الغرب :

يقول كلود كاهن[1] : «لعلنا لا نشاهد مطلقاً في التاريخ مثل ذلك الحماس الفكري الذي نشاهده عند العرب ، ولم تتجمع قط المعلومات المتوفرة لأمة من الأمم بمثل ذلك الاتساع . فقد أضافوا الى العلم الاغريقي كل ما أسهمت فيه المدنيات الشرقية الأخرى» .

ويقول موريس لومبار[2] : «في الشرق الاسلامي قامت آنئذ المراكز المحركة للحياة الاقتصادية والثقافية ، ولم يكن الغرب سوى حيّز خاو ومنفعل ، حيث تراجع النشاط التجاري والثقافي منذ انحطاط روما والغزوات البربرية»[2] . ويضيف : «بفضل الفتح الاسلامي عاد اتصال الغرب مع الحضارات الشرقية ، ومن خلالها مع الحركات العالمية الكبيرة للتجارة والثقافة . وفي حين أن الاجتياحات البربرية الكبيرة في القرنين الرابع والخامس قد أدت الى التقهقر الاقتصادي للغرب الميروفنجي ثم الكارولنجي ، فإقامة الامبراطورية الجديدة الاسلامية قد أدت ، بالنسبة لهذا الغرب بالذات ، الى تطور مذهل . واذا كانت الاجتياحات الجرمانية قد عجلت انحطاط الغرب ، فإن الاجتياحات الاسلامية قد أعطت دفعاً لحضارته»[3] .

أما روجيه غارودي فيقول في كتابه الجديد «من أجل حوار بين الحضارات»[٤] : «الغرب مدين بنهضته للفتح العربي الذي عرف كيف يخلق الاجواء الفكرية الضرورية لتفتحه. في مطلع القرن التاسع عندما كانت أوروبا تجهل القراءة كان الخليفة المأمون يفتتح في بغداد بمساعدة الكتبة والمترجمين مكتبة ضخمة : هي بيت الحكمة. حيث كانت تخزن أعمال الحضارات القديمة. وفي قرطبة كان أحد الخلفاء الأمويين يتصرف بمكتبة فيها أكثر من مئة ألف كتاب، بينما بعده بأربعة قرون لم يكن الملك شارل الخامس — الملقب بالحكيم (أي العالم) — يملك سوى ألف كتاب»[٥]. وبعد أن يشير الى دور العرب في مختلف العلوم يقول : «اننا ندين كذلك بأهم كليات الطب عندنا لعلم الطب العربي. مونبليه كانت الأولى. وحتى القرن ١٦ في فرنسا، وحتى منتصف القرن ١٩ في انكلترا، كانت تنشر وتدرّس نظريات الطب العربية وخاصة نظريات الرازي»[٦].

وهل يمكن بعد شهادات هؤلاء المفكرين الكبار — وهناك مئات الشهادات من غيرهم — أن تتهم الاسلام والمسلمين، بشكل مطلق، انهم لم يساهموا في تقدم الحضارة؟

— **بالنسبة للنقاط (ب وج ود وهـ)** :

اننا نبادر بالتسليم لمنظري التعددية الحضارية بعدة حقائق :

١ — ان هناك قصوراً في الفكر الديني الاسلامي. فلم تحدث، حتى الآن، الثورة المطلوبة في هذا الفكر بحيث يعاد النظر، مثلاً، في تفسير آيات القرآن الكريم على ضوء الانجازات المتقدمة والمتخلفة التي أصابها الانسان المعاصر.

٢ — ان هناك تيارات شعبية اسلامية واسعة ترفض الفصل بين شؤون الدين وشؤون الدولة وتشدد على ضرورة العودة الى النظام الاسلامي.

٣ — ان في لبنان بالذات، وكذلك في العالم العربي، قوى اجتماعية

LAU-Byblos Library

وسياسية اسلامية تطالب بالحكم الاسلامي، وهناك مفكرون مسلمون يعارضون قيام النظام والمجتمع العلمانيين في لبنان، وهم يطالبون بإلغاء نظامه الطائفي.

لكن يتجاهل منظرو التعددية الحضارية جملة حقائق تجعل ركائز أساسية من أسانيدهم متداعية. ومن هذه الحقائق :

١ — هناك مفكرون مسلمون كبار طرحوا فكرة فصل الدين عن الدولة في الاسلام، بل تعدوا ذلك الى طرح العلمانية الشاملة، وحاولوا تطويع الفكر الديني لتقبل مثل هذا التوجه. ومن هؤلاء المفكرين، على سبيل المثال لا الحصر :

— الشيخ علي عبد الرازق، صاحب كتاب «الاسلام وأصول الحكم». وكذلك اخوه مصطفى عبد الرازق.

— الشيخ خالد محمد خالد في كتابه : «من هنا نبدأ».

— الأستاذ محمود العنابي التونسي في العديد من محاضراته واجتهاداته.

— الدكتور حسن صعب في العديد من كتبه ومحاضراته[٧].

— الدكتور بشير بيلاني في العديد من أبحاثه ومحاضراته.

— الدكتور هشام جعيط صاحب كتاب :

"La personnalité et le devenir Arabo-Musulman

— الدكتور سيد حسين نصر[٨].

— الدكتور ابراهيم مدكور[٩].

— الدكتور محمد أركون في مختلف محاضراته وأبحاثه ومؤلفاته، وخاصة في كتابه :

La pensée arabe (que sais-je?) Essai sur la pensée islamique

— الأستاذ باسم الجسر في مقالاته وخطبه ومحاضراته.

— الدكاترة اللبنانيين: محمد زهدي يكن[١٠]، زكريا النصولي[١١] بهيج طباره[١٢] غالب محمصاني[١٣]، محمد زكي النقاش[١٤]، محمد المغربي[١٥]، المحامي عبد العزيز قباني والدكتور اسامة فاخوري في العشرات من تصاريحهم.

وعلى كل حال يمكننا ايراد أسماء العديد من المسلمين (لبنانيين وغير لبنانيين) الذين استوعبوا مشكلات العصر وطرحوا، بنسب متفاوتة، تيارات اصلاحية علمانية في الفكر السياسي الاسلامي اللبناني خاصة والعربي عامة.

٢ — لئن كانت النظم السياسية والدستورية والقوانين تعكس واقعاً اجتماعياً وحضارياً معيناً، فما هي حقيقة كون النظم والقوانين السائدة في البلاد العربية المجاورة هي نظم اسلامية كما يذهب منظروا التعددية الحضارية؟

ان القانون العام والقانون الخاص في لبنان ومصر وسوريا وتونس والمغرب والجزائر هما من أصول فرنسية خاصة، ولاتينية بشكل عام.

والقانون العام والقانون الخاص في السودان والعراق والأردن وبعض دويلات الخليج هما من أصول انجلو — سكسونية.

أما في البلدان العربية الاخرى، وبخاصة في السعودية، فلا تزال الهيمنة للشرع الاسلامي[١٦].

إن أحكام الشرع الاسلامي لم يبق لها وجود الا في مجال الأحوال الشخصية[١٧] في الأكثرية الساحقة من البلاد العربية. وحتى في هذا المجال فهناك اجراءات تحديثية في اتجاه العلمنة (تونس والصومال واليمن الجنوبية)[١٨].

٣ — من الصحيح، كما سبق وأشرنا، أن هناك العديد من المسلمين اللبنانيين الذين يعارضون علمنة الدولة والمجتمع، لكن الصحيح أيضاً أن هناك مسلمين لبنانيين كثيرين، وهم على تزايد مستمر، يطمحون ويناضلون لقيام المجتمع والنظام العلمانيين، ليس فقط في لبنان وانما أيضاً على امتداد المنطقة العربية.

LAU-Byblos Library

٤ — ان منظري التعددية الحضارية يقررون أن مسلمي لبنان اليوم، وحتى مسلمي لبنان الغد، سيرفضون كل حكم غير الحكم الاسلامي.

الا يمكننا التساؤل: هل نسي هؤلاء أن الانسان كائن تاريخي، وأن كل ما هو تاريخي قابل للتغير والصيرورة؟

ثم ألا يلاحظ هؤلاء المنظرون كيف أنه، على أرض الواقع الاجتماعي، يحدث صراع — باطني ومعلن — بين مسلمين سلفيين ومسلمين محدثين (وهذا الصراع أيضاً يحدث بين مسيحيين سلفيين ومسيحيين محدثين) على الرغم من أن الصراع الطائفي يسعى لتحويل تلك الصراعات الى تناقضات ثانوية؟

ثم أليس من حقنا أخيراً أن نرتجي، عبر الصراع ضد الفكر الطائفي والنظام الطائفي والمجتمع الطائفي، قيام تجربة علمانية رائدة في لبنان تنطلق في اتجاه الداخل العربي لتنقل منطقتنا الى طريق العقلانية والحداثة؟

— **بالنسبة لقضية الاسلام والتخلف (النقطة و):**

إن العمود الفقري لمقولة التعددية الحضارية يكمن في القول بأن الاسلام، كدين، هو عامل تخلف، والمسيحية، كدين، هي عامل تقدم، فلا مجال لربط «المستويين المتباينين في الحضارة» بكيان سياسي موحد.

إن هذه المقولة تستمد جذورها من ماض سحيق، وربما من لاهوتيي المسيحية في القرون الوسطى الذين تكلموا عن الجبرية الاسلامية، ومن كبار المنظرين لها في العصر الحديث «رينان» الذي ألقى في السوربون بتاريخ ٢٩ آذار ١٨٨٣ محاضرة بعنوان «الاسلام والعلم»، ذهب فيها الى ان انحطاط الدول التي حكمها الاسلام يعود الى هذا الدين المنغلق تماماً عن العلم. وهناك العديد من المستشرقين الذين استمروا في اعتناق مثل هذا الرأي. وليس بمستبعد ان يكون منظرو التعددية الحضارية قد راجعوا آراء هؤلاء المستشرقين ليعززوا قناعاتهم الايديولوجية.

ان مناقشة هذه المسألة تتطلب، وحدها، بحثاً مطولاً على حدة. ولكننا نكتفي الآن بالنقاط الأساسية التالية:

١— لو كان الاسلام عامل تخلف، ومناقضاً للعلم، لكان كذلك في كل العصور. والحال أن الاسلام لم يحل دون، ان لم نقل شجع، تقدم العلوم والفنون والآداب والفلسفة في العصر الكلاسيكي العربي، وخاصة في القرن الرابع الهجري.

٢— اذا كان صحيحاً ان التيارات العقلانية في الاسلام، وخاصة المعتزلة، قد حوربت وتم القضاء عليها، وسادت التيارات الشرعانية المتزمتة، فهل هذا يعود الى الدين الاسلامي كدين، أم الى واقع القوى الاجتماعية التي فرضت سيطرة مثل هذا التيار؟

٣— أليس ان أسباب التخلف هي أسباب تاريخية، منها ما يعود الى البنية الداخلية للمجتمع (بكل جوانبها السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية)، ومنها ما يعود الى العوامل الخارجة عن ارادة المجتمع (كالسيطرة والاستعمار من الخارج)، تتفاعل فيما بينها لتفرض السبات والانحطاط على شعب من الشعوب[١٩]؟

٥— ألا يمكننا القول، مع مكسيم رودنسون، بأن الاسلام «لم يكن سبباً للجمود، أو القسوة، أو العصبية، أو انقطاع التقدم الاجتماعي، ولا لسجن الفكر الحر، وفي كل حال ليس أكثر من أي ايديولوجية أخرى. ان الشعوب الاسلامية، مع الاسلام أو بدونه، يمكن أن تتقدم أو تتقهقر، ويمكن لحكوماتها أن تكون شمولية، ليبرالية، ولجماهيرها أن تنفتح على تيارات فكرية متعددة، أو تتعلق بعصبية بالامتثالية ازاء العقائد القديمة، أو الجديدة. فهذا يتعلق بعوامل عديدة، ليس الارث الثقافي الاسلامي المتنوع، أكثر بكثير مما يقال، الا واحداً من جملة عوامل، وليس هو الأقوى بينها على كل حال»[٢٠].

٦— ان العقل الاسلامي— في لبنان— يعاني من أزمة هي بوادر صحة وعافية. اليس من الأجدى التفتيش معه عن مكامن التخلف في الداخل وقوى السيطرة والخطر في الخارج لمجابهتها والانتصار عليها، بدلاً من اتهامه بأنه «لن» يتخلص من تخلفه— وهذا الموقف مناقض لأبسط بديهيات العلوم الانسانية.

٢— في الموقف من المسيحية والمسيحيين:

يمكن اختصار موقف منظري التعددية الحضارية، في هذا المجال، بالنقاط التالية:

أ— المسيحيون أهل حضارة وعمران.

ب— المسيحية هي حافز للتقدم والرقي.

ج— المسيحية تنطلق من قبول تمايز الآخرين

د— المسيحيون علمانيون في أساس عقيدتهم يعطون «ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

أ— بالنسبة للنقطتين (أ و ب):

اذا كان صحيحاً ان أكثر البلدان المتقدمة، في وقتنا الحاضر، هي بلدان تدين أكثرية شعوبها بالمسيحية، فمن الجدير بنا أن نتوقف عند الحقائق التالية:

١— ان تيار التقدم والحداثة في الغرب كان، على امتداد التاريخ المعاصر، تياراً مصارعاً للقوى المحافظة وبخاصة الكنيسة المسيحية[٢١].

٢— ان تقدم الكنيسة، كمؤسسة، كان لاحقاً لتقدم المجتمع.

٣— اذا كانت المسيحية هي وحدها عامل تقدم، فلماذا أمرت الكنيسة باعدام غاليله لمجرد أنه اعتقد بأن الأرض هي التي تدور حول الشمس؟

LAU-Byblos Library

٤ — إن بلداً كاليابان لا يدين بالمسيحية ، ولكنه بين البلدان الأكثر تقدماً في عصرنا الحاضر.

٥ — ان بلداناً كثيرة تدين بالمسيحية ، كأميركا اللاتينية ، وأوروبا الجنوبية (البرتغال واسبانيا ...) ، والحبشة وغيرها ، وهي بالرغم من ذلك ما تزال بلداناً متخلفة.

٦ — من الواضح أن المسيحية المعاشة في أوروبا أو في الولايات المتحدة تختلف عن مسيحية اميركا الجنوبية . وحتى ضمن هذه الأخيرة يجب أن تميز بين عدة نماذج :

في دراسة سريعة للأب اليسوعي جان أيف كالفيز يؤكد[٢٢] : «لا مجال للشك ، لأول نظرة ، ان الكاثوليكية التقليدية في اميركا اللاتينية تبدو قليلة التشجيع للتطور الاقتصادي ، **وتبدو قديرة بالعكس على تركيز الركود والتخلف**» . وتميز بين موقفين أساسيين للكاثوليكية التقليدية في اميركا اللاتينية : الانسان يتوجه الى الله لكي يحصل على مساعدته ودعمه في صعوبات الحياة المادية الزمنية . والطبقات العليا في المجتمع ، الحساسة تجاه دافع يمكن تسميته الخلاص الأبدي الذي لا يمنعها أن توظف رساميلها في الخارج ، وأن تعيش في بطالة كاملة ، وأن تعامل الفلاحين كأقنان ، هذه الطبقات العليا لها تصور مزدوج للمسيحية ، من ضمنه أن الأشياء الأرضية ليس لها أية علاقة مع الأشياء السماوية .

أما هنري دوروش[٢٣] فيميز بين أربعة أنواع من الكثلكة في اميركا اللاتينية :

١ — كاثوليكية مركزة (Etabli) ذات ملكية كبرى (Latifondiaire) ملتزمة وأريستقراطية .

٢ — كاثوليكية أسكاتولوجية[٢٤] (eschatologique) منبثة في الطبقات

الشعبية الفلاحية الأمية ، تسير نحو احتلال الاراضي من قبل الذين لا يملكون أرضاً .

٣ — الكثلكة الاجتماعية المنطلقة من تراثية كنسية متنورة ، حذرة ، تتدخل بتؤدة في حقول الاصلاح الاجتماعي الاقتصادي أو الثقافي ، وهي مراقبة من مراجع اجتماعية مسيحية .

٤ — الكثلكة المتباعدة (distancié) المعترضة التي تصبو في نفس الوقت إلى إصلاح الكنيسة واصلاح المجتمع بعمل متضامن بين المسيحيين وغير المسيحيين .

وربما ينطلق منظرو التعددية الحضارية من واقع الثقافة والتعليم في لبنان ، حيث أن نسبة المتعلمين بين المسيحيين هي أعلى منها ، نسبياً ، بين المسلمين . ولكن هذا الأمر يعود الى عوامل تاريخية (علاقاتهم مع الغرب ، ومجمع اللويزة ١٧٣٦ ، والارساليات التبشيرية ، ودور الاتراك وفرنسا في هذا المجال الخ ..) . وقد فصلنا هذه العوامل في محاضرتنا «حول مقولة الطائفة — الطبقة» .

ب — بالنسبة للنقطتين (ج ود) :

ان هذا التأكيد يتجاهل عدة حقائق :

١ — ان العلمانية ليست فقط مجموعة من النظم تتحقق على صعيد البنية الفوقية من المجتمع ، بل انها أكثر من ذلك حالة من الصراع الشامل على صعيد المجتمع نفسه ، في عقله وسلوكه وبنى مؤسساته التحتية بأكملها .

٢ — ان العلمانية ، على صعيد المجتمع وعلى صعيد النظم ، جاءت نتيجة لصراع مرير بدأ داخل الكنيسة نفسها بين الكهنة العلمانيين (Séculiers) والرهبان المنضوين في جمعيات[٢٥] (Réguliers) ، ثم تعدى ذلك الى مختلف المؤسسات الاجتماعية الثقافية[٢٦] والسياسية . هذا الصراع كان طرفاه : كنيسة قوية تجمع بين السلطتين الروحية والزمنية ، وقوى سياسية بدأت ضعيفة في بادئ الأمر

LAU-Byblos Library

ويكنها أخذت تقوى مع صعود الطبقات الاجتماعية الجديدة التي ارتبطت بقيام الثورة الصناعية (٢٧) .

٣ — اذا تفحصنا الحياة السياسية في ألمانيا وأيطاليا ، نرى بسهولة أن السلطة فيهما هي في يد أحزاب ، ان لم تكن طائفية مسيحية ، فهي انما تخضع بالتأكيد لتوجيه من قيادات كاثوليكية . والأمر أكثر وضوحاً في أسبانيا والبرتغال .

وفي بريطانيا يجب أن تكون الملكة (أو الملك) ، حكماً ، من الطائفة الانجليكانية .

وفي الولايات المتحدة ، بالرغم من أن الدستور لا ينص على دين رئيس الدولة ، فإن ثمة عرفاً متبعاً بأن يكون رئيسها من الطائفة البروتستانتية .

والأكثرية الساحقة من بلدان اميركا اللاتينية تعتبر الكاثوليكية ديناً رسمياً للدولة ، بل ان كولومبيا ، مثلاً ، تعتبر ان الكاثوليكية هي في أساس الحياة القومية لها (٢٨) .

٤ — انطلاقاً من ذلك ، لا يمكن الزعم بأن العلمانية هي أمر محسوم تماماً في البلدان المسيحية ، وانها ، فقط ، هي مشكلة البلدان الاسلامية .

٥ — واستطراداً فلا يمكن القول بأن معركة العلمانية في لبنان هي ، فقط ، معركة يجب أن تخاض في الأوساط الاسلامية . اذ أن من يطرح حل « الكانتونات » في لبنان لا يمكن أن يكون علمانياً .

٣ — في الموقف من العروبة :

يمكن اختصار موقف منظري التعددية الحضارية من العروبة بالنقاط التالية :

أ — انها عصبية دينية اسلامية .

ب — ما من أحد حتى اليوم حدد العروبة بغير ما يؤول الى قيام الدولة الاسلامية .

LAU-Byblos Library

ج — المسيحيون الذين آمنوا بهذا الشعار تراجعوا عن خطأهم .

د — المسلمون الذين آمنوا بهذا الشعار ليسوا مسلمين ، الا من الوجهة السوسيولوجية .

قبل ان نبادر بالرد على هذه النقاط نود أن نطرح بعض المسلمات التي تحدد منطلقنا .

١ — نحن نوافق ان تيارات سياسية واجتماعية فهمت العروبة ، ولا تزال ، بمضمون طائفي اسلامي .

٢ — اننا ننطلق من موقع الادانة لممارسات كثيرة وأعمال مشينة ارتكبت باسم العروبة من قبل فلسطينيين ولبنانيين في الحرب اللبنانية الأخيرة .

٣ — اننا نعتبر أن قوى متنوعة رفعت شعارات تقدمية ، وبالرغم من ممارستها للسلطة ، حافظت على البنى والأيديولوجيات التقليدية .

٤ — اننا ننطلق من موقف مغاير لموقف العروبيين المتجاهلين ، أو الرافضين ، حسم عدة أمور نعتبرها جوهرية : العلمانية الشاملة ، حل قضية المرأة ، اللغة والدين وحتمية تحديثهما ، الأقليات وحتمية حل مشكلاتها ديمقراطياً .

٥ — اننا نقف من التراث موقف الاستيعاب والنقد والتخطي لا موقف التقديس والصنمية . ونتبنى مفهوم الحداثة ولا نرفضها لأنها « مستوردة » .

٦ — نحن مع اعتماد التحليل العلمي لفهم بنيات مجتمعاتنا العربية ، وفهم مكامن تخلفها على صعيد واقعها المادي وعلى الصعيد الأيديولوجي ، وفهم عملية التغيير على أنها ليست فقط عملاً فوقياً سياسياً بقدر ما هي عملية تغيير شامل وجذري للمجتمع بكافة بناه التحتية والفوقية (٢٩) .

٧ — اننا في موقفنا المدافع عن العروبة لا ننطلق من غير مصلحة الوطن اللبناني ، فالتناقض الحاصل بين اللبنانية والعروبة هو نتاج خطأين :

— خطأ المتجاهلين مصلحة لبنان أولاً ، السائرة قياداتهم في ركاب انظمة ليست تجاربها بالضرورة هي الأكثر قرباً من العروبة التقدمية الحقيقية .

— خطأ المنطلقين من ردة الفعل ضد كل ما هو عربي ، المرتبطة قياداتهم غالباً بقوى اجنبية تريد فرض سيطرتها على المنطقة ، متجاهلين ان مصلحة لبنان الوطن تكمن في انجاح تجربة العروبة العلمانية على أرض لبنان ، فيكون هذا الوطن ، بالتالي ، نموذجاً مستقبلياً لما يجب أن تتجه نحوه هذه العروبة .

على ضوء هذه المنطلقات نناقش منظري التعددية الحضارية :

١ — بالنسبة للنقاط أ وب ود :

ان المؤكدين بأن العروبة ، اطلاقاً ، هي الاسلام ، وهي تسعى لقيام الدولة الاسلامية ، يتجاهلون الوقائع العلمية التاريخية التي تثبت بأن العروبة كانت دعوة شارك فيها مفكرون مسيحيون ومسلمون ، ولقد طرحوها من منظار أقرب الى التوجه العلماني . ومنهم الدكتور قسطنطين زريق [٣٠] في أغلب مؤلفاته ومحاضراته ، وزكي الأرسوزي[٣١] في بعض آرائه ، وساطع الحصري في الكثير من أبحاثه وكتاباته . فقد قال في احدى مقالاته[٣٢] : «... فأرى من واجبي أن أصرح لكم في هذا المقال بأني ، مع عدد كبير من المفكرين القوميين الذين أعرفهم وأتصل بهم ، أنظر الى قضية «الوحدة العربية» كقضية مستقلة عن قضايا «الوحدة الاسلامية» ، وأؤكد لكم أنني ، بقدر ما أؤمن بالعروبة وبامكان الوحدة العربية ، أعتقد باستحالة «الوحدة الاسلامية» ، وأقول ان اثارة «فكرة الخلافة» مضرة بـ «قضية الوحدة العربية» .

ويؤكد في مقال آخر : «... ولكن ذلك لا يعني أن القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية ، لأنه قد تكونت أمم اسلامية غير عربية من ناحية ، وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى»[٣٣] .

LAU-Byblos Library

ويشدد الأستاذ الحصري على فصل الدين عن السياسة : «وقد أصبح من الأمور المسلمة لدى جميع الدول ، ان السياسة شيء والديانة شيء آخر ، فلا يمكن والحالة هذه اقامة السياسة على الديانة بصورة من الصور»[٣٤] .

وأخيراً ، رداً على النقطة الرابعة ، من حقنا التساؤل : أليس ان المسلم اللبناني والعربي الذي يفصل بين العروبة والدين هو المسلم العقلاني المستوعب تطورات العصر والساعي الى المشاركة في مجابهة التحديات المختلفة؟ فلماذا يريد منظرو التعددية الحضارية أن ينتزعوا من مثل هذا المسلم انتماءه الديني؟

٢ — بالنسبة للنقطة ج :

إن الواقع التاريخي يبيّن أن المفكرين المسيحيين — وبخاصة اللبنانيين — هم أول المنادين بالعروبة ذات الأفق العلماني ، وهم ، في توجههم هذا ، يبرزون ارادة غير واعية لاحداث تحول سياسي في وضع المسيحيين العرب في المجتمع الاسلامي — العثماني ، ويطمحون للقيام بدور فعال في الامبراطورية العربية اذا ما قدر لها الانبعاث . انهم يهاجمون ، في شكل غير مباشر ، المصادر التي استمدت منها السلطة السياسية والاجتماعية شرعيتها . وكذلك ، على مستوى النظرية الاجتماعية ، يبرزون تصدياً لأسس النظام السياسي القائم بطرحهم للفكرة القومية المرتبطة بسيادة الارادة الشعبية في الدولة[٣٥] .

وحسبنا التوقف عند بعض المسيحيين الرواد في طرح قضية العروبة العلمانية لنبين أن طرحهم هذا كان عن إيمان راسخ ، وأنهم — بعكس ما يذهب منظرو التعددية الحضارية — استمروا في إيمانهم بالقضية لا يلويهم تشرد أو اضطهاد ، مقدمين المثال الحقيقي لكل من يناضل من أجل المصلحة اللبنانية الصحيحة .

أ — المعلم بطرس البستاني :

يهمنا ، من غزير انتاجه ، تشديده على فكرة الوطنية ، وعلى ضرورة فصل الدين عن الدولة «ما دام قومنا لا يميزون بي الاديان ، التي يجب أن تكون بين

العبد وخالقه ، والمدنيات ، التي هي بين الانسان وابن وطنه أو بينه وبين حكومته ، والتي عليها تبنى حالات الهيئة الاجتماعية والنسبة السياسية ، ولا يضعون حداً فاصلاً بين هذين المبدأين الممتازين طبعاً وديانة ، ولا يؤمل نجاحهم في احدهما ولا فيهما جميعاً »[٣٦] .

من جهة أخرى ، فقد تكلم المعلم بطرس بحرارة وصدق عن اللغة العربية وعن دورها في احياء التراث العربي وانماء الوعي القومي . كما أنه تكلم باعتزاز عن الدم العربي ، اذ جاء على لسانه في احدى وطنياته عندما طعنوا بالجنس العربي أمامه : « هاج بي الدم العربي » . وقد ذهب بعض المفكرين الى تفسير ذلك بأنه كان تمهيداً لوعي القومية العربية وإيقاظ الشعور الذي أدى فيما بعد الى التيار القومي العربي[٣٧] .

ب — ابراهيم اليازجي :

وهو صاحب قصيدة « ألا هبوا استفيقوا أيها العرب » التي شكلت ، في جوهرها ، تحريضاً للعرب على الثورة . وقد تغنت بأمجاد العرب وبمفاخر أدبهم ، وبالمستقبل الذي يستطيعون أن يصنعوه لأنفسهم باستلهام ماضيهم ، ونددت بشرور التفرقة الطائفية وفساد الحكم ، وأهابت بالعرب ان يلقوا عن اعناقهم نير الاتراك[٣٨] .

ج — شبلي شميل وفرح انطون وجرجي زيدان وجماعة المقتطف :

وقد تزعموا الحركة الثقافية والعلمية العربية ، وطرحوا أهمية فصل الدين عن الدولة ، وركزوا على أهمية العلم والحضارة الحديثة كسبيل لنهضة العرب[٣٩] .

د — نجيب عازوري :

وهو المفكر العربي الذي كان له سبق اعطاء العروبة اطاراً نظرياً متقدماً في كتاباته المتعددة . فقد تفهم منذ عام ١٩٠٥ خطورة الحركة الصهيونية على

LAU-Byblos Library

مستقبل المنطقة ، فحذر منها ، وقدم الحجج والأسانيد المختلفة التي تنقض مخططاتها[٤٠] .

كما طرح تصوراً قريباً من العلمانية لطبيعة الدولة العربية التي يجب أن تستقل عن تسلط عبد الحميد[٤١] . ولئن كان المأخذ الأساسي على مؤلفاته أنها كانت باللغة الفرنسية فلم تشكل تياراً شعبياً في الأوساط العربية ، لكن يجب علينا الاقرار ان هذه المؤلفات تتصف بمنهجية أكاديمية عالية ، وبموضوعية بارزة ، تكتنفها جميعاً روح وطنية تطمح الى التحرر والاستقلال[٤٢] .

هـ — أمين الريحاني :

لقد اعتبر هذا المفكر اللبناني من أكبر دعاة العروبة ، ولقد مارس نشاطه في خدمتها منذ مطلع القرن . وكانت مؤلفاته تهدف الى الدفاع عن القضية العربية في مواجهة القوى الخارجية التي كانت تريد فرض سيطرتها على المنطقة ، وبخاصة الصهيونية والاستعمار الغربي . وقد كان لابن الفريكة مواقف جريئة ضد الطائفية والطائفيين ، وفهم العروبة من منظار علماني متقدم .

لقد ندد الريحاني بالطائفية في أغلب كتاباته وخطبه ، ووصفها بأبشع النعوت . فهي داء البلاد العربية اليوم لأنها في كل جزء منها ، فالسنّة والشيعة في العراق ، والمارونية وأخواتها في لبنان ، والوهابية في نجد ، والزيدية في اليمن[٤٣] . والطائفية تعبير عن عقلية دينية أساسها التعصب والأثرة وسوء الظن والضغينة[٤٤] . انها للوطن العدو الأكبر ، وانها للقومية العقبة الكؤود[٤٥] . والطائفية تنفي الوطنية وتتعاكس معها ، في ضعف الطوائف قوة الوطن ، وفي التفكك الطائفي تحقيق الآمال القومية[٤٦] . ذلك لأن كل طائفة منغلقة على ذاتها وطن قائم بنفسه[٤٧] ، ومهتمة بمصالحها التي لا تلتئم والمصلحة الوطنية العامة[٤٨] . انها نوع من الخيانة الوطنية لأنها تكرس الانقسامات السياسية في نطاق الوطن ، والاقليمية في نطاق الوطن الأكبر ، وبالتالي تحول دون الرقي الحقيقي في الامة المقسمة[٤٩] .

في مواجهة هذه الآفة الاجتماعية يعتبر أمين الريحاني ان الروح القومية هي اشرف الفضائل التي تشرف الانسان ، وهي أوطد الدعائم الاجتماعية[٥٠] . وان الفكرة الوطنية العالية هي التي تجمعه مع اخوانه العرب في مضمار واحد هو مضمار الجهاد القومي أينما كان الجهاد الزم . ثم يؤكد في مجال آخر : «اني وان كنت لبنانياً لمن العرب . اني لعربي الدم والقومية ، عربي الحس والنزعة ، عربي القلب والروح . كما أني عربي اللسان»[٥١] . والعروبة ، في رأيه «ليست فكرة ثقافية أو عقيدة سياسية ، ولا هي من المبادئ والنزعات التي تتعدد في السياسة وتتنوع في الأمة . العروبة روح قومية عالية شاملة تحمل صاحبها على التعاون والتضامن مع اخوانه ليكون لهم جميعاً وطن قومي عزيز مستقل ، يضمن لهم السلامة والخير والهناء ، ويدفع عنهم تعدي الاجانب . هذي هي العروبة في أسمى معانيها وفي اقصى اهدافها . أنها احلال القومية الواحدة الكبرى محل القوميات الصغيرة الضائعة»[٥٢] .

وبالرغم من عدم كمال وضوح المضمون السياسي والاجتماعية والاقتصادي لهذه القومية التي قال بها فيلسوف الفريكة ، بيد أنه حسم قضية المضمون العلماني لها ، مؤكداً فصل الدين عن السياسة ، لأنه أدرك أن حجر العثرة في سبيل الوحدة القومية انما هو التحزب الديني[٥٣] .

و — أسعد داغر :

لقد شارك هذا المفكر اللبناني بمختلف النضالات العربية منذ مطلع هذا القرن ، ونافح بقلمه وجهده عن حقوق العرب ، وحذّر من مطامع اعدائهم ، ودعاهم الى اليقظة وتخطي التعصب الديني والطائفي . فهو يقول عن قيام الثورة العربية انها حادث لم يكن «ابن يومه بل هو نتيجة انقلابات طرأت على الأفكار في السنوات الأخيرة ، فحررتها من قيود التعصب الديني ، وجعلتها تنضم جملة تحت لواء الجامعة القومية والغيرة الوطنية ، فغيرت بذلك كل اعتقاد سياسي

واجتماعي ، وأظهرت للعرب كافة أن اتفاقهم مع الترك كان شراً عليهم لأنه لم يكن قائماً على أساس القومية»[٥٤] .

ثم يؤكد ، من ناحية أخرى ، ان الوحدة بين العرب ، كما يفهمها ، هي ذلك الاتحاد السليم الصحيح الذي يرمي الى توحيد الشعوب لا الى خدمة التيجان ، والى تعزيز الاستقلال لا الى الانتقاص منه ، وإلى توطيد السيادة القومية لا الى جعل البلاد العوبة في أيدي الطامعين[٥٥] . والوحدة لا تعني امبراطورية عربية تجعل الاقطار العربية المختلفة خاضعة لارادة فرد ، بل هي نظام حر ديمقراطي ، ناشئ عن رضى جميع الشعوب العربية ، ويسعى الى التحرر مع جميع الاقطاعات الاقتصادية والاجتماعية في الداخل والخارج ، والى النهضة على أساس المساواة بين الأفراد ، وازالة الفروق بين الطبقات ، ومكافحة الفقر والمرض والجهل ، وتأمين العمل والعلاج والمسكن والغذاء لجميع المواطنين[٥٦] .

من الواضح ، اذن ، ان ابن تنورين يفهم الوحدة العربية على أساس من القومية والعلمانية وليس على أساس الدين والتعصب الطائفي ، على أساس اصلاح البيت والمدرسة وتحسين أنظمة الحياة وتثقيف المرأة . وهو يؤكد في أكثر من مناسبة «ان روح الوطنية لم تنضج فينا الى هذا الحد حتى الآن . وهذا هو سبب جميع مصائبنا وليس لها سبب آخر سواه»[٥٧] .

ز — خير الله خير الله :

لعل هذا المفكر هو الأبرز بين سائر المفكرين اللبنانيين الذين طرحوا قضايا العروبة والاستقلال والثقافة الوطنية في الربع الأول من هذا القرن . واذا كان ليس من شأننا ، في هذه العجالة ، ان نعرض كل جوانب انتاجه الفكري —بالرغم من التحامل الذي يتعرض له هذا المفكر[٥٨] — فحسبنا أن نعرض بعض ما يتعلق بموضوعنا .

فخير الله يدعو الى يقظة عربية تواجه مظاهر الانحطاط والتخلف ، ويؤمن

LAU-Byblos Library

بوحدة عربية ديناميكية تنطلق من وحدة اللغة والارادة والروح ، ومن الوحدة الاستراتيجية والاقتصادية والتاريخ ومن التشريع الموحد [٥٩] . ولا يرى خير الله تناقضاً بين مصلحة لبنان واستقلاله ومصلحة العرب واستقلالهم . فهو يرى « بأن السوريين والعرب يتهمون اللبنانيين بالشعور الانفعالي لأنهم يجهلون تاريخ نضال وتفاني هذا الشعب» . ولبنان ، في رأيه خدم القضية العربية عبر تاريخه وهو مدعو باستقلاله الى المزيد من خدمتها والعمل في سبيلها .

ويشدد خير الله على أهمية التربية في احداث التغيير الاجتماعي وتأمين الكوادر للحاجات الاقتصادية والصناعية والفكرية [٦٠] .

كما يهيب بالشباب « أن يتكاتف ويحقق التفاهم على قواعد جديدة وأسس متينة في اطار العلمنة » [٦١] . هذا التوجه العلماني يقضي بتحرير الافكار الشعبية والقوانين الاشتراعية من سيطرة المعتقد الديني الذي كان مبعث التفرقة والتمزق الداخلي . وقد اقترن هذا التوجه بمفهوم ديمقراطية السلطة عند خير الله ، فأظهر تمسكه بالديمقراطية ، وفرّق بين كلمتي حاكم وسيّد . فعلاقة السيد بالرعية هي علاقة فوقية ، علاقة سيطرة وتبعية ، اما للحاكم فهو الذي يمثل الارادة الشعبية ، لأن الحكم برأيه « هو سلطة يعترف بها الشعب وتعمل هي لمصلحته » [٦٢] .

ان خير الله كان من المفكرين الذين آمنوا باللبنانية والعروبة في آن ، واعتبر أن لا تناقض بينهما ، وكان من الذين تحسسوا أهمية التربية كاحدى أهم وسائل التغيير الاجتماعي . كما رأى أن النضال السياسي هو واجب على المفكرين المتنورين من أبناء البلاد ، من هنا مشاركته في أغلب اللجان والجمعيات السياسية التي كانت تعمل لاستقلال لبنان والبلاد العربية عن الاستعمار . وليس من قبيل الصدفة أن يموت خير الله في ظروف غامضة في شمال افريقيا ، فأمثاله من المفكرين الطليعيين هم الخطر الحقيقي على مصالح القوى التي تريد ان تبقى شعوبنا متخلفة لكي تستمر في السيطرة عليها وفي نهب ثرواتها [٦٣] .

LAU-Byblos Library

ان المسيحيين اللبنانيين الذين آمنوا بالعروبة العلمانية يعرفون بوضوح انهم يلتزمون بالمصالح العميقة للشعب اللبناني والشعوب العربية ، ويعرفون أيضاً أن معركة الاستقلال السياسي والاقتصادي تمر حتماً بتحقيق هذه العروبة ، وهم في توجههم هذا ينتظرون من « الآخرين » أن يتراجعوا عن اخطائهم .

٤ — مناقشة الحل المقترح :

يتراوح موقف منظري التعددية الحضارية من الحل السياسي المقترح لمستقبل لبنان بين مؤيد للوطن القومي المسيحي (الدكتور البستاني — والدكتور شارل مالك — وأدوار حنين وجواد بولس) ، وبين أن يكون الحل الكونفدرالي أو الكانتونات هو الحل المعقول (الأب مونس ، الاستاذ ناجي) .

فما هو تقييمنا لهذا الحل ؟

أولاً — خلفيات تاريخية :

ان فكرة انشاء وطن قومي مسيحي هي فكرة كانت موجودة منذ القرن الماضي وقد استمرت بالظهور بين فترة وأخرى ضمن ظروف داخلية وخارجية . وحسبنا التوقف عند المحطات الأساسية التي طرحت فيها هذه الفكرة بحدة لنتمكن من تقييمها بشكل موضوعي ورصين .

أ — طرح الفكرة في القرن التاسع عشر :

جاء في رسالة من القنصل الفرنسي في بيروت الى رئيس الوزراء الفرنسي (مؤرخة بتاريخ ٢١ أيار ١٨٤٠) :

"Ces dangers (sur le rôle de la France en Syrie) ne disparaitraient-ils pas par l'indépendance reconnue du prince du Liban, par la création enfin d'une principauté catholique indépendante ou seulement tenue à quelques actes de vasselages. Mehamet Ali serait protégé contre la Turquie par un rempart de quarant mille montegnards que pourrait

armer l'Emir (Béchir). D'autre part la Syrie serait de ce côté fermée à l'Angleterre à la Russie par les haines religieuses les plus vivaces, ainsi le Gouverneur Egyptien, fort contre toutes les autres puissances, serait faible contre la France seule."

«هل تنتهي هذه الأخطار (على دور في فرنسا في سوريا) بمجرد الاعتراف باستقلال امير لبنان، أو بخلق أمارة كاثوليكية مستقلة أو مرتبطة فقط ببعض العلاقات الفاسالية[٦٤].

«في هذه الحال يصبح محمد علي محميا، ضد تركيا، بجدار من أربعين ألف جبلي يمكن للأمير بشير أن يجندهم. وتصبح سوريا، في هذه الحالة، مقفلة بوجه النفوذين الانجليزي والروسي بسبب الأحقاد الدينية المتأججة، ونتيجة لذلك يكون حاكم مصر قوياً أمام كل القوى الدولية وضعيفاً أمام فرنسا بمفردها».

وعندما يسأل بوريه القنصل الفرنسي في بيروت عن موقف فرنسا الحقيقي: هل هي تهتم بالموارنة كطائفة، أم انها تعتبرهم أداة لتحقيق مصالحها في ما كان يسمى المسألة الشرقية؟ يجيب، انطلاقاً من توجيهات رئيس وزرائه، بأن المسألة الشرقية هي الأهم[٦٥]:

"Il résulte de la depêche de votre exellence que notre influence en Syrie, et notre action protectrice, ne sont que secondaires à la grande question d'Orient, et que si j'avais été dans la facheuse necessité d'abandonner un de ces intérêts à l'autre c'était le premier qu'il eût fallu sacrifier, bien entendu en le sacrifiant le moins possible".

«يستنتج من الرسالة الديبلوماسية لسعادتكم بأن نفوذنا في سوريا ودورنا في حماية الأقليات ليسا سوى أمرين ثانويين بالنسبة للمسألة الشرقية برمتها، وإذا ما وضعنا في مأزق الاختيار فمن الاجدى أن نضحي بالأمرين الثانويين ولكن بأقل قدر ممكن».

وعلى كل حال من حقنا أن نتساءل: أليس ان الفتن الطائفية وقيام متصرفية

جبل لبنان هي من النتائج التي فرضتها التطورات التاريخية الداخلية للبنى الاجتماعية الطائفية (وخاصة ما حدث داخل الطائفة المارونية)، وذلك بالتنسيق والتفاعل مع خطط القوى الخارجية في المنطقة وبخاصة المخططات الفرنسية والانكليزية؟

ب— فكرة الوطن المسيحي في مرحلة قيام لبنان الكبير:

ان المحلل المتمعن لبعض الوثائق والنصوص التاريخية التي تعود لفترة ١٩١٨— ١٩٢٠ يعود باستنتاج عام، وهو ان فكرة الوطن المسيحي كانت مطروحة في ذهن بعض التيارات المسيحية التي لعبت دوراً أساسياً في تلك الفترة، وكذلك كان هذا الأمر مطروحاً بالنسبة للسياسة الفرنسية.

١— السياسة الفرنسية:

في رسالة[٦٦] بالغة الأهمية أرسلها رئيس الوزراء الفرنسي ميللران بتاريخ ٦ آب ١٩٢٠ الى غورو، تأكيد على عدة أمور:

أ— ضرورة فرنَسة مسيحيي لبنان (ص ١٩٦).

ب— ضرورة ضم الجنوب الشيعي وصيدا الى لبنان، برغم معارضة القيادات المارونية لذلك (ص ١٩٦).

ج— اعطاء طرابلس استقلالاً ذاتياً، باعتبار أنها ترفض الانضمام الى لبنان المسيحي (ص ١٩٧).

د— كذلك بيروت يجب أن تعطى استقلالاً ادارياً ومالياً (ص ١٩٧).

وبالنسبة لسوريا يرى ميللران أن استراتيجية فرنسا تتطلب تقسيم سوريا الى كانتونات مستقلة (حلب، حمص، حماه، دمشق الخ...) يكون لها تنظيم مالي وقضائي وسياسي (ص ١٩٩— ٢٠٣).

LAU-Byblos Library

٢— مواقف بعض الشخصيات المسيحية :

أ— البطريرك الحويك :

في ملاحظات خاصة مرسلة من قبل البطريرك الى ليون بورجوا في وزارة الخارجية الفرنسية[٦٧] نلاحظ أن ثمة خلفية مسيحية في دفاعه عن ضرورة ضم مدينتي بيروت وطرابلس الى لبنان الكبير : فبيروت ، مثلاً ، محاطة بمناطق مسيحية ، و٣/ ٢ من سكانها مسيحيون ، وهي مركز التجارة ، وكذلك طرابلس. «وبقدر ما يكون لبنان قوياً ومستمراً في الحياة ، كذلك يكون نفوذ فرنسا في كل سوريا » .

ب— الأستاذ أميل أده :

أعلن السيد أميل أده أن الأمل بالوفاق مستحيل بين المسلمين والمسيحيين لأنهم منقسمون في صراعات طائفية حادة ، من هنا ضرورة تفكيك الشعوب العربية (يقصد الاسلامية) لاضعافها فيتأمن ، من خلال ذلك ، تفوق العنصر المسيحي في سوريا الكبرى[٦٨] .

ج— حليم بك ملحمة :

جاء في مذكرة مقدمة من هذا الدكتور في الحقوق :

« ... وبشكل خاص ، لبنان المسيحي ، والتابع لفرنسا ، والذي كان له وضعه الخاص خلال العصور ، هل عليه اليوم أن يتبع سياسياً سوريا المسلمة ؟ يبدو لنا أن جزءاً من البلاد مع الجبل ، وكذلك بيروت المركز وقسماً من الساحل والمناطق الداخلية المهمة اقتصادياً ، يجب أن تتمتع بنظام خاص وذلك بسبب الأغلبية المسيحية من السكان ، ومنهم الموارنة الذين يستطيعون حقاً الاعتزاز بكونهم فرنسيين ثقافة وتقليداً »[٦٩] .

على كل حال هناك عرائض ووثائق كثيرة تشير الى أن مسلمي بيروت ،

مثلاً ، طالبوا بتقسيم البلاد الى كانتونات اتحادية[٧٠] ، وانهم في أكثريتهم الساحقة كانوا يعارضون الانضمام الى لبنان الكبير ، وذلك انطلاقاً من مشاعر واتجاهات دينية اسلامية .

د— البطريرك انطون عريضه :

لقد تصدى البطريرك عريضة لهذه الفكرة في عدة مقابلات صحفية . فقد جاء في جريدة الاوريان البيروتية في عددها الصادر في ٩ آذار ١٩٣٣[٧١] :

«منذ بضعة أيام نقلنا المقابلة التي أجراها مراسل جريدة مصرية كبرى السيد زيدان ضاهر مع غبطة البطريرك الماروني : «الأكثرية والأقليات قد تتغير بالنسبة الى أهميتها العددية وبالنسبة الى آرائها ، أما لبنان فقد كان دوماً وسيبقى وطناً مسيحياً » .

وازاء ردود الفعل التي أحدثها هذا التصريح ، عاد البطريرك وأوضح المعنى من تصريحه قائلاً : « لم يبق للمسيحيين في كل الشرق من وطن سوى لبنان— مقابل البلدان الواسعة التي كونت بعد الحرب— فإلى لبنان التجأ جميع البطاركة المسيحيون ، كما يمكن أن نتبين ذلك . هل هذا معناه أن لبنان الوطن المسيحي لن يكون سوى للمسيحيين ؟— كلا فلا شيء يمنع أن يبقى وطناً مشتركاً لكل الطوائف . لكن بمواجهة سوريا المسلمة يقف لبنان المسيحي الذي عليه أن يضم شيئاً فشيئاً ضمن حدوده كل مسيحيي الشرق ... » .

هـ— مذكرة الى الأمم المتحدة تطالب بلبنان وطن قومي للنصارى في الشرق :

ان أهم خطوة في سبيل انشاء وطن قومي للنصارى في الشرق هو تلك المذكرة المطولة (٥٤ صفحة) المقدمة الى الأمم المتحدة . وبالرغم من عدم وجود تاريخ لتقديم المذكرة أو اسم للهيئة التي قدمتها ، فإن باستطاعتنا أن نستنتج أمرين :

أ — انها مقدمة من مقام ديني عال (وعلى الأرجح البطريرك الماروني انطون عريضه).

ب — ان التاريخ التقريبي لصدورها هو عام ١٩٤٨، أي تاريخ نشأة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين.

المذكرة مؤلفة من أربعة عشر فصلاً تدور على عرض تاريخي لعلاقات الصراع بين الداخل الاسلامي ولبنان «معقل النصرانية في الشرق». وبعد أن تعرض المذكرة أوضاع اللامساواة التي يعيش فيها المسيحيون في ديار الاسلام، تحاول أن تركز على الترابط بين العروبة والاسلام: «لا نرى أنفسنا مبالغين اذا قلنا أن العروبة لا تعني سوى الاسلام وأن بينهما اتصالاً وثيقاً، اتصال العلة بنتيجتها»[٧٢]. وفي مكان آخر: «ان العروبة والوحدة العربية لا يمكن فصلها عن الاسلام، وان للدولة العربية شريعة واحدة هي شريعة الاسلام المقدسة... وان الاسلام، وهو يؤلف دولة تيوقراطية، لا يعترف لغير المسلمين بالحقوق المدنية... وانه ينبذ فعلاً حرية الاعتقاد»[٧٣]. وترى المذكرة أن «الحل المعقول للاضطراب السائد في البلدين السوري واللبناني لا يمكن أن يكون الا في حشد الجماعات التي تدين بمبادئ متماثلة روحية وأدبية تحت سماء واحدة»[٧٤]. وتفترض «ان مصلحة المسلمين أنفسهم تقضي عليهم، كما تقضي على نصارى الشرق، بأن يؤلفوا امتين منفصلتين».

وتؤكد المذكرة ان على الأمم المتحدة أن تضع «حلاً نهائياً لمعضلة مسيحيي الشرق، فيضمنوا لهم حياة هادئة وشريفة في وطن قومي حر مستقل». وفي الختام تعود فتكرر أن «نصارى الشرق يطالبون بأن يكون لهم وطن قومي مسيحي: وهذا الوطن هو لبنان»[٧٥].

و — المطران بولس عقل:

طالب المطران بولس عقل، في أميركا الشمالية، بلبنان كوطن للنصارى في الشرق، وذلك في سنة ١٩٤٦[٧٦].

ز — المطران اغناطيوس مبارك:

قدم المطران مبارك سنة ١٩٤٧ الى اللجنة الدولية التي جاءت لاستطلاع الوضع في فلسطين، مذكرة طالب فيها بأن يكون لبنان وطناً قومياً للمسيحيين[٧٧].

ج — انشاء «الدولة المسيحية» هدف لقيادات الدولة الصهيونية:

كتب بن غوريون الى موشيه شاريت بتاريخ ٢٧/ ٢/ ١٩٥٤ رسالة جاء فيها ان «أقامة دولة مسيحية هنا — في لبنان — أمر طبيعي... وسيجد تأييداً من قوى كبيرة في العالم المسيحي». ثم يقول: «هذا الأمر يكاد يكون مستحيلاً في الأيام العادية... ولكن في وقت الارتباك والاضطراب والثورة أو الحرب الأهلية تختلف الأمور».

اما شاريت فيقول في رده على رسالة بن غوريون بتاريخ ١٨ آذار ١٩٥٤: «لا استثني من الحساب امكان تحقيق الأمر في أعقاب أية عاصفة من الاضطرابات تمر على وجه الشرق الأوسط». ويضيف: «بعد كل هذه الأمور ليس فقط أنني ما كنت سأعارض، بل كنت سأوافق تماماً على تقديم المساعدة الفعالة لكل غليان في أوساط الطائفة المارونية بهدف زيادة القوة والانفصال... وكنت سأرى الخير... بتحويل الأنظار عن الورطة الاسرائيلية العربية»[٧٨].

بعد هذه الخلفية التاريخية، سنتوقف عند بعض الملاحظات التي نعتبرها هامة، وسنخلص منها الى طرح بعض الأسئلة على طارحي فكرة الوطن المسيحي أو الكانتونات.

ثانياً: بعض الملاحظات:

١ — ان هذه الفكرة كانت تبرز في الأوساط المسيحية عامة، والمارونية خاصة، ابّان احتدام الأزمات، وخاصة الدموية منها، في لبنان أو على امتداد المنطقة.

٢— ان قوى خارجية (بعض دول الغرب ، اسرائيل...) تطرح وتؤيد هذه الفكرة ليس فقط حباً بالمسيحيين أو بالموارنة ، بل تحقيقاً لأهدافها السياسية والاستراتيجية في المنطقة .

٣— لما كانت تلك القوى ، عادة ، في صراع مع الداخل العربي ، فمن الطبيعي أن لا ينال مثل هذا المشروع رضى هذا الداخل .

٤— ان تلك القوى الخارجية تفضل مصالحها الاستراتيجية في المنطقة أكثر من اهتمامها أو دعمها للمسيحيين اللبنانيين في حال تعرضهم لأخطار اجتياحية بسبب هذا المشروع .

٥— ان هذا المشروع كان غالباً ، في الماضي وفي الحاضر ، يجابه بتيار مسيحي ، بل ماروني ، يطرح فكرة الالتزام بمصالح لبنان الموحد من ضمن انتمائه لبيئته العربية وقيامه بدوره الطبيعي في هذه البيئة .

٦— ان تخلف الأيديولوجية الطائفية الاسلامية التقليدية وقصورها عن حسم المضمون العلماني للعروبة — واستطراداً الهجمات الجماعية التي تعرضت لها المناطق المسيحية في الأزمة الأخيرة — هي من أهم العوامل المساعدة في تقوية التيارات «الكانتونية» في الأوساط المسيحية .

٧— انطلاقاً من الملاحظة السابقة ، ان مجابهة الطروحات الانفصالية في الأوساط المسيحية لا تتم ، فقط ، بتحميل المسؤولية للاستعمار والصهيونية ، فهذه القوى لا تستطيع أن تتدخل الا في ظروف داخلية مؤاتية ، ومن هنا ضرورة حدوث تحوّل يطال الايديولوجية الاسلامية التقليدية ، وخاصة في مجالين :

— حدوث ثورة في الفكر الديني الاسلامي يجدد تفسير القرآن على ضوء حاجات الانسان المعاصر .

— حدوث ثورة في الفكر السياسي عند المسلمين بحيث تصبح مدلولات

كلمات (كالأمة ، والقومية ، والعروبة ، والديمقراطية ، والحرية والعدالة ، والاشتراكية والمساواة ، والوطن الخ...) حاملة مضامين وقيم تنسجم وتقدم الانسان المعاصر .

٨— اننا : اذ نطرح ذلك على بيّنة من ثلاثة أمور :

أ— ان الايديولوجية التقليدية المسيحية هي أيضاً بحاجة الى ثورة في الفكر الديني وكذلك في الفكر السياسي .

ب— ان القوى المعادية — وفي طليعتها الصهيونية والاستعمار — سوف لن تقف متفرجة في عملية الصراع والتغيير هذه ، فإن لها أهدافها واستراتيجياتها ومصالحها .

ج— ان عملية التغيير في هذه الايديولوجيات هي محصل لصراع ثقافي واجتماعي وسياسي شامل — طويل الأمد — يجب أن تخوضه قوى التغيير انطلاقاً من التحليل العلمي للواقعين اللبناني والعربي ، ومن ضمن استيعاب العبر والدروس مما جرى ، ومحاولة رسم نظرية تغييرية جديدة بما يتخطى طروحات جبهة الأحزاب التي برهنت الأحداث الأخيرة تهافت تحليلها للواقع اللبناني ونظريتها لتغييره[٧٩] .

ثالثاً — بعض الأسئلة الجوهرية لمؤيدي فكرة الوطن المسيحي أو الكانتونات :

اننا سنطرح بعض الاسئلة معتبرين انها تحمل في ثناياها الجواب الواضح :

١— ألا يرى طارحو مشروع الكانتونات ، والوطن المسيحي ، ان هناك تمازجاً سكنياً بين السكان من كل الطوائف بحيث لا يوجد في لبنان مناطق مسيحية صرفة أو اسلامية صرفة ؟

٢ــ واذا أصر طارحو المشروع على تنفيذ مشروعهم ، فماذا سيكون مصير المسيحيين الموجودين في المناطق ذات الأكثرية الاسلامية ، وماذا سيكون مصير المسلمين في المناطق ذات الأكثرية المسيحية ؟

٣ــ اذا كانت هناك نية للتهجير المتبادل فمن استفتى السكان المعنيين حول هذا الأمر؟

٤ــ ان الأكثرية الساحقة من المسلمين ونسبة غير قليلة من المسيحيين ، بالاضافة الى الدول العربية والعديد من الدول الكبرى ، تعارض المشروع ، على الأقل ظاهرياً ، فما جدوى طرحه ؟ ألا يشكل هذا الطرح زيادة في مشاعر الحذر والعداء والريبة ؟

٥ــ ان المدن الرئيسية (بيروت ، طرابلس ، صيدا ، زحلة) تشكل نسبة ٦٥ بالمئة من سكان لبنان وتضم بيروت وحدها نسبة ٧٥ بالمئة من النشاطات الصناعية والتجارية ، والادارية ، والثقافية ، ألا يؤدي التفكك «الكانتوني» المقترح الى القضاء على وظائفها جميعاً ؟ أليست عواصم البلدان الاتحادية ــ التي يشار اليها ــ موحدة (بروكسل ، برن ...) ؟

٦ــ ما هي نسبة سكان المناطق المسيحية الذين يعتاشون من موارد هذه المناطق (زراعياً وصناعياً وتجارياً)؟ وهل يستطيع سكان زحلة مثلاً أن يتخلوا عن مناطقهم في سهل البقاع؟ وماذا يفعل المقاولون ومعلمو البناء ــ مثلاً ــ وهم الذين عندهم ورشات عمل في المناطق الاسلامية؟ ومن يستهلك منتجات الجبال من الفواكه والخضار ان لم يكن ابناء المدن والداخل العربي [٨٠] ؟

٧ــ أليست تجربة القائمقاميتين ــ إبان منتصف القرن الماضي ــ وما أسفر عنها من حروب وويلات هي حافز أساسي لرفض فكرة الكانتونات الطائفية ؟

٨ــ واستطراداً ألم نأخذ عبرة من النتائج الاجتماعية والاقتصادية من تجربة

المتصرفية ؟ وهل هكذا بسهولة نتخلى عن نضال الحركات السياسية والفكرية اللبنانية في الوطن والمهجر لتحقيق لبنان الكبير؟

٩ــ يشدد طارحو مشروع الكانتونات ان الأساس في طرحهم لهذا المشروع هو تخوفهم من تجدد الاقتتال كل فترة من الزمن ، فهل يعتقدون ان هذا المشروع هو الحل الذي يحقق هذا الهدف أم أنه سيكون ــ بالتأكيد ــ مدخلاً لحروب وفتن مستمرة وجديدة ؟

١٠ــ لقد أكدت الكنيسة ، خاصة في مجمع الفاتيكان الثاني ، على أن الكنيسة «لا ترتبط بأي شكل خاص من أشكال الثقافة ، ولا بأي نظام سياسي واقتصادي واجتماعي [٨١] . ثم حسمت بأن «الجماعة السياسية والكنيسة مستقلتان لا ترتبط الواحدةبالأخرى في الحقل الخاص بكل منهما» [٨١] . أليس ان قيام كيان سياسي مسيحي في لبنان يناقض التوجه العلماني الذي فرضته الكنيسة ؟ ثم أليس ان المنحى العنصري الذي يشكل الخلفية النظرية ــ والترجمة التنفيذية ــ التي سيقوم عليها هذا الكيان هو أمر يتناقض جوهرياً مع النظرة الانسانية للمسيحية نفسها ؟

١١ــ ألم يؤكد مجمع الفاتيكان الثاني على ضرورة احترام الاسلام والمسلمين الذين «يعبدون مع المسيحيين الاله الواحد الرحيم» [٨٣] ؟ وأين يمكن تخطي «المنازعات والعداوات القديمة» ، والانصراف باخلاص الى «التفاهم المتبادل» ، وصيانة وتعزيز «العدالة الاجتماعية» و«السلام والحرية» [٨٤] بين المسيحية والاسلام ان لم يكن من خلال صياغة تجربة علمانية في لبنان تعطي العروبة بعداً حضارياً مستقبلياً ؟

١٢ــ أليس ان واجب المسيحية في لبنان هو «ان تجعل الاسلام يدخل في حوار ذاتي بناء ، في ثورة داخلية روحية ، «فيفصل الدين عن الدولة ، ويفصل العروبة عن الاسلام الروحي» ، «فيلتقي عندئذ مع المسيحية ضد الصهيونية» [٨٥] ؟

١٣ — ألا يرى طارحو مشروع «الكانتونات» أن نتائجه السلبية ستطال مجمل المسيحيين اللبنانيين ويغير اللبنانيين الموجودين على امتداد المنطقة العربية ؟

١٤ — ألا يمكن لنا التأكيد، استنتاجاً، أن دور المسيحيين في لبنان، وفي باقي الدول العربية، هو الالتزام بمصالح شعوب المنطقة والمشاركة في كفاحها من أجل بناء نهضتها العلمية واستقلالها السياسي والاقتصادي وتحقيق تطورها الاجتماعي، وهذا الدور هو امتداد لما قام به مسيحيو القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟

مراجع القسم الثاني

(١) كلود كاهن، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية، ترجمة الدكتور بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ص ٢٢٦ — ٢٢٧.

(٢) موريس لومبار، الاسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، ص ٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩.

(٤) Roger Garoudy, pour un dialogue des civilisations de Noêl, 1977.

(ترجمه الى العربية عادل العوا، دار عويدات، سلسلة زدني علماً).

(٥) المرجع نفسه، ص ٨٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٨٢.

(٧) خاصة محاضرته في دار الفتوى عام ١٩٧١ عن الاسلام وتوافقه مع العلمانية. وقد نشرت في جريدة لسان الحال بتاريخ ٢٠ و٢٤ و٢٦ نيسان ١٩٧١.

(٨) راجع مداخلته في كتاب :

Les musulmans - consultation islamo-Chrétienne, Beauchesne, Paris, 1971, p. 64.

(٩) المرجع نفسه، ص ٦٥.

(١٠) جريدة النهار، تاريخ ٨ و١٥ حزيران ١٩٧٥.

(١١) مجلة الصياد، العدد ١٦٩١.

(١٢) مجلة الصياد، العدد ١٦٩٥.

(١٣) ملحق جريدة Le Réveil، تاريخ ٨ نيسان ١٩٧٧.

(١٤) مجلة الحوادث، العدد ١٠٦١.

(١٥) مجلة الصياد، العدد ١٦٨٩.

(١٦) Chafik Chehata, Droit musulman, Applications au Proche-Orient, Précis Dalloz, p. 3 et 4.

(١٧) المرجع نفسه، ص ١.

(١٨) راجع محاضرة الاستاذ محمود العنابي، الرئيس الأول لمحكمة تونس الاستئنافية، نشرت في النشرة القضائية اللبنانية سنة ١٩٦٢، ص ٧٥.

(١٩) راجع : ايف لاكوست، ترجمة عبد الرحمن حميدة، ص ١٠٩ و٢٦٤.

(٢٠) مكسيم رودنسون، الماركسية والعالم الاسلامي، ترجمة كميل داغر، ص ٩٩.

(٢١) راجع كتب المؤرخ الكنسي الكبير Emile Poulat وخاصة مقاله :

Modernisme et Modernité une réaction religieuse à une révolution historique Journal de psychologie, N° 2 Avril - juin 1976, p. 133 - 159

والجدير بالذكر أن ثمة فرقاً بين المسيحية كواقع سوسيولوجي (chrétienté) والمسيحية كعقيدة (christianisme)، ونحن في اشارتنا هذه نقصد المعنى الأول.

(٢٢) راجع أطروحة الأب اليسوعي Thom Sicking وهي بعنوان :

Religion et developpement, Etude comparative d'un village Chrétien et d'un village musulman - Chiite au Liban, thèse pour le doctorat en sociologie, Paris V, 1977, p. 7.

وراجع أيضاً :

Jean Yves Calvez, Aspects politiques et sociaux de pays en voie de développement, Paris, 1971, p. 153.

(٢٣) Henri Desroche, Sociologies religieuses Paris, 1968, p. 160 - 161.

(٢٤) أي تتركز على الأمور الاخروية في مرحلة ما بعد الموت.

(٢٥) Georges de Lagarde, la naissance de l'esprit laique au déclin du moyen âges, 1956, p. 7.

(٢٦) يمكن مراجعة الصراع المرير بين الدولة والكنيسة للسيطرة على المدرسة والجامعة في فرنسا في كتاب :

Georges Weill, Histoire de l'enseignement secondaire en France, Paris, Payot, 1921, p. 57.

(٢٧) La Laicité, P.U,F., 1960, p. 4.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٢٩) يمكن مراجعة أبحاث د. حليم بركات في هذا المجال.

(٣٠) في كتبه : «الوعي القومي» و«في معركة الحضارة» و«نحن والمستقبل».

(٣١) في مقال له بعنوان «مسألة لبنان» (المؤلفات الكاملة، المجلد الثالث، ص ٣٨٥ — ٣٨٨) يدعو الى قيام دولة علمانية ديمقراطية في لبنان، ويندد بالعروبة الطائفية.

(٣٢) أبحاث مختارة في القومية العربية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص ٢١٣ — ٢١٧.

(٣٣) مختارات ساطع الحصري، دارس القدس، الجزء الثاني ص ١٣١.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ١٤٢.

(٣٥) راجع: كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ١٩٦٧، ص ١٩٧ — هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، دار النهار للنشر ١٩٧١، ص ٣١ — زين زين نشوء القومية العربية، دار النهار للنشر ١٩٦٨، ص ٤٠ — جورج انطونيوس، يقظة العرب، دار العلم للملايين، ص ١١٤ — مجيد خدوري، الاتجاهات السياسية في العالم العربي، بيروت ١٩٧٢، ص ٣٠ — ٣١.

(٣٦) ناصيف نصار، نحو مجتمع جديد، دار الطليعة، ص ٢٦.

(٣٧) هيام عقل، بعض المفكرين المسيحيين والمسألة القومية، اطروحة كفاءة في كلية التربية — الجامعة اللبنانية.

(٣٨) جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٣٩) نقولا زيادة، أبعاد التاريخ اللبناني الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٢، ص ٢٤٢ — ٢٤٣.

(٤٠) راجع توطئة كتابه: Le Reveil de la nation arabe, Librairie Plon, Paris 1905.

(٤١) المرجع نفسه، ص ٢٤٥.

(٤٢) انظر: جورج انطونيوس، المرجع السابق، ص ١٧٢ — زين زين، المرجع السابق، ص ٧٥ — هشام شرابي، المرجع السابق، ص ١٢٣ — مجيد خدوري، المرجع السابق، ص ٣١.

(٤٣) أمين الريحاني، القوميات، الجزء الثاني، ص ١٦١.

(٤٤) المرجع نفسه، ص ٢٨.

(٤٥) المرجع نفسه، ص ١٣٢.

(٤٦) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٤٧) المرجع نفسه، ص ١٦١.

(٤٨) المرجع نفسه، ص ١٣٣.

(٤٩) المرجع نفسه، ص ١٦٠. ويقول الريحاني: «القومية تجمع الشعوب والدين يفرقهم» (ملوك العرب، الجزء الأول، ص ١٣٢).

(٥٠) المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(٥١) المرجع نفسه، ص ١٧٤.

(٥٢) المرجع نفسه، ص ١٦٣ — ١٦٤.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ١٥٢.

(٥٤) اسعد داغر، ثورة العرب، القاهرة ١٩١٦، ص ٤٣ — ٤٤.

(٥٥) جريدة القاهرة، العدد ٢٢١، تاريخ ١٣ مايو ١٩٥٤.

(٥٦) من كراس بعنوان: الدعاية العربية، أهدافها وطرقها ووسائلها، ص ٤ — ٥.

(٥٧) من خطبة القاها. (انطوان داغر، أسعد داغر رجل السياسة والأدب، اطروحة، ١٩٧٠، ص ٥٤).

(٥٨) آخر المتحاملين على خير الله خير الله هو الدكتور وجيه كوثراني في كتابه الصادر حديثاً حول «الاتجاهات الاجتماعية — السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ — ١٩٢٠، معهد الانماء العربي، ص ٢١٤. والجدير بالذكر ان هذا المؤلف يبدي في موقفه من خير الله موقفاً طائفياً يفتقر الى الأدلة والبراهين عندما يطلق عليه تهمة العمالة لفرنسا.

(٥٩) Le problème du levant - Les régions arabes libérées, Edition Ernest Leroux, Paris, 1919, p. 9 et 48.

(٦٠) المرجع نفسه، ص ١٠٦.

(٦١) المرجع نفسه، ص ١٦ — هيام عقل، المرجع السابق، ص ٥٩.

(٦٢) هناك اشارات متعددة في وثائق وزارة الخارجية الفرنسية الى استقلالية خير الله عن اي توجيه فرنسي.

(٦٣) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، تقارير قنصلية بيروت، مجلد رقم ١، ص ١٢.

(٦٤) هي علاقات تربط الفلاح (فاسال) بالسيد (سينيور) تبعاً لطبيعة النظام الفيودالي.

(٦٥) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، تقارير قنصلية بيروت، مجلد رقم ١، ص ١٣٠ — ١٣٨.

(٦٦) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية:
Levant - E (Syrie - Liban, N° 125, p. 196 - 203).

(٦٧) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٦٨) المرجع نفسه، ص ١٦٤ (بتاريخ ١٧ نيسان ١٩٢٠).

(٦٩) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

(٧٠) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية:
Levant - E, (Syrie - Liban, N° 12, p. 280, et N° 13, p. 90).

(٧١) Edmond Rabbath , unité syrienne et devenir arabe, Paris, 1937, p. 167 - 168.

(٧٢) من كراس «لبنان وطن قومي للنصارى في الشرق الأدنى»، بدون تاريخ، ص ٣٤ — والجدير بالذكر أن الكثير من الحجج والأسانيد التي يعرضها منظرو التعددية الحضارية موجودة في هذا الكراس، وفي بعض الأحيان هناك نقل واقتباس لمقاطع وجمل بأكملها.

(٧٣) المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٧٤) المرجع نفسه، ص ٥٢ — ٥٣.

(٧٥) المرجع نفسه ، ص ٥٤.

(٧٦) مجلة الديار ، تاريخ ٦ كانون الثاني ١٩٤٦.

(٧٧) Le soir, 29 septembre, 1947.

(٧٨) محمد طي ، لبنان في خريطة الامبريالية الجديدة ، ص ٧٠— ٧١ (نقلاً عن «دافار») .

(٧٩) يمكن مراجعة محاضرة : «مقدمات حول مقولة الطائفة— الطبقة» .

(٨٠) هناك بعض الاحصائيات التي تشير الى أن نسبة الأموال التي تأتي الى الدخل القومي اللبناني من المهاجرين الذين يعملون في البلاد العربية النفطية تزيد على مليارين من الليرات اللبنانية .

(٨١) الوثائق المجمعية ، الترجمة العربية ، الجزء الأول ، ص ٨٥— ٨٦.

(٨٢) المرجع نفسه ، ص ١٤١.

(٨٤) الوثائق المجمعية ، الجزء الثاني ، ص ٢٠٢.

(٨٥) هذه خلاصة محاضرة للأب بولس نعمان بعنوان : المارونية بين الدين والدولة — رأي في نزاع الشرق الأوسط ، الكسليك ، ١٩٧٠ ، ص ١٦ — والجدير بالذكر أن الأب نعمان ، في الفترة الراهنة ، هو من أكبر دعاة التعددية الحضارية ومشروع الكانتونات .

القسم الثالث

حضارة اللبنانيين جزء من الحضارة العربية

عندما قرر منظرو الجبهة اللبنانية أن في لبنان تعدد حضارات وأثنيات ، لم يقوموا ، فيما نعلم ، باعطاء تحديدات معينة لهذه المصطلحات. ثم انهم لم يبرزوا الدراسات والأبحاث العلمية التي أوصلتهم الى الاستنتاجات التي ينادون بها[١] .

وعليه فمن حقنا التقرير ان المسألة كانت ولا تزال ، بالنسبة اليهم ، منطلقة من موقف سياسي مسبق ، ولم ترتكز في أي حال على الأبحاث الموضوعية الرصينة. ونحن ، في هذه العجالة ، لا نزعم أننا نقدم احاطة شاملة بهذا الموضوع ، فالقضية تتطلب جهداً جماعياً وأبحاثاً مرتكزة على نواح شتى من العلوم ، ولكن حسبنا أن نورد بعض الملاحظات الأولية التي يمكن أن تشكل منطلقاً لأبحاث لاحقة.

أولاً : تحديدات عامة :

ما هو التحديد العلمي لمصطلحات : الاثنية ، الثقافة ، الحضارة ، لكي نتمكن ، على ضوء ذلك من معرفة صحة مقولة التعدد الاثني والثقافي والحضاري في لبنان؟ ولكن ، قبل أن نباشر بذلك ، علينا أن نشير الى أن هناك جملة تحديدات لكل مصطلح تبلغ درجة التباين بل التناقض في بعض الأحيان. والتحديدات التي سنعتمد هي الأكثر شمولاً وصحة .

١ — الاثنية :

حدد شيروكوف الاثنية على أنها «مجموعة أشخاص تجمعهم لغة وعادات وتنظيم اجتماعي مشتركة، ويتفقون على أنهم يعودون الى أصول واحدة. وهي تقدم اطاراً مميزاً لسير التغيرات الثقافية والبيولوجية»[٢].

ويميز شيروكوف خمسة مظاهر :

١ — الانسجام الثقافي.

٢ — الانسجام النفسي والعقلي واللغوي.

٣ — الاستمرارية.

٤ — التمييز الذاتي.

٥ — المظهر البيولوجي بمعناه الحصري.

والأثنية يتحدد تطورها، في رأيه، بجغرافية مفروضة من قبل الطبيعة، وبالثقافة التي هي ناتج انساني، وبالتفاعل الناتج عن تداخل المواصلات والعلاقات مع مجموعات أخرى.

أما هيلمن[٣] فيشدد على العوامل النفسية لتكوين الاثنية : الوعي الجماعي، الانطلاق الذاتي، الأرادة الخلاقة الجماعية. انه يميز بشكل واضح بين الاثنية والمجموعة اللغوية. انه يميز بشكل واضح بين الاثنية والمجموعة اللغوية. وفي رأيه أن العامل الجغرافي ومبدأ العيش المشترك هما، كذلك، مقرران. ذلك أن أي حزب سياسي أو أية مجموعة أهلية مشتتة، دينية أو مهنية، لا يمكن أبداً اعتبارها كأثنية. الاثنية تحدد دائماً بثقافتها. بالنسبة لعالم اللغة، الثقافة تنتمي الى الاثنية، والعكس بالعكس. اما في مجال العلوم السياسية فمدلول الاثنية يرتبط بمجموعة لغوية مرتكزة على أرضها الوطنية.

٣ — الثقافة :

يحدد العلامة ويسلر[٤] الأنماط العالمية للثقافة :

١ — اللغة.

٢ — العناصر والمركبات المادية :

أ — عادات الطعام.

ب — المأوى.

ج — وسائل النقل والسفر.

د — الملبس.

هـ — الأدوات والآلات.

و — الأسلحة.

ز — المهن والصناعات.

٣ — الفن : النحت والرسم والموسيقى وما الى ذلك...

٤ — الأساطير والمعارف العلمية.

٥ — التصرفات الدينية :

أ — الأشكال الطقوسية.

ب — طقوس المرض.

ج — طقوس الموت.

٦ — الأسرة والنظم الاجتماعية :

أ — اشكال الزواج.

ب — نظم التسلسل القرابي.

ج ــ الميراث .

د ــ الضبط الاجتماعي .

هـ ــ الألقاب .

٧ ــ الملكية :

أ ــ الملكية العقارية وملكية الأشياء المنقولة .

ب ــ مستويات قيمة الأشياء والتبادل .

ج ــ التجارة .

٨ ــ الحكومة :

أ ــ الأشكال السياسية .

ب ــ الاجراءات القانونية والقضائية .

٩ ــ الحرب .

٣ ــ الحضارة :

هناك تيارات متعددة في فهم الحضارة ، أهمها اثنان :

ــ من يقول بوجود حضارة انسانية واحدة .

ــ من يقول بأن هناك تعدد حضارات في العالم .

واذا انطلقنا مع التيار الثاني ، فما هو التحديد الذي يمكننا اعطاؤه للحضارة :

أ ــ المعنى التقييمي :

أ ــ المعنى التقييمي : الذي به نتوجه الى القيم التي تتضمنها الحضارات وتتميز بها ، أو نقارن ونقابل حضارة بأخرى . وبهذا المعنى نقول عن حضارة ما

أنها في تقدم أو انحطاط أو في ازدهار أو ذبول[٥] ، وبالتالي فهذا الشعب متقدم حضارياً على الشعب الآخر .

ب ــ المعنى الوصفي : الذي يقصد به مجموع الحياة التي يحياها شعب واحد أو شعوب عدة ، بما تضم من نظم في الحكم ، وسبل في تحصيل المعاش ، وعلاقات اجتماعية ، ومعرفة نظرية وعملية ، وقواعد سلوكية ، وعقائد دينية وسواها من المقومات التي تتمثل بها تلك الحياة .

في هذا المعنى الوصفي الحضارة ، والمماثل تقريباً مع الثقافة بمفهومها الانتروبولوجي الواسع ، نورد المقومات التالية :

١ ــ العادات والاعراف والتقاليد : وهي سبل السلوك الاجتماعي التي توصل اليها أبناء المجتمع بالتجربة والاختبار . فما من حضارة الا ولأهلها عاداتهم وتقاليدهم في تناول مآكلهم وفي اختيار ألبستهم ، وفي تأثيث بيوتهم ، وفي احاديثهم واجتماعاتهم ، وفي تصرفاتهم بعضهم مع بعض . وهذه العادات والتقاليد تنبث في القصص والأمثال والاغاني والرقصات والأزياء ، وتسري في الافراح والاحزان ، وتبرز في الأعياد والمواسم ، وتقترن بالحياة اليومية ، فيتألف من هذا كله ما يسمى بالفنون الشعبية ، وما يتصل بـ «الفولكلور»[٦] .

٢ ــ الاخلاق والفضائل الاجتماعية : كالصدق والأمانة والمروءة والشهامة والعفة والشجاعة واكرام الضيف واغاثة الملهوف وامثالها .

٣ ــ التنظيم الاجتماعي : أهو مجتمع قبلي ، أم مدني ، أم قومي ، أم ديني ، أم غير ذلك ؟ ماذا عن نظم الزواج والقرابة والميراث ؟

٤ ــ التنظيم الاقتصادي : أهو مجتمع زراعي ، أم تجاري ، أم صناعي ؟ أقطاعي أم رأسمالي أم اشتراكي ؟

٥ ــ الدين : وله أهميته الكبيرة في ذاته ومن حيث تأثيره في الحياة

والتاريخ، هذا التأثير الذي ينطلق من حيث هو موقف من أسرار الطبيعة وما وراء الطبيعة، وعقيدة يتجسد بها هذا الموقف، ومصدر لطقوس وفرائض لها أثرها الاجتماعي.

٦ــ **اللغة والكتابة**: فاللغة تعبر عن الحضارة من وجهتين رئيسيتين: المفردات والتركيب. والكتابة تأتي بعد أهمية اللغة التي هي دوماً مرآة للوضع الحضاري السائد.

٧ــ **الآداب والفنون**: الآثار الشعرية والنثرية والطرائف والتحف الفنية (النحت التصوير، الموسيقى، المسرح) و«أدب العيش» (فنون المأكل والملبس والمخالطة والمحادثة الخ...).

٨ــ **التنظيم السياسي والقوانين الوضعية**: هل نظام الحكم استبدادي أم تيوقراطي؟ ملكي دستوري أم ديمقراطي بمختلف صنوفه أم ديكتاتوري؟ والشرائع والقوانين[٧] هل هي قوانين وضعية أم مذهبية دينية (اسلامية أو مسيحية أو موسوية؟).

هذه باقتضاب أهم التحديدات التي اعتمدناها لمصطلحات الأثنية، الثقافة (بمعناها الانتروبولوجي) والحضارة، وهي على كل حال تحديدات نسبية في صحتها وشموليتها، وقابلة للمناقشة، ولكنها تشكل الحد الأدنى الذي يسمح لنا أن نناقش القائلين بوجود حضارتين أو عدة حضارات في لبنان. بيد أننا نرى من الضروري ايراد **بعض الملاحظات** التي نعتبرها أساسية:

١ــ اننا لا نحاول أن نزعم أن الطوائف المكونة للمجتمع اللبناني لها خصائص موحدة ومشتركة في جميع المجالات. فنحن من القائلين بوجود «كثارية مجتمعية» في لبنان تتمثل أساساً في طوائفه المتعددة التي حافظت على بعض العادات والتقاليد والعناصر الثقافية والتراثية المميزة، وقد طبعت هذه العناصر الافراد بدرجات متفاوتة من التأثيرات[٨].

٢ــ بالرغم من قولنا بأن لبنان يشكل جزءاً من الحضارة العربية الا أننا نؤكد على الطابع الخاص والمميز الذي يتمتع به شعب هذا الوطن ضمن البيئة الحضارية العربية.

٣ــ اننا من القائلين بوجود تيارات متصارعة داخل الحضارة العربية.

ــ **تيارات التعصب والجهل والسلفية والتبعية**، وهي تدافع عن البنى الموروثة (في الدين والسياسة والفن والمجتمع...) وتدافع عن الواقع المتخلف وتنظّر له، وتستند قياداتها على قوى الهيمنة الخارجية.

ــ **وتيارات العلمانية والتجديد والعقلنة والحداثة**، وتنطلق من الوعي الشامل لمكامن التخلف والانحطاط التي تلف شعوبنا، وتلتزم بموقف سياسي جذري يكافح لترسيخ الأطر الكفيلة بتحقيق الديمقراطية المتقدمة، مستوعباً مجمل التحديات الخارجية والداخلية.

٤ــ ماذا يمنع أن يصبح لبنان، في واقعه الحضاري ومرتجاه، نموذجاً لما يمكن أن تتطور باتجاهه الحضارة العربية؟

ثانياً: لماذا تشكل حضارة لبنان جزءاً من الحضارة العربية؟

لن ندرس في هذه العجالة كل جوانب الواقع الاثني والثقافي والحضاري للبنان، على ضوء التحديدات التي أوردنا، ولكن حسبنا أن نعرض لبعض النقاط البارزة التي يمكننا انتقاؤها من خلال تلك التحديدات.

١ــ في اللغة:

إن اللغة هي من العناصر الأساسية التي تحدد الانتماء لأثنية أو لثقافة أو لحضارة معينة. فهي تحمل الميراث المشترك للمجموعة البشرية التي تنطق بها،

وتفرض نفسها على الأفراد والأجيال كشبه معطى طبيعي لا يمكن محوه أو تحويله الا ببطء شديد ومع تراكم الزمن ، ثم هي تشكل تماسكاً وبنية توحد المجموعة التي تحملها وتفصلها عن المجموعات الأخرى في آن ، وأخيراً لا تبقى حية الا بمقدار ما هي رمز وأداة تعاضد وتمايز لهذه المجموعة البشرية .

واللغة العربية هي لغة اللبنانيين ، كل اللبنانيين ، «انكبوا على احياء تراثها فإذا «بالضاد» تكتسب ليونة شطآنهم ، وترتدي حلة هذا الجبل الأخضر ، فتزداد روعة وتألقاً»[٩] . لقد قام اللبنانيون عامة ، والمسيحيون منهم بوجه خاص ، باغناء هذه اللغة بالمصطلحات والمعاجم والشعر والنثر . ويضيف الدكتور مالك حول دور اللبنانيين في اللغة العربية : «لن اعدد ما شرحوه من دواوين ، وما نشروه من آثار العرب والمسلمين ، وما اختزنته مكتبات اديارهم ومناسكهم من لآلئ الفقه والشريعة ، وحماسات الجاهلية ، وصدر الاسلام ، ومعلقات ، ونقائض ، ورسائل ومقامات ، وما عكفوا عليه من معاني الحديث النبوي والسيرة ، وأخبار العرب وأيامها ، وما ألفوه من المعاني والبيان ، والعروض ، والأدب ، والانساب والتاريخ» . ويقرر الدكتور مالك «أن اللغة العربية مؤسسة لبنانية يتجسد فيها التراث ، وعلينا أن نحب هذه المؤسسة ونعمل على حفظها وصيانتها بكل ما نملك من وسائل»[١٠] .

فأية حجة بعد ، في مجال اللغة ، تسمح لإنسان منطقي أن يزعم أن في لبنان تعدد حضارات ، علماً أن التعدد الحاصل في مجال اللغة يثري اللغة العربية ولا يقلل من أهميتها .

وفي مجال الآداب والفنون نلاحظ أن هناك شبهاً واضحاً بين الشعراء والأدباء والفنانين المسيحيين والمسلمين ولئن تنوعت المصادر والاهتمامات فإنها تتصف بمميزات جوهرية مشتركة .

وإذا خضنا في التفاصيل يمكننا أن نورد عشرات الأسماء من الأدباء والفنانين

المسيحيين والمسلمين الذين يشتركون في خصائص موحدة . بل ربما يمكننا أن نقول عن هؤلاء الأدباء والفنانين اللبنانيين أنهم يلعبون دوراً طليعياً في تجديد واثراء التراث الأدبي والفني العربي .

٢ — في التنظيم الاجتماعي :

أ — أشكال الزواج :

من المسلم به عند علماء الاجتماع أن للزواج العربي خصائص بارزة ، فهو يعقد بصفة مميزة على ابنة العم (ابنة أخ الوالد) . وتدل عبارات القرابة على تطابق في التسمية بين ابنة العم هذه (بنت العم) والزوجة . ويولد نظام الزواج هذا بنية خاصة تؤدي الى زواج من الجب العائلي يمكن أن ندعوه انقساماً متشعباً ، وهذه البنية متفقة كلياً ونوع المعيشة التي ترافقها عادة ، أي معيشة البدو المسلمين مربي الحيوانات ، حيث لا تتأتى الثروة من ايراد ثابت ، وانما من نمو منتظم في الرأسمال[١١] .

والعلماء الذين درسوا الزواج عند المسيحيين الشرقيين عامة والموارنة بوجه خاص ، لاحظوا مدى التشابه في العادات بين زواج المسيحيين والمسلمين العرب .

فقد لاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية المونسنيور فغالي في دراسة عن «العائلة المارونية»[١٢] ، كما أكدها الباحث الفرنسي كرسويل في دراسته لقرية بقسميا المارونية وفي دراسة مقارنة بين قريتين مارونية وشيعية في منطقة الهرمل (بتدعي وفلاوي) يتبين للأب اليسوعي توم سيكينغ ، من خلال الاحصاءات الميدانية ، أنه اذا كان صحيحاً أن سكان بتدعي وفلاوي لا يتزاوجون كثيراً من بنات قريتهم ، فهم بالعكس يحبون التزاوج من أشخاص يحملون اسم العائلة نفسه[١٣] .

ففي بتدعي يوجد ٦٦ عائلة حيث الزوج والزوجة يحملان اسم العائلة نفسه ، أي ٥١,٢٪ من نسبة عائلات القرية ، وفي فلاوي يوجد ٩٧ عائلة حيث الزوج والزوجة يحملان اسم العائلة نفسه ، أي ٦٦,٩٪ من عائلات القرية[١٤] .

ويقرر الأب اليسوعي بأن عادة الزواج بين الأقارب المسيحيين في لبنان هي دون شك تقليد للمجتمع الاسلامي التقليدي الذي يحيط بهم منذ عصور[١٥] . وقد لاحظ هذه الظاهرة الأب دندنيي في القرن السادس عشر[١٦] ، كما أكدها الدكتور الياس القطار في أطروحته عن مجتمع جبل لبنان في عهد المماليك[١٧] .

ومن أصل ١١٠ زيجات في بقسميا نعرف فيها معرفة أكيدة اسم الزوجة ، في ٢٪ منها تزوجت الفتيات أبناء عم من الوجه الأول ، وفي ٩٪ تزوجن ابناء غير لزم وبينهن وبين ازواجهن أحياناً فروق في الأجيال ، وفي ٢٤٪ منها تزوجن أقرباء آخرين من جهة الأب . وعلى سبيل المقارنة فإنه في دير دوريت ، وهي بلدة في الشوف ، وداخل احدى كبرى عائلاتها ، من أصل ٨٧ زيجة ٦٪ كانت بين أبناء عم ، و٢١٪ بين أبناء عم بينهم وبين أزواجهم أحياناً فروق في الأجيال ، و٣٨٪ من الزيجات الأخرى من بين أقرباء آخرين من جهة الأب[١٨] .

ب — تعدد الزوجات ونسبة الولادات :

تحاول الأيديولوجية السائدة في الأوساط المسيحية أن تركز على هاتين الظاهرتين كعاملي تمايز بين العائلة الاسلامية والعائلة المسيحية . ولكن الدراسة الميدانية للأب توم سيكنغ اليسوعي[١٩] حول القريتين المارونية والشيعية (بتدعي وفلاوي) تبرز لنا مكامن التضخيم في هذا المجال :

١ — فالعدد الوسطي للأولاد في العائلة هو تقريباً متساو . في بتدعي يوجد ٤٢٥ ولداً لـ ٧٩ عائلة ، أي ما نسبته ٥,٣٨ للعائلة . وفي فلاوي يوجد ٤٧٣ ولداً لـ ٨٧ عائلة أي ما نسبته ٥,٤٤ للعائلة . والجدول ٢٥ يقارن بين عمر

الرجل وعمر المرأة عند زواجها الأول في بتدعي وفلاوي . ويمكننا الاستنتاج من هذا الجدول ان عمر الرجل الوسطي عند زواجه الأول هو ٢٦,٤٧ سنة في بتدعي ، و٢٥,٠١ في فلاوي . وبالنسبة للمرأة نجد أن عمر الزواج ٢٠,٢٩ سنة في بتدعي ، و٢١,٩٣ سنة في فلاوي .

٢ — وتشير الدراسة نفسها[٢٠] ، في موضوع تعدد الزوجات ، ان ثمة عائلتين تسكنان صيفاً شتاء فلاوي يوجد فيها زوجتان . وتؤكد الدراسة أن البنية الزوجية المنفردة ، في الاجيال ، هي بنية متينة في بتدعي كما في فلاوي . ورغم التشريعات الدينية المختلفة لا يوجد سوى فوارق بسيطة في الواقع الملموس .

ج — سلطة الأب :

لقد أشار جميع الذين كتبوا عن الشرق الأوسط الى المكانة الهامة التي يشغلها الأب في الحياة العائلية . فالسلطة اجمالاً بين يديه ، في العائلة المسيحية والعائلة الاسلامية[٢١] . حتى ان الرئيس كميل شمعون يقول انه ظل حتى الثامنة والعشرين من عمره يعطي والده ما يكسبه من مهنة المحاماة[٢٢] .

ومن الجدير ملاحظته أن اسماء النساء ، في شجرات العائلات اللبنانية والعربية لا تظهر ، لأن مجتمعنا يعتمد الأبوة أساساً ، وهذا لا يعني نزعة استعلاء بقدر ما يعبر عن ضرورة بنائية في الأنظمة الأحادية البعد التي ترمي الى حفظ نظام الأبوة سليماً من أي تغير[٢٣] .

د — الانقسام العشائري :

ان الظاهرة الأساسية في البنية الاجتماعية العربية انقسامها على اساس العصبية العشائرية والقبلية ، والشواهد على هذه الظاهرة هي أكثر من أن تحصى . والبيئة الاجتماعية المسيحية عامة ، والمارونية بوجه الخصوص ، تعطي البراهين الواضحة على «عروبتها» على هذا المستوى .

فتاريخ العائلات المارونية ، في العصر الوسيط وفي ظل الامارة ، مليء بالصراعات بين القيسية واليمنية . وقد عرض البطريرك الدويهي[٢٤] الصراع الذي نشب في العاقورا (المارونية) بين اليمنية والقيسية من أهل القرية وذلك عام ١٥٣٤ . والنزاع بين اليزبكية والجنبلاطية ، فيما بعد ، هو استمرار لهذا المفهوم الى حد كبير.

بل ان بعض علماء الاجتماع المعاصرين[٢٥] الذين درسوا القرى المسيحية في لبنان لاحظوا هذا الانقسام الثنائي. فكرسويل الذي درس قرية بقسميا (المارونية) لاحظ انقسام البلدة عامة الى فريقين: آل فاضل وآل خضّاع من جهة ، وآل كلش وآل بجاني من جهة أخرى. ويحصل هذا الانقسام طبقاً لنسق ثابت في البلدان ذات الثقافة العربية يعود أساسه الى انقسام الشعوب العربية قديماً بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب. وقد رافقتهم هذه السمة طيلة تاريخهم وانتشارهم عبر العالم. ويمكننا القول أيضاً أنه في كل مرة كان يختفي فيها أحد طرفي هذا الانقسام (حزب سياسي ، طائفة دينية ، فئة اجتماعية) كانت الأمور تجري وكأن هناك جهوداً تتضافر لإيجاد فريق آخر يضارع الفريق الأول قوة ، سعياً لخلق توازن مع المنتصرين. ولا تزال هذه السمة قائمة الى اليوم بشكل أكثر تنوعاً في الأحياء الصغيرة.

ويشير غوليك في دراسته لبلدة المنصف (قضاء جبيل) ، وسكانها من الروم الارثوذكس ، الى بعض مراحل التنظيم الثنائي حاضراً وماضياً ، ولكنه لم يتوصل الى عقد ارتباطات بديهية بين الاجباب ، أو الاحزاب ، أو الفئات المتنافسة.

وعلى كل حال فإن نظرة سريعة الى واقع الصراع داخل اعرق حاضرتين للموارنة ، بشري وزغرتا ، بين العائلات من جهة ، وبين المدينتين من جهة أخرى ، يوضح لنا العصبية العشائرية العربية بأجلى صورها.

هـ— نظام القرابة :

لقد أبرزت أكثر من دراسة علمية الطابع العربي لنظام القرابة عند الموارنة .

فكرسويل[٢٦] يؤكد أن نظام القرابة في بقسميا هو نظام البدو التقليدي ، وعباراته هي العبارات المستخدمة في كل البلدان الناطقة بالعربية .

فلو أخذنا مثلاً القول المأثور الذي يبرز بجلاء أحد أهم مظاهر «الجو» السائد في هذا النظام «أنا وخيي عا ابن عمي ، وأنا وابن عمي عالغريب» ، فإننا نرى فيه ذكراً لتعبير «ابن عم» الذي لا يقصد به اجمالاً كل أبناء العم فقط بل أيضاً أخ الزوجة. لذلك ، اذا أراد أحد أهالي بقسميا أن يشير بدقة الى ابن العم الموازي لجهة الأب ، فهو يضيف الى عبارة «ابن عم» ، عندما لا تسمح له القرينة اللغوية بالتمييز ، كلمة «لزم» التي يوحي مصدرها بمعنى الضرورة والارغام والاجبار. وتستعمل الكلمة ذاتها في الأوساط الاسلامية المتعددة الزيجات للتمييز بين الاخوة والاخوات المتحدرين من ذات الأب والأم.

ومن بين عبارات المصاهرة هناك عبارات تتميز بدقة وصفها لعلاقات القرابة مثل «سلف» ومؤنثها «سلفة» ، و«عديل» (التي ليس لها مؤنث بالطبع لأن الأختين المتزوجتين تسكنان بيتين مختلفين). ونشير أيضاً الى أن العبارة المستخدمة لتعيين زوج الأخت «صهر» هي عبارة تستعمل أحياناً لتقريب أحد أقرباء المصاهرة كلامياً من النواة العائلية (كما في قولهم «صهر العيلة»).

وتماثل هذه الصيغة — يؤكد كرسويل — الصيغة التي يستعملها مسلمو لبنان ، الا في ما يتعلق بالعبارات التي فرضتها عادة تعدد الزوجات.

ومن جهة أخرى ، جدير بنا أن نذكر أن الأقارب ، والأم خاصة ، يخاطبون أولادهم الشباب بعكس عبارات القرابة ، فتنادي الأم ابنها أو ابنتها على السواء بعبارة «ماما» وتصبح هذه الاشارة أقل الفاتاً للنظر حين ندرك أن في العربية مجموعة من العبارات المتناقضة المعنى تعرف بالاضداد[٢٧].

و— في بنية السكان :

من المعروف أن الشعب اللبناني هو شعب فتي ، فنسبة ٥٢,٧٪ من السكان

عمرهم أقل من ٢٠ عاماً. وفي الدراسة المقارنة للأب سيكينغ [٢٨] بين القريتين المسيحية والشيعية برزت الحقائق التالية: في بتدعي ٢٥٣ شخصاً من أصل ٤٣٧ لهم من العمر أقل من ٢٠ سنة، أي ٥٧,٨٩٪، وفي فلاوي ٢٦٩ شخصاً من أصل ٤٦٧ لهم نفس العمر أي ٥٦,٥١٪، أما الذين عمرهم بين ٢٠ و٦٥ عاماً فعددهم في بتدعي ١٦٥ أي نسبة ٣٦,٩٧٪، أما في فلاوي فعددهم ١٧٦ شخصاً أي نسبة ٣٦,٩٧٪.

وربما تبرز دراسات ميدانية اخرى تشابهاً في بنية السكان بين المسيحيين والمسلمين الذين يعيشون في المدن.

ز — في مستوى التعليم:

ليس من شك في أن نسبة المتعلمين بين المسيحيين هي أكثر منها بين المسلمين، والحقيقة العلمية تبين أن أسباب ذلك لا تعود الى الجانب الديني بل الى عوامل متنوعة وتاريخية عرضناها في محاضرتنا عن مقولة الطائفة — الطبقة. ولكن يجدر بنا أن نشير الى أن نسبة المتعلمين بين المسلمين أخذت في التزايد مع نمو التعليم الرسمي واتساعه، وبالتالي كان هناك تغير على هذا المستوى يتجه أكثر فأكثر لردم التفاوت النسبي بين المسلمين والمسيحيين.

وخطأ المنظرين للتعددية الحضارية، في هذا المجال، وفي المجالات الأخرى، انهم يقارنون بين الأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لفئات معينة من المسيحيين (عادة الفئات الميسورة)، وبين الأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية للفئات الفقيرة من المسلمين. والحقيقة ان مثل هذه المقارنة خاطئة من حيث المنطلق، فإذا أخذنا واقع التعليم عند ابناء البورجوازية السنية البيروتية نراه يشبه الى حد كبير واقعه عند البورجوازية المارونية مثلاً (غالباً ما يذهبون الى مدارس الارساليات، والى الجامعتين الأميركية واليسوعية).

وفي قريتين ريفيتين كبتدعي وفلاوي يلاحظ الأب سيكينغ [٢٩]، في مجال

مقارنة مستوى التعليم، بأن نقاط التشابه هي أكثر أهمية من نقاط الاختلاف بين السكان المسلمين والمسيحيين، فهناك:

١ — التعليم المعمم على الناشئة حالياً.

٢ — السرعة التي تم بها تعميم هذا التعليم رغم أن نسبة الأميين هي كبيرة لدى الأجيال السابقة، هذه الأجيال التي لم تكن أميتها نابعة من ارادة سيئة بقدر ما كانت مرتبطة بعدم القدرة على الذهاب الى المدرسة.

٣ — تزايد الأمية مع تزايد السن.

٤ — تزايد الأمية هو أكثر نسبة بين النساء منه بين الرجال.

وانطلاقاً من الدراسات الميدانية والجداول المقارنة التي قام بها الأب اليسوعي بين القريتين يستنتج:

١ — ان عدد التلاميذ في بتدعي هو أكثر منه في فلاوي (في تكميلية القرية). وعدد الطلاب في فلاوي أكثر منه في بتدعي في المرحلتين الثانوية والجامعية.

٢ — دار المعلمين والمدرسة المهنية ليس لها رواج كبير. فالتعليم التقني والحرفي لا يجذب القرويين الذين يفضلون نوعاً من «الوظيفة».

٣ — رغم بعض الفوارق، فالأوضاع في هاتين القريتين تتشابه كثيراً [٣٠].

٣ — في الجوانب المادية من الحضارة والثقافة:

اذا استثنينا بعض الميزات الجزئية، فإننا نلاحظ أن عادات الطعام، والملبس، وهندسة البيوت، والأدوات والآلات المستعملة، وكذلك وسائل النقل والسفر والمهن والصناعات، هي على تطابق وتشابه كبير بين المسيحيين والمسلمين. حتى ان عادة شرب «كأس العرق» متفشية بكثرة في الأوساط الاسلامية بالرغم من الحوائل الدينية المطروحة.

وفي مجال «آداب العيش» الأخرى كالمخالطة والمحادثة، فثمة تعابير مشتركة للتحية (الله معكم، السلام عليكم، مرحبا، صباح الخير، مساء الخير الخ...)، وهناك أنماط معينة من الأسئلة (كيف الصحة؟ كيف العيال؟ كيف الأحوال؟ انشاالله الصحة منيحة؟ الخ...). أما ظاهرة عدم اختلاط النساء بالزوار (وهي عادة موجودة في بعض الأوساط الدرزية والاسلامية) فهي على تراجع مع ازدياد ونمو الثقافة والتعليم. ولا يجب أن ننسى، مثلاً، ان عادة وضع الحجاب على الوجه عندالنساء المسلمات كانت شبه شاملة منذ نصف قرن وهي الآن تكاد لا تكون موجودة.

أما إذا تناولنا الجوانب المتصلة بالاقتصاد، وخاصة في مجالات الزراعة والتجارة والصناعة، فإننا نلاحظ، على المستوى التقني، فرقاً ضئيلاً جداً بين الفلاح الدرزي والفلاح الماروني في الجبل، أو بين الفلاح الشيعي والفلاح الكاثوليكي في البقاع. وكذلك في مجالي التجارة والصناعة، ومجال الحرف.

٤ — في قضية التمايز الديني:

لكي نكون موضوعيين لا بد من الاشارة الى أن ثمة تمايزاً في الطقوس الدينية بين المسيحيين والمسلمين، بل ان هناك تبايناً بين طقوس الطوائف المسيحية والطوائف الاسلامية. وهذا التباين ينعكس على بعض مظاهر السلوك الاجتماعي لدى الطوائف، وكذلك على الاتجاهات الايديولوجية لابناء تلك الطوائف. وهذه المظاهر المتباينة هي الارضية التي ينطلق منها منظرو التعددية الحضارية وطارحو مشروع الكانتونات.

لكن، نستطيع في هذا المجال ايراد الملاحظات التالية:

١ — لقد شدد الدكتور شارل مالك في كتابه «لبنان في ذاته» على أن التواجد الاسلامي المسيحي السمح والرائع هو من الخصائص التي اذا سقطت

زال لبنان. فهو يؤكد أن «مجالات التعاون والتفاهم بين المسلم والمسيحي في لبنان لا حد لها. يتعاونان ويتفاهمان في السياسة والمجتمع والعلم والفن والاقتصاد والمشاريع والحياة الواحدة العامة، في الخلق الأدبي والفكري، في الشؤون الأخلاقية، في هذه اللغة العربية، في كل ما يمت الى العقل والانسان والطبيعة، في الاسلامية الانسانية الممثلة في آيات من القرآن لا حصر لها، وفي التراث الفلسفي والصوفي الاسلامي. ويتعاونان ويتفاهمان كذلك في مجابهة مصير لبنان والعرب والشرق الأوسط معاً. وتوجد مجالات هامة كذلك للتفاهم حتى في بعض الشؤون العقائدية الدينية». ويضيف: «لذلك، فالتواجد الاسلامي المسيحي الحر السمح يميز لبنان تمييزاً تاماً عن غيره، وبدون هذا التواجد لا يوجد لبنان»[٣١].

أما الأستاذ جواد بولس فيؤكد، في كتابه «شعوب وحضارات الشرق الأدنى»، ان مسيحيي الشرق هم أقرب الى مواطنيهم المسلمين منهم الى اخوانهم في العقيدة الدينية في الغرب»[٣٢].

هذان التأكيدان من القطبين— المفكرين في الجبهة اللبنانية يناقضان الجوهر النظري والترجمة السياسية لمقولة التعددية الحضارية. فهل الحقائق الحضارية والتاريخية والسياسية تستند على العلم، أم أنها تتغير بين يوم وآخر مع تغير المواقف والأفكار المسبقة؟!

٢ — ان الانتماء الى مجموعة ثقافية أو اجتماعية، كطائفة في الشرق الأوسط والاثنية في افريقيا السوداء أو فرنسا (البريتون والأوكسيتان) أو جنوب شرق آسيا، لا يتناقض مع الانتماء الى شعب واحد وكيان سياسي موحد، ذلك أن مستويات الانتماء مختلفة ومتكاملة وليست متناقضة. ويمكن للإنسان مثلاً أن ينتمي، من ناحية جزء من تراثه وبعض عاداته المحلية وتقاليده أو روابطه الاجتماعية، الى البريتون أو الباسك أو البروتستانت (في منطقة السيفين في فرنسا) أو الهوسا والايبو في نيجيريا، كما ينتمي في الوقت نفسه، بصورة لا

ريب فيها ، الى الشعب الفرنسي أو الشعب النيجيري أو كيانهما السياسي . وعليه فشكل التنظيم ، أو شكل الدولة ، مرتبط بمستوى الانتماء الى شعب ، وليس الى الاجزاء الثقافية والاجتماعية المكونة لهذا الشعب .

٣ — انطلاقاً مما تقدم لا يمكن استنتاج شكل ما من التنظيم السياسي (مثلاً اللامركزية السياسية أو الكانتونات) لمجرد وجود مجموعات ثقافية واجتماعية داخل الشعب الواحد أو الكيان السياسي الواحد .

ان لدى معظم شعوب العالم ودوله مثل هذا التنوع الذي هو نتاج التاريخ والجغرافية وتلاحق الحضارات والثقافات المختلفة وتلاقحها . ودور القوى الحية هو أن تستطيع ، على قاعدة هذا الغنى التاريخي ، بناء صرح وحدتها المجتمعية والسياسية بما يؤمن تقدمها ونهضتها المادية والمعنوية .

LAU-Byblos Library

خاتمة

لقد كانت هذه الدراسة مقدمات أولية عرضنا فيها بعض النقاط التي تعطي البراهين الدامغة على تهافت مقومات التعددية الحضارية في لبنان. لكننا نسارع للتأكيد بأن ثمة تعددية من نوع آخر في مجتمعنا اللبناني ، وكذلك على امتداد شعوب المنطقة العربية :

— تعددية بين قوى تريد تحقيق الاستقلال والنهضة والتقدم العلمي ، وقوى تريد الابقاء على التبعية والركود والجهل .

— تعددية بين قوى تربط العروبة بمفاهيم تيوقراطية وعنصرية وسلفية ، وقوى تربط العروبة بالبعد العلماني وتصارع لأن يكون لبنان النموذج المستقبلي لما يمكن أن تتجه نحوه هذه العروبة .

— تعددية بين قوى ، باسم الثورية والتقدمية ، تركب موجات التطيف فتربط الطوائف بالطبقات ، وتسمي العنف الغريزي ثورة ، وقوى تنطلق من الفهم التاريخي والعلمي لتناقضات المجتمع ، وتصارع لأحداث التغيير الاجتماعي والسياسي الشامل ، وتسعى لبناء الانسان الثوري الجديد المتسلح بالعقل الجديد والقيم والمفاهيم الجديدة قبل التسلح بالبندقية .

— تعددية بين قوى تغفل عن الخطر الصهيوني فتتحالف معه ، أو قوى تخدم خططه ، من خلال تخلفها ولا عقلانيتها وعصبياتها الطائفية والعشائرية ،

وقوى تستوعب الخطر الصهيوني وتدرك ان الانتصار عليه يرتبط بأحداث التحولات الجذرية في مجتمعاتنا العربية ، فنهزم مقومات حضارتنا المتخلفة والراكدة في الوقت الذي نسعى فيه لانزال الهزيمة باسرائيل .

هذه هي التعددية التي نراها في لبنان وفي محيطه العربي . ومهما بدا الأفق الآني قاتماً ، ومهما بدت قوى التخلف والردة ومن وراءها بمظهر المنتصر ، فإن الغد لن يكون الا لقوى الوعي الديمقراطي العلماني في لبنان ، وعلى امتداد المنطقة العربية .

مراجع القسم الثالث

(١) في مقالة كتبها محلل العمل السياسي (جريدة العمل ، تاريخ ١٩/ ١٢/ ١٩٧٨) إشارة الى خطأ اعتماد الجبهة اللبنانية لمقولة التعددية الحضارية ، والتزام بوجود حضارة عربية متوسطية .

(٢) Encyclopédie Universalis, V. 6. p. 675.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٧٥ .

(٤) G. Wissler, Man and culture, p. 74 - 75.

(٥) قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ، ص ١٤ .

(٦) Encyclopédie Universalis, V. 4, p. 586.

(٧) لقد اعتمدنا في هذا العرض لمقومات الحضارة على كتاب قسطنطين زريق : في معركة الحضارة ، ص ٨٩ — ٩٥.

(٨) راجع مجلة الوعي ، وثائق المؤتمر العام السابع ١٩٧٧ ، ص ٥٧ .

(٩) شارل مالك ، لبنان في ذاته ، مطبعة بدران ، ص ٥٦ . والطريف أن الدكتور مالك هو من كبار المنظرين للتعددية الحضارية .

(١٠) المرجع نفسه ، ص ٥٧ .

(١١)
- R. Gresswell, Parenté et propriété foncière dans la montagne libanaise (Etudes rurales), 1970. N° 40, p. 1 - 79.
- Dominique Chevallier, la société du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe, Paris, 1971, p. 67 - 68.

(١٢) Mgr. M. Feghali, La famille Maronité auLiban, p. 11.

(١٣) Thom Sicking, Réligion et développement, Etude comparative d'un village maronite et d'un village musulman - Chiite au Liban, thèse pour le doctorat en sociologie, Paris, V, 1977, p. 101.

(١٤) المرجع نفسه ، ص ٣ .

(١٥) المرجع نفسه ، ص ١٠٥ .

(١٦) Jérôme Dandini, voyage au MOnt-Liban, traduit de l'italien par le père Richard Simon, p, 124.

(١٧) Elias Kattar, recherches sur la société de la montagne libanaise à l'époque des Momelouks thèse, Paris, IV, 1977, p. 190.

(١٨) كرسويل . المرجع السابق .

(١٩) توم سيكينغ . المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

(٢٠) المرجع نفسه . ص ١٠٧ .

(٢١) المرجع نفسه . ص ١٦٠ .

(٢٢) Camille Chamoun, crise au moyen-orient, 1936, p. 77.

(٢٣) كرسويل . المرجع السابق . ص ٤٨ .

(٢٤) اسطفان الدويهي . تاريخ الأزمنة ، نشر فردينان توتل ، ص ٢٥٠ .

(٢٥) كرسويل . المرجع السابق . ص ٥٠ — ج. غوليك ، البنية الاجتماعية والتغيير الثقافي في بلدة لبنانية . نيويورك ١٩٥٥ . ص ١٣٠ .

(٢٦) كرسويل . المرجع السابق . ص ٥٠ .

(٢٧) المرجع نفسه . ص ٥٢ .

- J. berque et J.P. Chanay, l'ambivalence dans la culture arabe. Paris. 1967.

(٢٨) توم سيكينغ . المرجع السابق . ص ٧٤ .

(٢٩) المرجع نفسه . ص ٧٩ .

(٣٠) المرجع نفسه . ص ٨٢ .

(٣١) شارل مالك . لبنان في ذاته ، مطبعة بدران ، ص ٢٤ .

(٣٢) "Dans ce domaine du sentiment religieux, on pourrait affirmer que les chrétiens orientaux sont plus près de leurs congénères musulmans d'orient que de leurs (coréligionnaires) d'occident".
(Les peuples et les civilisations du proche-orient, t. IV, p. 360).

الإيديولوجية الطائفية* و النظرة الى التاريخ اللبناني

* محاضرة ألقيت بدعوة من «الديمقراطيين العلمانيين» بتاريخ ١١ نيسان ١٩٧٩.

تمهيد

ان المتتبع للانتاج الفكري، في لبنان، خلال السنوات الأخيرة، يلاحظ كثافة ملموسة في الانتاج التاريخي. وهذا أمر ليس بغريب، ففترات الحروب، لا سيما الداخلية منها، تشكل حافزاً أساسياً للاهتمام بالتاريخ تأليفاً وقراءة. ذلك ان الكتابة التاريخية — والى حد ما المطالعة التاريخية — ترتبط بمسار الصراع التي يعيشه المجتمع في مثل هذه الظروف.

ولما كنا معنيين بالبعد السلمي للصراع الدائر في وطننا،

وانطلاقاً من خطورة الدعوات التي أخذت تتلبس «الحقائق التاريخية الماضية» — على حد تعبيرها — للوصول الى تحقيق أهدافها واستراتيجياتها، بالنسبة الى واقع الوطن ومستقبله،

والتزاماً منا بالمنهج العلمي والعقلاني الذي يسعى، في بعده السياسي، إلى ترسيخ المجتمع والدولة في لبنان على أسس الديمقراطية المتكاملة المضامين والعلمانية الشاملة، ويجهد، في بعده الأكاديمي، الى المساهمة في نقل كتابة التاريخ الى آفاق العلم والموضوعية.

وجدنا من الضروري معالجة موضوع «الايديولوجيا الطائفية والنظرة الى التاريخ اللبناني». وفي هذا السياق سنركز على النقطتين التاليتين:

LAU-Byblos Library

أ— الايديولوجيا وتأثيرها في الكتابة التاريخية.

ب— تجليات الأيديولوجيا الطائفية (المارونية والاسلامية) في مؤلف الأب بطرس ضو «تاريخ الموارنة» — بشكل رئيسي، ومؤلف الدكتور وجيه كوثراني «الاتجاهات الاجتماعية— السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠— ١٩٢٠».

بيد أن من الواجب علينا أن نورد **بعض الملاحظات** التي نعتبرها أساسية:

١— لا بد من الاقرار بأن كلاً من الأب ضو والدكتور كوثراني قد بذل جهداً بحثياً واضحاً علينا أن نشير اليه—، وبالتالي أن نبدي تقديرنا له.

٢— ان انتقاءنا لهما لا يعني عدم وجود العدد الكبير غيرهما من المشتغلين في التاريخ— ومن مختلف الطوائف— والمتأثرين بالأيديولوجيا الطائفية.

إن تأثير الأيديولوجيا الطائفية على المؤلف التاريخي لا تأتي دائماً— وبالضرورة— نتيجة تخطيط ارادي مسبق. فالحقيقة الراهنة ان الثقافة الطائفية السائدة تترك بصماتها الواضحة في لاوعي المؤرخ، ومن الممكن، بعمل ارادي واع، تخطيها واعتماد المنهجية العلمية الصحيحة.

٤— ان المرحلة الحاضرة تتطلب قيام جهد تاريخي جماعي منظم ومدروس يسعى الى اعادة النظر في كتابة تاريخ لبنان وبيئته العربية. ولعل في قيام الجمعية التاريخية اللبنانية، التي يمكن أن تضم مؤرخين من مختلف المواقع الفكرية والسياسية ويجمعهم الالتزام بالعلم والتصدي للايديولوجيا الطائفية، خير سبيل للوصول الى هذا الهدف.

القسم الأول

الأيديولوجيا الطائفية والبحث التاريخي

LAU-Byblos Library

ان **تحديد الأيديولوجيا** هو موضوع بالغ التعقيد والتشعب . ولكن ، حسبنا ، في حدود هذه الدراسة ، ان نورد تحديداً نراه الأكثر دقة : «الأيديولوجية هي نظام من أفكار اجتماعية ، يرتبط بمصلحة جماعة معينة ، ويشكل أساساً لتحديد أو تبرير فاعليتها الاجتماعية ، في مرحلة تاريخية معينة»[1] .

أما أهم **خصائص الأيديولوجيا الطائفية** فيمكن اختصارها بالنقاط التالية :

— انها تتمحور حول مصلحة الطائفة أو ما تتوهم أنه مصلحتها .

— انها أيديولوجية دفاعية هجومية في آن : دفاعية من حيث انها تسعى للدفاع عن واقع الطائفة وعن أهدافها ، كما تسعى الى تبرير السلوك الفردي والجماعي لأبناء الطائفة ، وترد الاتهامات الموجهة اليها . وهجومية اذ تحاول دائماً أن تستجلي مكامن الضعف عند الخصم — والخصم يكون في العادة طائفة أخرى أو جماعة اجتماعية خارجة على منطلق الانتظام الطائفي — وتنزل بهذا الخصم ما في وسعها من التهشيم القائم على الكره الشديد .

— انها لا تقوم على المرتكزات العقلانية ، بل ، على العكس ، تقوم على الأفكار المسبقة والتعصب المغلق ، انها سبب للتعصب ونتيجة له .

— انها ذات طابع عنصري على نحو ما . فكل أبناء الطائفة ، من حيث المبدأ ، في نظرها ، متفوقون على الاخرين . الانسان ، في منطقها ، ليس محترماً كإنسان ولا يحق له أن يكون حراً اذا ما تصورت أن حريته تهدد مصلحة الطائفة .

— انها قمعية تصل بها انغلاقيتها الى حد التصفية الجسدية للآخر، أكان هذا الآخر من طائفة أخرى أم كان من «الخوارج» على منطق الطائفة.

والايديولوجية الطائفية هي أيديولوجية لا وطنية. فهي ان تكلمت عن الوطن أو دافعت عنه فإنما تتكلم عن وطن الطائفة ودفاعها يكون عن أرض الطائفة.

وهي تكرس التراتبية في الطائفة فهناك أبناء «المشايخ» و«الأعيان» وهناك «البطريرك» و«المفتي»، فما على الناس العاديين سوى الانتظام وراء «وجوه الطائفة».

والأيديولوجية الطائفية، الى ذلك، تحاول دائماً أن تكرس هيمنتها على كافة مؤسسات المجتمع، خاصة العائلة والمدرسة والنظام السياسي، كما أنها تستعين بعلوم مساعدة لترسيخ جذورها، ومنها وسائل الاعلام والعلوم الانسانية وبخاصة التاريخ.

فما هو دور الايديولوجية في توجيه البحث التاريخي؟

البحث التاريخي في أحداث الماضي، من وجهة الفكر الايديولوجي، هو أمر بالغ الأهمية، باعتبار أن الجماعة الطائفية توظفه لترسيخ كيانها وتحقيق غاياتها، انها لا تتوسله من أجل المعرفة العلمية المجردة، بل انها تحدب عليه بقدر ما يخدم مصالحها ويقوي شوكتها.

التوجيه الايديولوجي، في مجال البحث التاريخي، يؤدي، بالضرورة، الى الموضوعية المجزوءة، بل الى الانحياز والشطط. فالحاضر، في هذه الحالة، هو الذي يوجه الماضي، وهو الذي يتحكم بمساره. ويظهر هذا التحكم في عمليات الاسقاط والتبرير والتقييم.

فالايديولوجية الطائفية تتلاعب بمعطيات المكان والزمان، وتربط الماضي

بالحاضر، وتجمد، في بعض الأحيان، الأحداث التاريخية، وتنظر الى التاريخ نظرة سكونية ومثالية جامدة. وهي، اذ تنطلق من نتيجة رسمتها سلفاً، تسعى، تحت ستار العلم والتجرد، الى انتقاء وقائع وأحداث ومواقف تصب في خدمة الطائفة وما تتخذه هذه الطائفة في الظرف الراهن من مواقف واتجاهات.

وعلى مستوى آخر، الاحداث التاريخية، تحت وطأة التأثير الايديولوجي، لا تبقى أحداثاً هامشية، سكونية حيادية. «انها — كما يقول الدكتور ناصيف نصار — أحداث تتكلم، تخاطب الحاضر، تؤيد أو تعارض، تساعد أو تعرقل، تستثير الاستحسان والحماس أو الكراهية والنفور، تدخل في عداد الأمجاد التي يمكن المفاخرة بها أو في عداد الاحداث التي يؤسف لها. انها تحمل مؤشرات وعلامات تدل على قيمتها بالنسبة الى الحاضر وتفصح عن معناها بالنسبة الى المجرى الحالي للتاريخ»[2].

النظرة الأيديولوجية الطائفية الى التاريخ تسعى، من خلال استقراء وقائع الماضي واستعراضها، لا الى المعرفة المجردة، ولكن في سبيل التوكيد على مصلحة الطائفة وتعزيز ايمانها بحقها في السيطرة والتفوق، بل في سبيل تعميق ثقتها بهويتها المميزة وقدرتها على مجابهة كافة التحديات المطروحة من قبل القوى الاخرى المهددة لكيانها.

بينما يسعى العلم التاريخي الموضوعي الى الوصول الى المعرفة والحقيقة بحد ذاتها. والموضوعية هي، في هذه الحالة، اعتبار نسبي، ومن هذه الناحية يفترق علم التاريخ — الذي هو علم انساني — عن العلوم الوضعية الاخرى كالرياضيات والكيمياء والعلوم الطبيعية.

ولما كانت الأيديولوجية الطائفية تستمد جذورها من بنية الفكر الديني التعصبي، ولما كانت الايديولوجيا الدينية بمظهرها الأكثر انغلاقاً هي السائدة في القرون الوسطى — على مستوى المجتمع وعلى مستوى الدولة، فمن الطبيعي ان يكون الانتاج الفكري عامة، بما فيه الكتابة التأريخية، ذا صفة دينية وطائفية.

من هنا، **التأريخ الطائفي في لبنان** ليس ظاهرة معاصرة، فهو يعود الى القرن الخامس عشر، وبالذات الى الأسقف الماروني ابن القلاعي اللحفدي، الذي كتب الكثير من الاشعار الزجلية التي تتغنى بتاريخ الطائفة المارونية، وبعلاقاتها بالكرسي الرسولي، وبتمجيد مآثر شجعانها. وتبعه في القرن السابع عشر البطريرك اسطفان الدويهي في كتابيه: «تاريخ الأزمنة» و«تاريخ الطائفة المارونية»، وقد أصبح الدويهي مدرسة في التأريخ الطائفي سيقتدي بها الكثيرون من المؤرخين فيما بعد.

وفي موازاة المدرسة المارونية في التأريخ — اذا صح التعبير — برزت مدرسة درزية تمثلت في كتابات صالح بن يحيى (توفي في أواسط القرن الخامس عشر)، وابن سباط (توفي عام ١٥٢٣)[٣].

وما هو جدير بالملاحظة ان هناك تطوراً واضحاً: فمن تأريخ ديني متزمت مع ابن القلاعي — الذي كتب زجلياته في عهد المماليك — الى تأريخ ديني مرن مع البطريرك الدويهي منفتح على باقي الطوائف. والأخير كتب تاريخه في فترة خروج الموارنة من عزلتهم في شمال لبنان، وانتشارهم في كسروان والمتن، ومشاركتهم السياسية في عهد فخر الدين.

ومع طنوس الشدياق، في «تاريخ الأعيان في جبل لبنان»، اتجاه الى التأريخ «العلماني» على حساب التأريخ الاكليركي السابق. علماً أن كتابات ابن سباط وصالح بن يحيى تدور على عائلات الأعيان وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أكثر مما تدور على الشأن الديني.

وفي موازاة النشاط التاريخي المبكر عند الدروز والموارنة، فقد قامت، عند الطوائف الأخرى في لبنان، محاولات لكتابة التاريخ الطائفي والوطني. ويمكن في هذا المجال ايراد عشرات الأسماء من كل طائفة[٤] برزوا في هذا المجال. كما يجدر بنا أن نشير الى أهمية الكتابات التاريخية للعديد من الباحثين الأجانب، وخاصة الفرنسيين، الذين أثروا ولا شك على مسار الكتابة التاريخية في بلادنا.

LAU-Byblos Library

وما يهمنا أخيراً أن نقوله في هذا المجال:

١ — ان الكتابات التاريخية اتخذت في أغلبيتها الطابع الطائفي لأن الايديولوجيا السائدة في المجتمع هي ايديولوجيا طائفية.

٢ — لسنا في وارد الزعم ان كل الذين كتبوا تواريخ الطوائف انما كانوا يهدفون الى التحريض الطائفي، أو أننا ندين كل ما قاموا به من جهد.

٣ — بل اننا نقول أن على كل كتابة تاريخية علمية عن تاريخ لبنان أن لا تتجاهل البنية الاجتماعية الطائفية وآلية تطورها، وان لا تغرق في النظر الى تطور المجتمع اللبناني من منظار الصراع الطبقي فحسب.

٤ — اننا نسجل قصور الأحزاب والقوى الماركسية باعتبار أنها لم تول التأليف التاريخي الأهمية اللازمة الا في الفترة المتأخرة جداً.

هوامش

(١) ناصيف نصار، طريق الاستقلال الفلسفي، دار الطليعة ١٩٧٥، ص ٥٢.

(٢) ناصيف نصار، مقالة في النظرة الايديولوجية الى التاريخ، مجلة «الباحث» — باريس، العدد ٧، تموز وآب ١٩٧٩، ص ٢٣.

(٣) كمال الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، منشورات كارافان ١٩٧٩، توزيع مكتبة رأس بيروت، ص ١٩ و٢٠ و٢١.

(٤) راجع: مسعود ضاهر، الطائفية والمنهج في دراسة تاريخ لبنان الحديث والمعاصر، مجلة «الفكر العربي»، معهد الانماء العربي — بيروت، عدد ٢، تموز آب ١٩٧٨، ص ٧٠ — ١٠٣.

القسم الثاني

تجليات الأيديولوجيا الطائفية في مؤلفي الأب بطرس ضو والدكتور وجيه كوثراني

الفصل الأول

الأب بطرس ضو وموسوعته عن تاريخ الموارنة

منذ ١٩٧٠ أصدر الأب بطرس ضو سلسلة من الكتب (بلغت حتى الآن خمسة) بعنوان «تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري». ولم يعرض في أي من الاجزاء بشكل مفصل المنهج الذي اعتمده، اللهم الا إذا اعتبرنا مقدمة الكتاب الأول[1] عرضاً لمنهجيته في صفحتين، وأبرز ما جاء فيهما: «توخينا الواقعية في سرد الأحداث وايراد الوثائق والنصوص، واضعين نصب اعيننا الحقيقة المجردة، ساعين الى النظر الى الموضوع من كافة نواحيه وزواياه، شاملين بالبحث مختلف عناصر القضية، عاملين على ابراز جوهر القوة المسيّرة للتاريخ الماروني». هذا ولم يفسر عدم تطرقه للتاريخ الاجتماعي والاقتصادي للموارنة، كما أنه لم يحاول أن يفسر أسباب كتابته لتاريخ طائفة واحدة من طوائف الوطن اللبناني.

الكتاب الأول مخصص لدراسة نشأة مار مارون (عصره وحياته وتلامذته والدير الذي عاش فيه، ثم المارونية في مرحلتها الأولى (٤٠٠ م حتى ٧٠٠م) وعلاقة الموارنة بالمردة، وأخيراً نشأة البطريركية المارونية.

والكتاب الثاني مخصص لدراسة الكنائس المارونية القديمة في سوريا، من

مار مارون الى القرن السابع . أما الكنائس المارونية في لبنان ، من القرن السابع حتى أيامنا هذه ، فقد وعد المؤلف بأن تكون موضوع الجزء الثالث[٢] .

وفي عام ١٩٧٦ ظهر الكتاب الثالث وهو بعنوان «الوجه العسكري الماروني» ، يعالج في قسمه الأول الوجه العسكري عند أجداد الموارنة (الفينيقيين والآراميين والكنعانيين والمردة) ، ثم يتطرق في الأقسام اللاحقة الى الوجه العسكري الماروني من عام ٦٣٦ الى ١٣٦٧[٣] .

وفي الكتاب الرابع الذي صدر عام ١٩٧٧ يعالج الأوضاع السياسية والعسكرية من عام ١٣٦٦ حتى عام ١٨٤٠[٤] .

والكتاب الخامس صدر منذ أسابيع وهو يتناول دور المرأة في الكفاح الماروني عبر الأجيال[٥] .

ولقد أطلعنا على محاضرة ألقاها الأب ضو في بعبدا بتاريخ ٨ شباط ١٩٧٧ بمناسبة عيد مار مارون ، وهي بعنوان «موارنة الغد على ضوء تاريخهم» ، وسوف نعتمد عليها أيضاً في تبيان الخلفية التي تسيّر تحليله .

في مناقشتنا لانتاج الأب ضو سنتوقف عند سؤالين فقط :

الأول : ما هي المرتكزات التي تصب في خدمة الايديولوجيا الطائفية والتي يمكننا استشفافها من مؤلفاته ؟

الثاني : كيف أثرت الايديولوجيا الطائفية على الأب ضو كمؤرخ؟

* * *

— ١ —

ما هي المرتكزات التي تصب في خدمة الايديولوجيا الطائفية والتي يمكن استشفافها من مؤلفات الأب ضو؟

أولاً — الموقف من العرب والعروبة :

يقف الأب ضو موقفاً حازماً في عدائه للعروبة ، فهي التنين الشرس وهي البداوة وهي الصحراء وهي الخراب ولا مجال معها لحل وسط :

«أيها اللبنانيات واللبنانيون نحن من الأمة اللبنانية العظيمة التي اعتبر العالم فتاتها زهرة الحكمة الالهية وعبدوها شعاعاً منبثقاً من العقل الالهي .

«ولسنا من أمة تقول «المرأة شر كلها» .

«ما فلسفة الشؤم هذه؟ كيف نلتصق بأمة هذه عقيدتها ؟

«انبذوا الشر الدخيل وتمسكوا بأصلكم السامي وارفعوا بقوة مشعل رسالتكم وأنيروا العالم من جديد . بددوا ظلمات الصحراء وحولوا قحطها الى أزدهار حضاري ...

«يا بني لبنان ، كونوا لبنانيين لا عربا ،

أرذلوا همجية الصحراء ، احذروا أن تمسكم بظلماتها ، مزقوا ليلها بسهام نوركم ، تغلبوا على طغيانها بقوة عقلكم العظيم ، اخصبوا جاهليتها بحضارتكم ، لقحوا وثنيتها بكنوز رسالتكم»[٦] .

ويقول أيضاً[٧] :

«هذا يفسر لماذا كان هؤلاء الاعراب في أيام فخر الدين ولا يزالون الى الآن مصدر قلق وازعاج وتخريب وفوضى للبلاد اللبنانية وحضارتها ...»

ويستخلص ويعطي عبرة :

«أراد الأعاريب لبنان في ميدان الخراب والجهل والفساد مكراً ومفرا، فاراده فخر الدين والموارنة للحضارة والعمران مقراً وممراً، وبوجههم سداً منيعاً مشمخراً.

«ولن يسلم لبنان ما لم يتطهر من جرثومة الفوضى والدمار وحاملي لواء البداوة والبوار».

ثم ان العرب والعروبة مرتبطان، في ذهن الأب ضو، بالاسلام : «وأثبتت الوقائع، منذ ١٩٤٣ الى الآن، ان العروبة ليست أفضل من العثمانية على الاطلاق. بالواقع ان الدولة العربية الراشدية، فالأموية، فالعباسية، والدولة الايوبية، والدولة المملوكية، والدولة العثمانية، ومجموعة الدول العربية حالياً، هي كلها أشكال متنوعة ومتعاقبة لجوهر واحد هو الحكم الاسلامي»[٨].

ثم يؤكد : «العروبة تعني لا نظرياً ولكن واقعياً الاسلام»[٩].

والعرب يعودون — في رأيه — الى مرحلة ما قبل التاريخ خاصة عندما تثور فيهم غريزة البداوة : «فعندما تثور غريزة البداوة عند هذه الجماعة تتبدد الغشاوة ويتضح جوهر هؤلاء الناس ويظهرون على حقيقتهم بشراً لا يزالون في المرحلة السابقة لظهور الانسان العاقل، التي مر فيها البشر قبل بلوغهم الرشد العقلي منذ نحو مليون ونصف من السنين»[١٠].

ثانياً — الموارنة من أصل غير عربي :

على الرغم من أن العلوم الحديثة تحجم عن الجزم في أية حقيقة تتصل بأصل أي شعب من الشعوب، وبالتالي يسود اعتقاد بأن ثمة تمازجاً بين الاعراق والأصول الاثنية بحيث لا يمكن معه الجزم واعطاء الوقائع النهائية[١١]، على الرغم من ذلك فإن الأب ضو يؤكد أن «الشعب الماروني هو الشعب اللبناني الفينيقي الذي استوطن لبنان جبلاً وسهلاً وساحلاً منذ آلاف وعشرات آلاف السنين قبل المسيح»، «والموارنة اسم أطلق على الشعب اللبناني الفينيقي لاتباعه تلامذة مار مارون وتمذهبه بمذهبهم[١٢]».

ولكنه يعود، بعد صفحتين من هذا الحكم المانع القاطع، فيناقض نفسه ويقول : «ومن أبرز منجزات الرسالة المارونية منذ الفتح العربي مورنة عشائر وأسر عديدة عربية وغير عربية. وأشهر هذه الأسر التي تمورنت أسرة الأمراء الشهابيين وأسرة ألأمراء اللمعيين»[١٣]. «ومن الذين تنصروا آل حرفوش الشيعيو الأصل وآل الهاشم في العاقورا وغيرهم»[١٤]. وفي ص ٣٢٥ — ٣٢٦، حول أصل أهل تنورين، يورد الأب ضو وثيقة تشير الى «أن جد أهالي تنورين هو بغدادي انتقل من بغداد الى حلب، ورحل احفاده الى الشام ثم الى لبنان. فعيال تنورين مرجعها الى أصل واحد»[١٥].

ثالثاً — العداء للاسلام :

لا شك أن الأيديولوجية الموجهة للأب ضو، في كتابته التاريخية، هي ايديولوجية دينية تعصبية ولا شك ان الظروف السياسية التي اكتنفت الوضع النفسي للمؤلف أملت عليه الحدة في عرض العلاقات التاريخية التي قامت بين المسلمين والموارنة منذ الأمويين حتى اليوم.

ويحاول الأب ضو دائماً، في عرضه للأحداث التاريخية، ان لا يفصل بين

الدين الاسلامي وعقائده وبين ممارسات بعض المسلمين في الفترة التي يدرسها ، خاصة فترة المماليك . ثم لا يحاول أن يرى الترابط بين موقف المسيحيين عامة والموارنة خاصة من الصليبيين (أي التنسيق العسكري والسياسي الذي قام بينهم) وردة الفعل الاسلامية الاضطهادية[١٦] .

ومن ناحية أخرى ، يشدد الأب ضو على الشروط العمرية وعلى مفهوم أهل الملة وأهل الذمة في الاسلام ، محاولاً أن يقيم الاسلام من خلال المفاهيم المعاصرة في الحرية والديمقراطية :

« الاسلام يميز بين المسلم والذمي على الصعيد السياسي والمدني والاجتماعي . والذمي لا حق له في الحياة أصلاً ولكن يسمح له بالاحتفاظ بالحياة لقاء الجزية . والحقوق التي تُقرها شرعة حقوق الانسان وكل الدساتير الحديثة لا يقرها الشرع الاسلامي للذمي كما هو معروف وخاصة حرية الضمير والعبادة وغير ذلك مما يطول شرحه .

« وهذا التمييز بين المسلم والذمي أو المؤمن والكافر مع ما يتبعه من الطبقية والحرمان الذي أشرنا اليه بالنسبة الى الذمي نابع لا من أنظمة وقوانين بشرية المصدر يمكن اصلاحها وتعديلها ولكن من نصوص قرآنية لها قدسية الوحي بنظر المسلمين ولا يجوز مسها بأي شكل من الأشكال . هذا التشريع ، الالهي الأصل حسب اعتقادهم ، أدى على مر الأجيال الى تصفية المسيحيين في البلدان التي تغلب عليها العرب والدول الاسلامية كسوريا وآسيا الصغرى والعراق ومصر وافريقيا الشمالية وغيرها . ومن ضمن خطط شطر كبير من العرب والمسلمين في الوقت الحاضر تصفية المسيحيين في لبنان وخاصة الموارنة »[١٧] .

رابعاً — الموارنة أمة ولبنان وطن قومي ماروني :

يعتبر الأب ضو أن الموارنة يشكلون أمة وأن « الأمة المارونية » أمة عريقة الجذور في التاريخ ، انها أمة مناضلة ، تحمل رسالة مقدسة ، وتأبى الذل

والخنوع . وفي مجال تعريفه للأمة يقول[١٨] : « استكملت الأمة المارونية عناصر وجودها وكيانها الذاتي وملامحها منذ النصف الثاني من الجيل السابع للميلاد ، والأمة بمعناها الكامل تعني أربعة عناصر رئيسية : أرض ، وشعب ، وحضارة ، وكيان سياسي مستقل . والأرض المستقر النهائي للأمة المارونية هي لبنان » .

وبعد أن يستعرض الأب ضو ما مر على الموارنة من صيغ سياسية خلال ألف وثلاثمائة سنة من تاريخهم (فترة الوطن القومي الماروني من ٦٧٨ حتى ١٣٦٧ — فترة الفدرالية من عهد الامارتين المعنية والشهابية حتى ١٨٤٠ — فترة التقسيم في عهد القائمقاميتين من ١٨٤١ حتى ١٨٦٠ — لبنان المصغر من ١٨٦٠ حتى ١٩١٨ — صيغة التعايش المرتكزة على ميثاق ١٩٤٣)[١٩] ، يخرج باستنتاج أساسي : « من المقابلة بين مختلف العهود التي اختبرها الموارنة طوال ١٣٠٠ سنة يتضح ان عهد الوطن القومي الماروني المستقل عن الدول الاسلامية عربية كانت أم غير عربية هو العهد الذهبي الأمثل »[٢٠] . ومن هنا « يجب أن يكون هدفنا اعادة استقلالنا التام الناجز عن الدولة الاسلامية الممثلة الان بالعروبة أو المجموعة العربية »[٢١] .

ملاحظات أولية

تكاد تكون المرتكزات التي ينطلق منها الأب ضو هي ذاتها ، تقريباً ، المرتكزات التي تقوم عليها أيديولوجيا الجبهة اللبنانية وأغلب باحثي الكسليك ، وهي المرتكزات التي أوصلت الجبهة اللبنانية الى رفع شعاري « التعددية الحضارية » ، و« اللامركزية السياسية » ، وما الى ذلك ...[٢٢] . وحسبنا الآن ايراد بعض الملاحظات الأساسية :

أولاً — بالنسبة الى موقفه من الاسلام :

على الرغم من موافقتنا على أن ثمة تيارات دينية اسلامية متزمتة ، تفهم

الاسلام ديناً ودنيا ، وترفض اعادة النظر في العديد من المسلمات ، كما ترفض اعادة تفسير القرآن على ضوء حاجات الانسان المعاصر بحيث يتكيف التفسير الديني مع نوع من أنواع العلمانية ، على الرغم من ذلك هناك تيارات مجددة في الفكر الديني تتقبل التوجهات العلمانية ، ومن رواد هذه التيارات : الشيخ الازهري علي عبد الرازق وأخوه مصطفى ، والشيخ خالد محمد خالد ، والاستاذ محمود العنابي ، والدكتور حسن صعب ، والدكتور بشير بيلاني ، والدكتور محمد أركون ، والاستاذ سامي الشقيفي ، والأستاذ باسم الجسر ، والدكاترة محمد زهدي يكن ، وزكريا النصولي ، وبهيج طباره ، وغالب محمصاني ، ومحمد زكي النقاش ، ومحمد المغربي ، وعبد العزيز قباني ، وأسامة فاخوري ، وغيرهم العشرات [٢٣] بل المئات من التيارات والأشخاص والقوى المجددة .

وعلى صعيد آخر نسجل على الأب ضو عدة ملاحظات :

١ — خلطه بين العقيدة الدينية والناس الذين يطبقونها في فترة تاريخية معينة .

٢ — نظرته الى الدين الاسلامي وكأنه في تفسيره وتطبيقاته سيبقى محمداً الى ما لا نهاية .

٣ — عدم الأخذ بعين الاعتبار ان الدين يتطور مع تطور المجتمعات. فالمسيحية في القرون الوسطى ، من خلال بعض تطبيقاتها ، أدت الى حروب دينية ضارية (بين الكاثوليكية والبروتستانتية) ولكنها تطورت فيما بعد مع تطور المجتمعات الغربية .

على كل حال ، ان التحدي ما زال مطروحاً في المجتمعات الاسلامية ، وهناك صراع مستمر بين قوى التجديد العقلانية والعلمانية من جهة وقوى السلفية والتحجر والردات المناقضة لتطور حركة التاريخ من جهة أخرى . من هنا ، لا يمكننا تبسيط الأحكام واطلاقها جزافاً من موقع التعصب ، وما هو مأمول أن

تقوم ثورة في الفكر الديني الاسلامي في موازاة الثورات السياسية والاجتماعية والثقافية ، بحيث تتمكن المجتمعات ذات الأكثريات الاسلامية من بناء تجاربها الديمقراطية العلمانية الشعبية من ضمن خصوصياتها التراثية والذاتية ، فتكون بذلك قد استجابت لتحديات التخلف الداخلي وقوى الهيمنة والاستعمار الخارجية .

ثانياً— حول موقفه من العروبة والعرب :

يطلق الأب ضو التهم الجماعية بحق العرب ، دون الاشارة الى أن هناك عرباً عقلانيين وهناك عرباً تعصبيين . ثم انه يربط العروبة بالاسلام بشكل مطلق . واذ نقر نحن بوجود تيارات اجتماعية وفكرية وسياسية تذهب هذا المذهب ، الا أن هناك العديد من التيارات السياسية والاجتماعية والفكرية —الاسلامية والمسيحية— التي تفصل بين العروبة والاسلام . ولا ننسى في هذا المجال دور مسيحيي لبنان— بل الموارنة— في اطلاق هذا التيار عند بدء النهضة العربية الحديثة ، ومن رواد الدعوة العربية ، على سبيل المثال لا الحصر ، المعلم بطرس البستاني وابراهيم اليازجي وشبلي شميل وفرح انطون وجرجي زيدان ونجيب عازوري وأمين الريحاني وأسعد داغر وخيرالله خير الله وقسطنطين زريق ... [٢٤] .

وعندما يقرر الأب ضو ان الموارنة ليسوا عرباً فما هي البراهين التي أوصلته الى هذا الاستنتاج ؟

يبدو أن الأب ضو ، من خلال عدة نصوص ، يفهم كلمة عرب بالمعنى العرقي أو بمعنى البدو . فعلى هذا المستوى ، لا نعتقد أن هناك أي شعب في العالم يستطيع — على الصعيد العرقي — أن يبرهن على نقاوة عرقه أو انتمائه الى أصول معينة [٢٥] .

ونخال ان الذين يذهبون الى القول بأن الطائفة المارونية والطوائف اللبنانية الاخرى تشكّل جزءاً من العالم العربي ، انما ينطلقون في ذلك من الواقع

الحضاري والثقافي — بالمعنى الانتروبولوجي الواسع — لهذه الطوائف بالمقارنة مع خصائص البيئة الحضارية والثقافية العربية. كما أن القول بأن لبنان عربي بكل طوائفه لا يعني عدم التأكيد بوجود خصائص ذاتية ومميزات معينة تميزه مثلاً عن المغرب أو اليمن أو العراق، أو حتى وجود بعض الخصائص الجزئية التي تميز بعض طوائفه عن بعضها الآخر.

لقد صدرت، في السنوات الأخيرة، دراسات اجتماعية وتاريخية ولغوية حول خصائص الثقافة اللبنانية — بمعناها الانتروبولوجي — ومدى ترابطها أو تباعدها عن خصائص الثقافة العربية، ولقد بينت مجمل هذه الدراسات تطابق التنظيم الاجتماعي القائم في لبنان — عند المسيحيين والمسلمين — مع التنظيم الاجتماعي القائم في بيئته العربية.

فالعلماء الذين درسوا الزواج عند المسيحيين الشرقيين عامة والموارنة خاصة لاحظوا مدى التشابه في العادات بين المسيحيين والمسلمين العرب[٢٦]، وخاصة عادة الزواج بين الأقارب.

وهناك سلطة الأب التي تشير الى أن مجتمعاتنا تعتمد الابوة أساساً[٢٧].

وهناك الانقسام العشائري الثنائي بين عرب الشمال وعرب الجنوب وهو نسق ثابت في البلدان ذات الثقافة العربية. هذا الانقسام نلاحظه بوضوح في تاريخ العائلات المارونية في العصر الوسيط، من خلال الصراعات المستمرة بين القيسية واليمنية[٢٨]، وفيما بعد من خلال اليزبكية والجنبلاطية[٢٩]، ومؤخراً في فترة الانتداب كان التنافس قائماً بين الكتلة الدستورية والكتلة الوطنية، وحالياً ثمة استقطاب ثنائي للموارنة، بشكل رئيسي، بين الكتائب والأحرار.

ثم هناك نظام القرابة. فكرسويل يؤكد أن نظام القرابة في بقسميا (المارونية) هو نظام البدو التقليدي، وعباراته هي العبارات المستخدمة في كل البلدان الناطقة بالعربية[٣٠].

ثم هناك اللغة العربية، التي أغناها اللبنانيون، ولا سيما المسيحيون منهم، بالشعر والصحافة والعلوم والمعاجم وكافة ألوان الأدب، وهي تشكل عاملاً أساسياً من عوامل الترابط الحضاري بين لبنان ومحيطه العربي.

وهناك الجوانب المادية من الحضارة، كاللباس وهندسة البيوت ووسائل النقل. وكذلك الجوانب الاقتصادية كأدوات الزراعة والصناعة والتجارة[٣١]، والعادات والتقاليد[٣٢]. وكلها تدل على التطابق بين المسلمين والمسيحيين في لبنان وباقي البلاد العربية، بالطبع مع بعض الخصائص الجزئية المميزة.

واذا ما تطرقنا الى ناحية الأصول العرقية للموارنة فإننا لا نعدم الحجج البينة على أن جزءاً غير قليل من عائلاتهم تعود الى أصول عربية. لكن، نود، بادئ الأمر، أن نشير الى عدة أمور نعتبرها أساسية:

١ — ليس هناك من شعب متحضر، في عالم اليوم، يستطيع أن يجزم بشكل علمي حازم في ما يتعلق بأصوله العرقية.

٢ — ليس هناك أي شعب من شعوب البلاد العربية يستطيع أن يزعم أن أصله العرقي — بشكل شامل — يعود حتماً الى العرق العربي.

٣ — قلة هم الذين ينطلقون من الناحية العرقية ليؤكدوا انتماء لبنان الى محيطه العربي.

٤ — ان الأغلبية الساحقة من القائلين بانتماء لبنان الى العرب ينطلقون من الواقع الحضاري والثقافي ومستقبل المصير المشترك، كما يطمحون لأن يلعب لبنان دوراً طليعياً في تطوير المنطقة العربية.

٥ — نحن نعتبر أن ثمة تيارات متصارعة في الواقع التاريخي العربي المعاصر: تيارات الحداثة والعقلانية والعلمانية والتقدم وتيارات السلفية والجهل والتبعية والتعصب. ونحن قطعاً ضد التيارات الأخيرة ونعتبر أن للبنان دوراً أساسياً في حمل مشعل التيارات الأولى.

٦ — ان بعض القائلين بعروبة لبنان يحاولون أن يلونوا هذه العربية ويربطوها برضى هذا النظام العربي أو ذلك. أما نحن، عندما نقول بعروبة لبنان، فإنما ننطلق من مصلحة لبنان أولاً، ونعتبر أن مجمل الأنظمة السائدة والمتكلمة باسم العروبة هي أنظمة تحافظ على التخلف والتبعية والاستغلال وليست النموذج المرتجى.

٧ — اننا نقر سلفاً أن الطوائف اللبنانية بمجملها، وليس الموارنة فقط، هي، على الصعيد العرقي، نتاج تفاعل اعراق وشعوب متنوعة، ولئن طغى العنصر العربي فيها فذلك يعود الى أسباب تاريخية محددة لا مجال الآن للاستفاضة بتبيانها.

٨ — اننا اذ نستشهد ببعض المصادر والمراجع حول أصول بعض العائلات المارونية فإننا نتحفظ حول علمية المنهج الذي اتبعه مؤلفو هذه المراجع، ولا يمكننا الزعم أن جميع المعلومات التي سنوردها هي قطعاً صائبة في كل تفاصيلها، لكنها، بشكل عام، تعطي براهين ومعلومات لا يمكن انكارها أو تجاهلها على نحو شامل.

لقد سبق وأشرنا الى أن الأب ضو ذكر بأن آل شهاب وآل أبي اللمع[٣٣] هم من أصل عربي وقد دخلوا المارونية. والحقيقة أن هناك العشرات من العائلات المارونية، أصلها عربي وخاصة من الغساسنة. حتى ان الدكتور كمال الصليبي[٣٤] يرجح أن معظم الموارنة «كانوا، من ناحية العرق، من «نبط» الشام، يقطنون المناطق الزراعية في الارياف ويعملون في الفلاحة. وكان من بينهم بعض الرعاة من أبناء العشائر في الجبال وربما كان هؤلاء من اقحاح العرب». وقد تكلموا العربية وكتبوا بها، على الأقل، ابتداء من القرن التاسع[٣٥].

فعائلة آل الخازن تعيد أصلها الى آل غسان[٣٦].

وآل حبيش يعودون بأصلهم الى قبيلة الهوزان، وهي فخذ من قريش[٣٧].

LAU-Byblos Library

وأسرة ضو نفسها، التي ينتسب اليها الأب بطرس ضو، تتحدر من موسى غانم الغساني أحد أتباع الملك المنذر بن النعمان[٣٨]. وقد هاجر موسى من موطنه الى قرية يانوح في بلاد جبيل، ومنها تحدرت عدة عائلات أهمها:

— فرعي لبكي والحود في بعبدات[٣٩].

— وفي دير القمر أسرة نعمة[٤٠] وأسرة شمعون[٤١].

— وفي جونية أسرة نصر وأبي كرم وصليبا[٤٢].

— وفي شننعير أسرة أبي زيد وأسرة أبي عازار[٤٣].

— وفي البوار أسرة الفحل، وأسرة الترك في سنور والمرادية وسرعيتا وداريا، وأسرة الجر في يحشوش، وأسرة النصراني في غزير، وأسرة عبود وأسرة خليفة في البترون[٤٤].

ومن الأسر المارونية التي تعود الى أصل عربي غساني: آل وهيبة وآل غانم، وأسرة كرم في بسكنتا، وأسرة التنوري في بسكنتا أيضاً، وكذلك بنو صقر، وأسرة مراد في عرمون، وأسرة شبلي[٤٥].

وإلى العاقورا نزحت قبائل عربية من اليمن[٤٦] واليها ينتسب مالك ابن أبي الغيث وذريته ومنهم بنو ملحمة[٤٧]، وتتفرع عنهم أسرة بيروتي، وأسرة فاخوري في بيروت وبعبدا وغزير، وأسرة أبي شلحي في جبيل، وأسرة شلق، وأسرة رزق الله في صيدا وبيروت، وآل فاضل وآل كساب. ومن ذرية مالك ابن أبي الغيث آل المعوشي في جزين[٤٨].

والى قبيلة كندة ينسب آل العينسي أسرتهم[٤٩]. وآل السخن في قرطبا ينسبون أنفسهم الى بني كعب بن قيس السخني[٥٠]. وكذلك آل كرم ينتسبون الى غطفان... من بني عامر، ومن آل كرم تحدرت عائلات شديد وجبر وفياض وسالم ومعوض وعبد المسيح في بيت شباب، ومنهم أيضاً بيت الخياط في زحلة،

وبيت الزحلاوي في حدث بيروت ، وبيت الشبابي في رميش ، وبيت الحاج في معلقة زحلة ، وبيت الكك في رشميا ودير القمر[٥١] . والى آل السخن ينتسب آل الصهيوني في أهدن[٥٢] . وآل شليطا في قرطبا وآل صقر وآل الخوري وآل عطاالله وبيت القسيس أصلهم عرب من بادية الشام[٥٣] . وآل أده ينتسبون الى قبيلة بني هوازن[٥٤] ، وكذلك آل الملاط في بعبدا[٥٥] . وأسرة آل الهاشم تتحدر من هاشم بن عتبة الصحابي[٥٦] .

ونقلاً عن الشيخ ادوار سليم الدحداح ، في كتابه «سياسة لا وجدان» ، ان الدحادحة أصلهم من عرب اليمامة جاؤوا الى العاقورا وتنصروا[٥٧] .

وعائلة البستاني المنتشرة في دير القمر والدبية وجونية والكورة وضهر صفرا وغيرها تعيد نسبها الى الغساسنة[٥٨] .

وأسرة آل عطاالله تتحدر أيضاً من غسان[٥٩] ، وكذلك آل المعلوف[٦٠] ، وآل الكريدي[٦١] ، وآل الحداد[٦٢] .

كان لا بد من هذه اللمحة السريعة حول ما كتب بعض المهتمين بأصول الأسر المارونية ، وهناك عشرات بل مئات العائلات التي ترد نسبها الى أصل عربي ، وهناك عشرات بل مئات الكتب التي تهتم بهذا اللون من الأبحاث ، ولم يتسن لنا ، حتى الآن ، الاطلاع عليها كلها .

واننا ، اذ نقف بحذر ازاء العديد من هذه الكتابات ، باعتبار انها تفتقر الى المصادر الدقيقة ، فإننا نستطيع أن نقرر ، من جهة أخرى ، ان الأصول العربية هي ظاهرة ثابتة بالنسبة الى عدد غير قليل من أبرز العائلات المارونية .

فكيف يجوز بعد ذلك كله للأب ضو — وهو نفسه من أصل عربي كما ذكر دي طرازي — أن يقرر ، بشكل مطلق ، ان لا صلة بين اللبنانيين والعرب ؟!

— ٢ —

كيف أثرت الايديولوجيا الطائفية على الأب ضو كمؤرخ ؟

أولاً — استخدام الوثائق التاريخية بشكل مشوه :

ينطلق الأب ضو من فكرة مسبقة تعتبر أن المردة — وهم الموارنة في رأيه — قوم يتمتعون بكل الفضائل والخصال الحميدة . وعندما يستشهد بنص مأخوذ من تاريخ ميخائيل السوري[٦٣] يخفي من النص ما ورد من أن المردة كانوا قطاعاً للطرق[٦٤] .

ثانياً — ممارسة عملية الاسقاط التاريخي :

عندما يعالج الأب ضو علاقة البشيرين (شهاب وجنبلاط) في الربع الأول من القرن الماضي[٦٥] ، يورد مقاطع توحي للقارئ وكأنه يتكلم عن المرحوم جنبلاط وبلغة شبيهة بمصطلحات جرائد السنوات الأخيرة . يقول ، في ص ٥٥٩ : «عندئذ لم يبق مجال لطول الأناة . يجب ضرب المعتدين الاشرار هدامي الوطن ومخربي الأمن والنظام » ، «حينئذ أمر الأمير عساكره بالسير الى المختارة لضرب رأس الأفعى واقتلاع الشر من جذوره» . ويضيف ، مستنكراً خطط الشيخ بشير جنبلاط لانشاء وطن درزي ، ومتناسياً ان لكل طائفة الحق في انشاء وطنها اذا سلمنا بأطروحة الأوطان الطائفية التي يدعو هو اليها : «ولعل هذه الخطط والمقاصد أيضاً كانت وراء الفتن التي حصلت منذ فتنة الشيخ بشير في ١٨٢٥ حتى حوادث ١٨٦٠ المشؤومة . ولعلها أيضاً وراء بعض تحركات

جنبلاطية في أيامنا هذه ... فالسوسة الجنبلاطية هي أصل العلة ومكمن الداء ومصدر البلاء»[٦٦].

ثالثاً — محاولة التشديد باستمرار على الفترة الفينيقية والتخفيف من علاقة الموارنة بالعرب:

على الرغم من أن الأب ضو يعالج تاريخ الموارنة، فهو يحاول دائماً، وفي مختلف اجزاء موسوعته، أن يعود الى الفينيقيين. فمن ٤٠٠ صفحة في الجزء الخامس مثلاً — وموضوعه دور المرأة في الكفاح الماروني عبر الأجيال — يتكلم في ١٥٠ صفحة عن آلهات الفينيقيين، ويدخل حتى آثينا — الهة اليونان — في عدادهن، ولا يبرر موقفه هذا بشكل علمي مقنع. كما أنه يعقد فصلاً كاملاً بعنوان «العروبة وخطرها على المرأة» (ص ٢٦٧ — ٢٧٩).

وفي الجزء الثالث، الذي يعطيه الأب ضو صفة عهد المردة والاستقلال الماروني التام (٦٣٦ — ١٣٦٧)، والذي يتمثله كنموذج يمكن احتذاؤه بالنسبة الى موارنة الغد، هناك العديد من الأسئلة التي يمكننا ايرادها حول صحة هذا الزعم. فمختلف المراجع الأساسية تشير الى ترابط تاريخ الجبل الماروني — في تلك الفترة — بالدولة الاسلامية في دمشق وبغداد.

فالمؤرخ الثقة، الدكتور كمال الصليبي، يؤكد، من موقعه الأكاديمي الرصين، أن جبل لبنان والجزء المحاذي له من الساحل، من طرابلس الى صيدا، كان مرتبطاً بجند دمشق. وكذلك بلاد بعلبك، والبقاع، ووادي التيم. أما جبل عاملة، من نيل الأعلى، فاتبع مع ثغر صور بجند الأردن. وهذا عشية قيام الفتح الاسلامي[٦٧].

أما المطران الدبس فيقول — بعد تحالف المسلمين والروم ضد المردة وسكان جبل لبنان: «على أن هذا لم يخل من نفع، فقد حكمت التجارب الموارنة وعلمتهم أن لا يصغوا لوساوس الاجانب، وأن يؤثروا الطاعة والانقياد للحكومة

السائدة بهم على المعاندة والمخالفة لها وعلى مرضاة أصحاب السياسة الذين لا يهمهم الا أغراضهم، فإذا قضوا منها أوطارهم أحرقوا الآلة نفسها التي استخدموها لنيل تلك الاغراض، اذا اقتضت ذلك مصلحتهم. فتمثل الموارنة بهذه الأمثولة وكفوا عن تلك الغزوات وشن تلك الغارات ولزموا السكينة واخلصوا في الطاعة لسلطة الخلفاء الامويين والعباسيين وتفرغوا لحراثة أراضيهم وتربية ماشيتهم آمنين متحصنين بلبنان. ويظهر أن حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر احراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم في امتلاك أراضيه وغاباته فعاشوا فيه بهذا القرن (أي الثامن) وما يليه آمنين محافظين على دينهم وشأنهم. ويظهر أن الخلفاء كانوا يولون عليهم رجلاً منهم أو ولاة مسيحيين»[٦٨].

والأب لامنس يتكلم عن حملات عباسية على المنيطرة لقمع ثورتها[٦٩] في حدود عام ٦٧٠م، والأرجح أن ذلك حصل بسبب محاولة «الروك» الأولى التي قام بها المنصور، فاحتج أهالي المنيطرة على الضرائب المفروضة على الأملاك[٧٠]، وذلك نقلاً عن ابن عساكر[٧١] والبلاذري[٧٢]. وبذات المعنى يشير الدكتور فيليب حتي الى دور الامام الاوزاعي في الدفاع عن مسيحيي لبنان ازاء القمع الذي تعرضوا له من عساكر العباسيين. ومن جملة ما قال الأوزاعي: «فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى... مستشهداً بالرسول الذي قال من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه»[٧٣].

وفي عهد الصليبيين وقف أكثرية الموارنة الى جانبهم، ولكن قسماً معيناً من الموارنة وقف الى جانب اتابكة دمشق ضد فرنجة طرابلس، وحدثت هجمات دموية بين بعض الموارنة والفرنجة[٧٤].

وفي عهد المماليك، بعد رحيل الصليبيين، قسمت بلاد الشام الى ست «ممالك» تضاف اليها بعض «النيابات». ولقد ضم لبنان الشمالي، ابتداء من

جبيل ، الى مملكة طرابلس بما في ذلك الضنية وجبة بشري والكورة وجبة المنيطرة وجبيل [٧٥] . وإلى مملكة دمشق ضمت بعلبك والبقاع وكسروان وبيروت والشوف وصيدا . والمنطقة من الليطاني نحو الجنوب ضمت الى مملكة صفد [٧٦] .

إن التأكيد بأن «لبنان» كان مستقلاً استقلالاً تاماً في الفترة ما بين أواسط القرن السابع حتى أواسع القرن الرابع عشر للميلاد ، وهذا ما يسرف في ترداده الأب ضو ، يفتقر الى الاسانيد التاريخية العلمية .

لكننا نستدرك فنقول ، استناداً الى «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى ، أن نمط الاقطاع الذي أقر به المماليك لآل بحتر كان مغايراً لسائر أنماط الاقطاع السائدة في ممالك ونيابات المماليك في بلاد الشام . وعليه ، فاننا نقر بوجود خصوصية لبعض المناطق اللبنانية ، في تلك الفترة ، نابعة من البنية السكانية ومن الموقع الجغرافي في البلاد [٧٧] .

رابعاً— التبسيط في العوامل المؤدية الى الفتن الطائفية والحروب ، وحصر الأسباب في سلوك الخصم الطائفي :

فالفتن التي تتابعت وبلغت ذروتها في انفجار ١٨٦٠ ، كان محركها— في رأي الأب ضو— «انحراف بشير جنبلاط منذ سنة ١٨١٨ عن صفاء بني معروف ووطنيتهم وتضامنهم العريق مع الموارنة الى التعصب الديني الذميم لأهداف لا لبنانية وطنية ولكن طائفية درزية واسلامية» [٧٨] .

وكذلك فإن تفسيره لاندلاع الحروب الصليبية ينحصر في ثلاثة أسباب : «أولها التنكيل بالأماكن المقدسة المسيحية . ثانيها التنكيل بالمسيحيين الأوروبيين الذين كانوا يأتون لزيارة الأماكن المقدسة . وثالثها التنكيل بالمسيحيين أبناء البلاد الشرقية» [٧٩] .

ولماكنا سنتطرق الى اعطاء لمحة سريعة على اسباب فتن ١٨٤٠ — ١٨٦٠ ، في

الفصل الثاني من هذا القسم ، فإننا سنتوقف الآن عند الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية ، ولكن باقتضاب يفرضه ضيق المجال .

ان العامل الديني الذي يذكره الأب ضو هو ولا شك عامل هام وأساسي ، ولكنه ليس الوحيد .

فهناك العامل الاقتصادي. ففرنسا ، مثلاً ، كانت تعاني ، عشية الدعوة الى الحملة الصليبية الأولى ، من المجاعة الشاملة [٨٠] . وكذلك لعب أصحاب السفن في المدن الايطالية دوراً هاماً في الدعوة الى المشروع [٨١] .

وكان هناك العامل الاجتماعي : الهجرة من الأوبئة التي كانت تجتاح أوروبا عام ١٠٩٥ [٨٢] ، والخروج من حالة الذل والهوان التي كان يعيش فيها عامة الشعب الأوروبي في القرن الحادي عشر.

وهناك العامل السياسي ، خاصة الطموح ، من قبل النبلاء ، للسيطرة على مناطق غنية ، خاصة وأن الابن الأكبر، في الغرب ، كان يرث النسبة الكبرى من اقطاع أبيه ، من هنا وجد الأبناء المحرومون من الوراثة ، في الحروب الصليبية ، مجالاً لتحقيق طموحهم [٨٣] . بالاضافة الى عوامل أخرى عديدة ، كالفروسية التي يمكن اظهارها في الحروب المقدسة ، وتهديد الباباوات والحاحهم على الأمراء والملوك ، ومطالبة ملوك بيزنطية النجدة من أوروبا لمواجهة الزحف السلجوقي ، وطموح الباباوات لاعادة توحيد الكنيسة تحت ستار مواجهة الخطر الاسلامي ، وما الى ذلك من الأسباب المتشعبة .

خامساً— ادخال القوى الماورائية والقديسين لدعم الطائفة وابطالها :

يعرض الأب ضو قصصاً وأخباراً عن تدخل القديسين والقديسات في المعارك التي يخوضها ابناء الطائفة . ففي القليعة شارك مار جرجس ، من على صهوة حصانه ، في الدفاع عن البلدة عام ١٩٢٠ [٨٤] . والقديسة بربارة تخلص انساناً من النار [٨٥] .

سادساً — تفسير الانجيل على نحو يجيز للطائفة استعمال القوة والعنف :

يذكر الأب ضو أن السيد المسيح قال في انجيل القديس لوقا «من ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً» . ويعلق على ذلك أن المسيح أوصى تلاميذه باستعمال السيف أي القوة بعد انجاز عمل الفداء ليدافعوا عن كنوز ورسالة الفداء والانجيل في العالم[٨٦] . ثم انه يرفع شعار «كل ماروني جندي» ويدعو الى وضع خطة استراتيجية كاملة تشمل الجبل الماروني كله بشبكة من التحصينات والتجهيزات العسكرية كما كانت الحال في عهد الوطن الماروني المستقل[٨٧] .

سابعاً — الاشادة بابطال الطائفة والطعن بابطال الطوائف الأخرى :

يكاد الأب ضو لا يرى في الأمير بشير الشهابي الكبير الا كل أمر ايجابي ، وعلى العكس من ذلك فهو يرمي بشير جنبلاط بكل تهمة ويعتبره — كما رأينا — المسؤول عن الفتن الطائفية التي حدثت في منتصف القرن الماضي.

ويجزم الأب ضو بتنصر الأمير فخر الدين[٨٨] دون أن يترك مجالاً للشك في هذا الأمر ، علماً أن بعض المؤرخين يتحفظ في الحسم في هذا الموضوع[٨٩] .

ثامناً — ابراز فترات الخلاف بين الطوائف وتضخيم الاضطهادات واعطاؤها طابعاً مأساوياً :

يبرز الأب ضو فترات الخلاف بين الطوائف ويضخم الاضطهادات ويعطيها طابعاً مأساوياً ، علماً أن هناك صفحات مشرقة من التعاون والصفاء بين مختلف الطوائف. فإذا كان صحيحاً أنه قد حدثت اضطهادات اسلامية للمسيحيين في المشرق ، فهذا أمر يجب أن يدرس في اطار الأوضاع التاريخية التي حدثت فيها هذه الاضطهادات. وعلى كل حال الصراعات الدينية ظاهرة عرفتها أوروبا المسيحية نفسها ، كما أن الاضطهادات الدينية حدثت بين الفرق الاسلامية

المتنافسة ، وكذلك الخلاف بين الفرق المسيحية في الشرق بلغ ، في بعض الاحيان ، مرحلة الاقتتال الدموي.

ولكن ، في موازاة مظاهر الخلاف ، أو الاقتتال في بعض الأحيان ، بين المسيحيين والمسلمين ، كان هناك فترات ود وصفاء. فابن جبير، الرحالة الشهير ، الذي مر بلبنان في الربع الأخير من القرن الثاني عشر ، قال : «ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان اذا رأوا فيه بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا اليهم ، ويقولون : هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم» . ثم يقول : «... والاتفاق بينهم (أي بين المسلمين والنصارى) والاعتدال في جميع الاحوال»[٩٠] .

كما أن العديدين من الرحالة الاوروبيين لاحظوا عمق الوئام بين الطوائف المسيحية والاسلامية في لبنان[٩١] .

وإذا حاولنا التعرف على ظروف انتقال العديد من الأراضي الى الأديار لوجدنا أن من بين الواهبين لهذه الأراضي نسبة غير قليلة من الدروز والشيعة بشكل خاص[٩٢] .

ومن جهة أخرى يذكر المطران دريان[٩٣] أنه «لما تغيرت الأحوال والحكام في الجبة ذهب عمدة من تلك الناحية الى الشيخ سرحان أبي حادة وسألوه أن يوجه اليهم واحداً من عائلته ليتولى حكم جبة بشراي فوجه معهم ابن عمه الشيخ أحمد ويكنى بأبي زعزوعة لأنه كان شاباً. واتفق أهل البلاد مع الشيخ سرحان على أن الشيخ أحمد يتولى بلادهم كما يشاء ويعاقب المذنبين كما يشاء. ولكنه لا يحق له أن يتداخل في ثلاثة أمور أي الدين والعرض والدم. فحضر المذكور سنة ١٦٥٤ وأجرى كل عدل ورحمة وأرضى أهل البلاد» .

وحتى في فترات الفتن والمذابح الطائفية كان هناك مواقف انسانية تنم عن أصالة لدى أفراد من جميع الطوائف. فبالاضافة الى دور الأمير النبيل عبد

القادر الجزائري في حماية مسيحيي دمشق ، وهو أمر معروف ، أبان فتنة ١٨٦٠ ، هناك تقرير لقنصل فرنسا في بيروت[٩٤] ، يتحدث عن بعض العائلات الشيعية في الجنوب ودورها في حماية المسيحيين :

La conduite des Cheicks Metwalis: Mehmmet Ali Chébib, Youssef Nasralla et Hussein Mohammed, est digne des plus grands éloges - ces Cheicks ont recueilli et dispersé dans leurs villages les chrétiens et leurs familles et ne cessemt de leur prodiguer tous les secours nécessaires.

« ان تصرف المشايخ المتاولة : محمد علي شبيب ، يوسف نصرالله وحسين محمد ، هو مجال تقدير كبير ، ذلك ان هؤلاء المشايخ استقبلوا ووزعوا في قراهم المسيحيين وعائلاتهم (الهاربين من المذابح) ، وما توانوا عن توفير الحماية والرعاية اللازمة لهم » .

حتى أن مؤلف «الحركات في لبنان» أكد أن «الطائفتين — الدرزية والمارونية — كانت محبة احداهما للأخرى آنسة اليها ، وبعبارة أخرى كانت الجماعتان كجماعة واحدة تعملان على وتيرة واحدة ... وكنت أيامئذ ترى الدرزي والنصراني يقاتلان تحت علم واحد ويحاربان بغية عاقبة واحدة ... وكنت ترى الدرزي يحسن معاملة النصراني ويهش ويبش في وجهه أينما رآه . والنصراني يحترم الدرزي ويستجير به ان حادث عراه»[٩٥] .

تاسعاً — الأزدواجية والتناقض حول الموقف من العلمانية :

أحد أهم أسباب هجوم الأب ضو على الاسلام أنه — في رأيه — غير علماني ، وأنه «يميز بين المسلم والذمي على الصعيد السياسي والمدني والاجتماعي»[٩٦] . وفي حال قبول المسلمين بالعلمنة فذلك لا يشكل — برأيه — ضمانة للمسيحيين. فتركيا علمانية منذ ١٩٢٠ ، ومع ذلك لا يعامل المسيحيون فيها على قدم المساواة مع المسلمين ، وهم أبداً معرضون للاضطهاد[٩٧] .

وعلى الرغم من أنه يؤكد «أن النظام المسيحي هو لا طائفي وعلماني في الواقع لأنه مستوحى من الانجيل ، والانجيل لا يميز في التعامل بين الناس ، بين مؤمن

LAU-Byblos Library

وكافر وقريب وعدو»[٩٨] ، الا أنه يعود ويستدرك : «يمكن أن تكون العلمنة أقرب سبيل للقضاء على لبنان وكيانه واستقلاله»[٩٩] . أما سبب معارضة الأب ضو للعلمانية فـ «لأن أحزاباً لبنانية كثيرة هي بالواقع مبنية على العلمنة (كالحزب القومي والشيوعي وغيرهما ..) ، ولأن كمال جنبلاط ينادي بالعلمنة ...»[١٠٠] .
فما هو الحل اذن في رأيه؟ الحل هو في قيام وطن قومي ماروني مرتبط بالكنيسة المارونية . وفي سبيل ذلك على الكنيسة أن تضع «خطتها المدروسة — التي — تشمل السياسة الخارجية والداخلية — وتكون — متماسكة ومستمرة ولا تزول وتتغير...»[١٠١] .

ان مناقشة آراء الأب ضو ، في هذا المجال ، تتطلب بحثاً مطولاً ، ولكن حسبنا الآن طرح بعض النقاط بشكل مختصر :

١ — ليس صحيحاً أن الاسلام ، بشكل مطلق ، مناقض للعلمانية ، فبالرغم من وجود تيارات اسلامية متعصبة في معاداتها للعلمانية ، فهناك ، في المقابل ، تيارات فكرية اسلامية معاصرة تحاول أن تفسر الاسلام بشكل ينسجم مع التوجهات العلمانية .

٢ — يؤكد الأب ضو أن المسيحية تتوافق حتماً مع العلمانية . لكنه ، بعد أسطر ، يعود فيعارضها . الا يحق لنا التساؤل عن مدى تطابق موقف الأب ضو مع المسيحية كما يطرحها الفاتيكان الثاني ؟

٣ — العلمانية ، كما حددها أكثر من باحث ، هي موقف شامل ينطلق من التسليم باستقلالية العالم بكل مقوماته وأبعاده وقيمه تجاه الدين ومقوماته وأبعاده وقيمه . فكيف يوافق الأب ضو على العلمانية من جهة ، ثم يعود فيطلب من الكنيسة المارونية في لبنان أن تضع مخططات تتناول السياسة الخارجية والداخلية للبلاد؟ علماً أن الكنيسة ، عبر مجمع الفاتيكان الثاني ، حسمت بأن الكنيسة «لا ترتبط بأي شكل خاص من أشكال الثقافة ، ولا بأي نظام سياسي

واقتصادي واجتماعي»[١٠٢]. ثم أكدت بأن «الجماعة السياسية والكنيسة مستقلتان لا ترتبط الواحدة بالأخرى في الحقل الخاص بكل منهما»[١٠٣].

فكيف يريد الأب ضو أن يقيم «وطناً قومياً مارونياً»؟ واستطراداً، ما هو مصير غير الموارنة الذين يعيشون في هذا الوطن؟

اننا بكل صدق نحترم الجهد الذي بذله الأب بطرس ضو، ولكننا على يقين من أن روح المسيحية المحبة، والرصانة العلمية التي لا تهادن، سوف تحملان الأب ضو على اعادة النظر في ما كتب. والموارنة، في تاريخهم الماضي، وربما المستقبلي، ما كانوا ولن يكونوا الا مشاركين في نهضة محيطهم، مساهمين في تطور الانسانية، رافضين كل أشكال الكيانات العنصرية التي تزوّر، في وعيها ولا وعيها الطائفي، كتابة التاريخ، متوهمة انها بذلك تصنع «أوطاناً» مناقضة لحركة التطور التاريخي بمضمونه الانساني.

مراجع الفصل الأول

(١) بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، من مار مارون الى مار يوحنا مارون ٣٢٥ — ٧٠٠م، دار النهار للنشر ١٩٧٠، الجزء الأول، ص ١٣ — ١٤.

(٢) بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، الكنائس المارونية القديمة في سوريا من مار مارون الى القرن السابع، دار النهار للنشر ١٩٧٢، الجزء الثاني، ص ١٢.

(٣) بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، الوجه العسكري الماروني من ٦٣٦ الى ١٣٦٧م، أو عهد المردة والاستقلال الماروني التام، مطابع السقيم ١٩٧٦، الجزء الثالث.

(٤) بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، الوجه العسكري الماروني من ١٣٦٧ الى ١٨٤٠، المطبعة البوليسية — جونيه، ١٩٧٧، الجزء الرابع.

(٥) بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، الوجه العسكري الماروني، دور المرأة في الكفاح الماروني عبر الأجيال، ١٩٧٩، الجزء الخامس.

(٦) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الخامس، ص ١٠٢ — ١٠٣.

(٧) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الرابع، ص ٢٧٠.

(٨) بطرس ضو، موارنة الغد على ضوء تاريخهم، ص ١١ و١٢.

(٩) المصدر نفسه، ص ١٤.

(١٠) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الرابع، ص ٥٧١.

(١١) العرقية ازاء العلم، الاونسكو، دار الثقافة، بدون تاريخ، ص ٢٣.

(١٢) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الخامس، ص ٢٨٠.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(١٦) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الرابع، ص ٦٩ — ٧٨.

(١٧) بطرس ضو، موارنة الغد على ضوء تاريخهم، ص ١٤.

(١٨) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الأول، ص ٣٨٩.

(١٩) بطرس ضو، موارنة الغد على ضوء تاريخهم، ص ٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٢٢) راجع: عصام خليفة، مقدمات أولية حول مقولة التعددية الحضارية، سلسلة «لبنان الديمقراطي العربي العلماني»، كراس (٢)، منشورات «الديمقراطيون العلمانيون».

(٢٣) المرجع نفسه ص ٣٠ — ٣١. ومجلة الوعي، وثائق المؤتمر العام السابع ١٩٧٧، ص ٣٦ — ٥٢.

(٢٤) راجع: عصام خليفة، مقدمات أولية حول مقولة التعددية الحضارية، ص ٤٠ — ٥٢.

(٢٥) راجع: العرقية ازاء العلم، الأونسكو، دار الثقافة، بدون تاريخ.

(٢٦)
- R. Cresswell, Parenté et propriété foncière dans la montagne libanaise (Etudes rurales), 1970, N° 40, p. 1 - 79.
- Dominique Chevallier, la société du Mont-Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe, Paris, 1071.
- Thom Sicking, Religion et développement, Etude comparative d'un village maronite et d'un village musulman-Chiite au Liban, thèse pour le doctorat en sociologie, Paris V, 1977.

(٢٧) كرسويل المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢٨) البطريرك اسطفان الدويهي، تاريخ الأزمنة، نشر فردينان توتل، ص ٢٥٠.

(٢٩) Toufic Touma, Paysans et institutions féodales chez les Druses et les Maronites du Liban du XVIIIe siècle à 1914, publications de l'Université Libanaise Orientale, p. 77.

كذلك راجع: الخوري منصور الحتوني، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية، ١٨٨٤، ص ١٠٧.

H. Lammens, la Syrie, T1, Imprimerie Catholique, 1921, p. 75 et p. 132.

(٣٠) كرسويل، المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣١) عصام خليفة ، المرجع السابق ، ص ٧٦ — ٩٠ .
(٣٢) عيسى اسكندر المعلوف ، لبنان : مباحث علمية واجتماعية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، ص ١٥٨ — ٢٠٨ .
(٣٣) راجع ايضاً : الخوري اسطفان البشعلاني ، تاريخ بشعلي وصليما ، مطبعة فاضل وجميل — الدورة ، ١٩٤٨ ، ص ٢٥٧ وص ٢١ .
(٣٤) كمال الصليبي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .
(٣٥) المرجع نفسه ، ص ٣٩ . وكذلك الأب اغوسطين سالم القرطباوي السخني اللبناني ، تاريخ كشف النقاب عن قرطبا والانساب ، مطبعة اميل دكاش ، ١٩٦٣ الجزء الأول ، ص ١٥٣ .
راجع أيضاً : المطران يوسف دريان ، البراهين الجلية ، ص ٢١٩ و٢٢٠ .
(٣٦) الأب بولس مسعد ونسيب وهيبة الخازن ، الأصول التاريخية ، مطبعة عشقوت ، الجزء الثالث ، ص ٢٩٨ .
— يوسف عماد ، الجامعة القرقمازية وتاريخها ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ .
— فيليب حتي ، لبنان في التاريخ ، دار الثقافة ، ١٩٥٩ ، ص ٣١٢ .
(٣٧) خليل حبيش ، آل حبيش في التاريخ ، ١٩٧٨ ، ص ١١ .
— الأب أغوسطين سالم القرطباوي السخني اللبناني ، المرجع السابق .
(٣٨) القيكنت فيليب دي طرازي ، أصدق ما كان من تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السريان ، مطابع صيقلي ، ١٩٤٨ ، المجلد الثاني ، ص ٥ وص ٢٨ .
(٣٩) المرجع نفسه ، ص ٣٢ .
— الخوري نعمة الله الملكي البعبداتي ، تاريخ بعبدات وأسرها ، مطابع نصار ، ١٩٤٧ ، ص ١٠٣ .
(٤٠) دي طرازي ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .
(٤١) الملكي ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٤٢) دي طرازي ، المرجع السابق ، ص ٣٢ و٣٣ .
(٤٣) المرجع نفسه ، ص ٣٣ .
(٤٤) المرجع نفسه ، ص ٣٣ .

ملاحظة : يقول المؤرخ البحاثة الأب قسطنطين الباشا في كتابه : تاريخ أسرة آل فرعون ، مطبعة القديس بولس ، ١٩٣٢ : «لو تقصينا ما يحكيه رواة الأخبار بالكتابة والسماع عن أصول الأسر المسيحية في سوريا ولبنان لوجدنا كثيرين منهم يرجعون بأصولهم الى حوران التي كانت عامرة بقبائل العرب المنتصرة وبالروم...» (ص ٢١) .

(٤٥) دي طرازي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ و٣٥ و٣٦ و٣٧ .
— الخورسقف يوسف داغر التنوري ، لبنان : لمحات في تاريخه وآثاره وأسره ، مطبعة المرسلين اللبنانيين ، ١٩٣٨ ، ص ٢٢٥ و٥١٨ و٥١٤ .

— يوسف خطار غانم ، برنامج أخوية القديس مارون ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٠٣ ، الجزء الثاني ، ص ٢٥٤ .
(٤٦) الأب اغوسطين سالم القرطباوي السخني اللبناني ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .
— مجلة «المشرق» ، آذار نيسان ١٩٥٣ ، ص ٢٠٩ — ٢١١ .
(٤٧) المونسنيور لويس الهاشم ، تاريخ العاقورا ، مطبعة العلم ، ١٩٧٣ ، ص ٤٥٢ .
— فيليب حتي ، المرجع السابق ص ٣١٢ .
— دي طرازي ، المرجع السابق ، ص ٤٣ و٤٤ .
— الأب أغوسطين سالم القرطباوي السخني ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .
(٤٨) دي طرازي ، المرجع السابق ، ص ٤٧ و٤٨ .
— لويس الهاشم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٢ — ٣٢٤ .
(٤٩) دي طرازي ، المرجع السابق ، ص ٥١ .
— لويس الهاشم ، المرجع السابق ، ص ٤١٤ .
(٥٠) الأب أغوسطين سالم القرطباوي ، المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٥١) المرجع نفسه ، ص ٨٦ و٨٧ و٨٨ .
(٥٢) المرجع نفسه ، ص ٨٩ .
(٥٣) المرجع نفسه ، ص ١٣٢ .
(٥٤) المرجع نفسه ، ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٥٥) المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .
(٥٦) لويس الهاشم ، المرجع السابق ، ص ٤٩١ و٤٩٢ .
— الأب أغوسطين سالم القرطباوي السخني ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ .
(٥٧) لويس الهاشم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٧ و٣٢٨ .
— الأب أغوسطين سالم القرطباوي السخني ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .
— الخورسقف يوسف داغر ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥ .
(٥٨) ملحم ابراهيم البستاني ، كوثر النفوس وسفر الخالدين ، مطبعة المرسلين اللبنانيين ، ١٩٥٤ ، ص ١٨١ و١٨٢ .
(٥٩) جامعة آل عطاالله ، بيروت ١٩٦٥ ، لا اسم للمطبعة ولا اسم للمؤلف ، ص ٦ و٧ .
(٦٠) الخورسقف داغر ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .
— الأب أغوسطين سالم القرطباوي السخني ، المرجع السابق ، ص ١٥١ ، نقلاً عن : «دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف» .
(٦١) المونسنيور هاشم ، المرجع السابق ، ص ٦٧٧ .
— الأب أغوسطين سالم القرطباوي السخني ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ .
(٦٢) الخوري اسطفان البشعلاني ، المرجع السابق ، ص ٤٥١ . وهو ينقلها عن «دواني القطوف لعيسى اسكندر المعلوف» ، وعن الخورسقف بطرس حبيقة في كتابه : «تاريخ بسكنتا وأسرها» .

(٦٣) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الثالث، ص ٢٠٠.

(٦٤) J.B. Chabot, Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien, 4 tomes, Paris, 1901. p. 455 et 470.

(٦٥) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الرابع، ص ٥٥١— ٥٦٦.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ٥٦٣.

(٦٧) كمال الصليبي، المرجع السابق، ص ٢٣، و٣٥— ٣٦، و٥١ و٧٤.

(٦٨) المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل، دار لحد خاطر ١٩٧٨، ص ٩٩ و١١٩.

(٦٩) H. Lammens, la Syrie, Imprimerie Catholique, 1921, T1, p. 131 et 132.

— محمد علي مكي، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني (٦٣٥— ١٥١٦)، دار النهار للنشر، ١٩٧٧، ص ٦٤.

(٧٠) كمال الصليبي، المرجع السابق، ص ٥٥.

(٧١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٣٣٠— ١٣٣٢هـ، الجزء الخامس، ص ٣٤١.

(٧٢) البلاذري، فتوح البلدان، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩، ص ١٦٦ و١٦٧.

(٧٣) فيليب حتي، لبنان في التاريخ، دار الثقافة، ١٩٥٩، ص ٣٢٧ و٣٢٨ و٣٢٩.

(٧٤) كمال الصليبي، المرجع السابق، ص ٨٩ و٩١ و٩٢.

(٧٥) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢هـ، ص ١٨٢.

— القلقشندي، صبح الاعشى في كتابة الانشا، القاهرة، ١٩١٤، الجزء الرابع، ص ٢٣٥.

(٧٦) كمال الصليبي، المرجع السابق، ص ١٣١ و١٣٢.

(٧٧) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق كمال الصليبي والأب فرنسيس هورس، بيروت، ١٩٦٩، ص ٨٤— ٧٨ وص ٨٩— ٩١. وكذلك

Elias Kattar, Recherches sur la société de la montagne libanaise à l'époque des Mamelouks, thèse pour le doctorat de 3e cycle, Paris 1977, p. 211, 212, 213, 214, et p. 233.

(٧٨) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الرابع، ص ٥٦٥.

(٧٩) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الثالث، ص ٤٢٩.

(٨٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ١٩٦٢، الجزء الأول، ص ٣٤.

— ستيفن رنسيمن، ناريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، دار الثقافة، ١٩٦٧، الجزء الأول، ص ١٧١.

(٨١) Jacques Pirenne, Les grands courants de l'histoire universelle, Paris, 1950, T. 2. p. 83.

(٨٢) ستيفن رنسيمن، المرجع السابق، ص ١٧١.

(٨٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص ٤١.

- Carl Grimberg, Histoire universelle, Editions Gérard, T. 4. p. 200.

— تاريخ الحضارات العام، باشراف موريس كروزيه، ترجمة يوسف أو فريد داغر، ١٩٦٥، دار عويدات، المجلد الثالث، ص ٣١٥.

(٨٤) بطرس ضو، تاريخ الموارنة ...، الجزء الخامس ص ٢٩٣.

(٨٥) المصدر نفسه، ص ٢١٩— ٢٢٠

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٨٦.

(٨٧) بطرس ضو، موارنة لبنان على ضوء تاريخهم، ص ٢١.

(٨٨) بطرس ضو، تاريخ الموارنة...، الجزء الرابع، ص ٢٠٧— ٢١٠.

(٨٩) عيسى اسكندر المعلوف، الأمير فخر الدين المعني الثاني، منشورات المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٦، ص ٢٠١.

— وكذلك، يعتبر الأب بولس نعمان الأمير فخر الدين درزيا (بولس نعمان، المارونية بين الدين والدولة، الكسليك، ١٩٧٠، ص ١٣). والدكتور كمال الصليبي يعتقد أن فخر الدين كان درزياً (ملحق العمل، العدد ٧١٨٦، ٢٨ آب ١٩٦٩، ص ١٢).

(٩٠) رحلة ابن جبير، دار التراث، بيروت ١٩٦٨، ص ٣٣٤— ٣٣٥.

(٩١) فقد دهش السائح فولني بما رآه عند زيارته لبنان في عهد الأمير يوسف (١٧٠٠ — ١٧٨٨) من تسامح الدروز الديني. وكان الدروز والنصارى يتعايشون بسلام، على حد قوله.

Volney, voyage en Egypte et en Syrie, Paris, 1789, p. 2.

— كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، ١٩٦٧، ص ٤٣.

(٩٢) الشيخ علي جنبلاط وهب أرضاً من أملاكه شرقي جون في اقليم الخروب الى رهبان الروم الكاثوليك لبناء دير على اسم المخلص وسلمهم عقارات لمعاشهم. وساعد الشيخ بشير جنبلاط بتجديد عمار دير مشموشة في اقليم جزين فأرسل له البابا مرسوماً يشكره فيه على ذلك. كما بنى كنيسة المختارة للموارنة سنة ١٨٢٠.

(شاكر الخوري، مجمع المسرات، ص ١٨ و١٩).

(٩٣) المطران يوسف دريان، نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية، مطبعة يوسف صادر، ١٩١٩، ص ٩١.

(٩٤) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية.

Consulat général de France à Beyrouth, N° 26, le 23 juin 1869, p. 83.

ويذكر شاكر الخوري في كتابه (مجمع المسرات، ص ٣٨ و٣٩ و٤٠ و٤١) بعض الحوادث التي عاشها في فتنة ١٨٦٠ ودور بعض وجهاء الشيعة من أمثال علي الحر والسيد ابراهيم وحسين الأمين وتامر بك الحسين والشيخ فضل والشيخ يوسف نصر الله في دير الزهراني وبيت الحر في جباع ومحمد علي شبيب في المروانية وحسين بك درويش ومشايخ بيت علي الصغير الذي منهم علي بك الأسعد. هؤلاء الوجهاء وغيرهم آووا المشردين من مسيحيي الاقليم وأطعموهم مدة تزيد على ثلاثة أشهر.

(٩٥) حسين ويوسف خطار وعارف أبو شقرا، الحركات في لبنان، ١٩٥٢، ص ٢٥.

LAU-Byblos Library

(٩٦) بطرس ضو، موارنة الغد على ضوء تاريخهم، ص ١٤.
(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٧.
(٩٨) المصدر نفسه، ص ١٥ — ١٦.
(٩٩) المصدر نفسه، ص ١٧.
(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٧.
(١٠١) المصدر نفسه، ص ٢٢.
(١٠٢) الوثائق المجمعية، الترجمة العربية، الجزء الأول، ص ٨٥ — ٨٦.
(١٠٣) المرجع نفسه، ص ١٤١.

الفصل الثاني

الدكتور وجيه كوثراني في «الاتجاهات الاجتماعية — السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ — ١٩٢٠»

في عام ١٩٧٦ أصدر الدكتور وجيه كوثراني الطبعة الأولى من كتابه عن معهد الانماء العربي. وهو يتضمن عرضاً لمنهج المؤلف ومنطلقاته في المقدمة. وفي الفصل الأول يورد نظرة عامة عن الأوضاع الاجتماعية في الجبل اللبناني قبل عام ١٨٦٠. وفي الفصل الثاني يتناول تكون المتصرفية. وفي الفصلين الثالث والرابع يعرض منطلقاته لفهم الاتجاهات السياسية العامة في المشرق العربي مع أشكال واتجاهات النضال ضد الأتراك والاستبداد الحميدي. ويتناول في الفصل الخامس اتجاهات وأشكال العمل السياسي بين عامي ١٩٠٨ — ١٩١٤. وكذلك، في الفصل السادس، يعالج الاتجاهات السياسية أبان الحرب العالمية الأولى. وفي الفصل الأخير يعرض التوازنات الدولية التي أدت الى تجزئة سوريا الطبيعية وقيام ما يسميه المشاريع التقسيمية.

ومن الضروري أن نعود فنكرر تقديرنا المبدئي للجهد الكبير الذي بذله المؤلف في تجميع مواد مؤلفه، بيد أننا وجدنا من الضروري التصدي للكتاب بالنقد وتبيان خلفياته الطائفية انطلاقاً من أمرين:

١ — ان صاحب الكتاب يطرح نفسه كممثل لتيار تقدمي في كتابة التاريخ ، وهو يشكل عينة لمؤرخين آخرين .

٢ — رواج بعض مقولاته في أوساط بعض المثقفين والقوى السياسية التي من المفترض أن تولي الكتابة التاريخية والفكر التاريخي أهمية أكبر للدور الفعال الذي يلعبه التاريخ في اعداد القاعدة الصلبة ، على المستوى الأيديولوجي العام ، لأحداث عملية التغيير الشاملة في مجتمعنا ، أو على الاقل ، في الظرف الراهن ، للوقوف في وجه كافة مظاهر التفكك التي لا تهدد لبنان فحسب ، بل تطال المنطقة العربية بأجمعها .

ما هو مبرر اتهامنا للدكتور كوثراني بأنه ، في فكره التاريخي ، يخدم الايديولوجيا الطائفية ؟

وكيف نبرهن هذا الاتهام من خلال تحليله أو تبريره أو تقييمه أو عرضه لأحداث تاريخية متعلقة بلبنان أو ببيئته العربية في كتابه المشار اليه ؟

* * *

يعرض الدكتور كوثراني **منهجه** فيقول بأنه « يحاول أن يقرأ التاريخ من وجهة نظر الجماهير العربية وهي وجهة **قومية** ... لا بالمفهوم المثالي أو « الرومنطيقي » الذي يبحث عن مبررات وجود الأمة العربية في الانتقائية الظرفية من التاريخ العربي البعيد ، بل بالمفهوم العلمي الذي يرى في الأمة العربية مشروعاً سياسياً ، اقتصادياً ، اجتماعياً ثقافياً ... »[1] .

وعلى الرغم من أنه لا يوضح مفهومه للقومية العربية ، ولا يعطينا فكرة حول مضامين المشروع السياسي والاقتصادي والثقافي الذي يؤمن به ، فإننا نستشف من خلال عدة اشارات واردة في الكتاب أن مفهومه « العلمي » للقومية العربية يرتبط بالاعتبارات التالية :

١ — انها معادية للعلمانية ، باعتبار أن الاستعمار هو الذي بث هذه الفكرة في بلادنا[2] .

٢ — ثمة تطابق بين « الوحدة الاسلامية » و« الوحدة العربية »[3] .

٣ — ان الاسلام « رابطة سياسية وحضارية »[4] ، وأن هناك في العصر الحديث ، وليس في القرون الوسطى ، حضارة عربية — اسلامية ، وتاريخ عربي — اسلامي[5] .

٤ — ان العدو الأساسي الذي يجب مواجهته هو الامبريالية والاستعمار اللذان تمكنا من تحقيق الاختراق والتجزئة ، الأمر الذي كان « في أساس تفكيك عناصر التماسك الاجتماعي القائم ، والوحدة العربية — الاسلامية القائمة على وحدة التراث ، وتشابه البنى والتقاليد ، والعلاقات الانسانية »[6] .

اذن ، يمكننا الاستنتاج أن المؤلف لا ينطلق ، في فكره التاريخي وفي مفهومه للقومية ، من بعد علماني ، بقدر ما ينطلق من مفهوم سلفي ديني . وحتى ضمن هذا الاطار يعتبر نفسه أقرب الى طروحات عبد القادر القباني ، ومحسن الأمين ، والكواكبي ، وشكيب أرسلان ، ورشيد رضا[7] ، منه الى التيارات الفكرية والدينية التي برزت في العصر الحديث وحاولت أن تفسر الاسلام ، من موقع ايماني ، على ضوء التحديات المعاصرة وبما يؤدي الى فصل الدين عن السياسة (خاصة مع علي عبد الرازق وخالد محمد خالد) .

هذه الخلفية الدينية للمؤلف ستؤثر ولا شك على دراسته لتاريخ لبنان والمنطقة العربية ، وسنبين بعضاً من هذا التأثير .

* * *

أولاً — الصاق التهم بأبناء الطوائف الأخرى دون براهين مقنعة :

يتهم الدكتور كوثراني «مظاهر الفكر الليبرالي والعلماني الذي نما في الأوساط الدينية المسيحية السورية ... بأنه يصب ، من الناحية السياسية ، في مشاريع التقسيم الامبريالي للوطن العربي والعالم الاسلامي»[٨] . ويحمل على غالبية المفكرين المسيحيين في فترة النهضة ، ويعتبرهم مرتبطين بالمشروع الفرنسي[٩] . بل انه يعتبر أن فارس نمر ويعقوب صروف وشبلي شميل ، مع آخرين ، من الفئات المعادية «لخط الجماهير» ، وبأن دعوتهم للعلمانية ما هي سوى «مشروع أمبريالي» متلبس لباس التقنية[١٠] . كما يذهب الى التأكيد بأن نجيب العازوري يجهل اللغة العربية[١١] .

لئن كان البعض من المفكرين المسيحيين — من أمثال جورج سمنه وشكري غانم — مرتبطين بالمشروع الفرنسي (بل ربما كانوا موظفين في وزارة الخارجية الفرنسية) ، فإن مفكرين آخرين ، من مثل خير الله خير الله وغيره ، كانوا بعيدين عن مثل هذا الأمر. بل ان وثائق وزارة الخارجية الفرنسية تحذر ، في تقارير متتابعة[١٢] ، من خطر هؤلاء المثقفين ، وتعطي توجيهات لتعطيل فعاليتهم. ولا شك ان الظروف الغامضة التي توفي فيها المثقف اللبناني (العربي) الكبير خير الله خير الله ، في شمال افريقيا ، هي أفضل دليل على أن الاستعمار يعرف بوضوح من هي القوى الواعية التي تشكل خطراً حقيقياً على مصالحه !

ولربما كانت الأيديولوجيا الطائفية ، الكامنة في قاع الدكتور كوثراني ، هي التي حملته على هذا الهجوم الذي جعل من رواد «ايديولوجيا العلم» (شميل — صروف — نمر) اعداء للجماهير العربية ، بينما قدم هؤلاء الى «الجماهير» ، التي يتكلم عنها المؤلف ، واحدة من أعمق التجارب العلمية التي عرفتها النهضة العربية حتى الآن. علماً أننا نوافق على وجود علاقات معينة كانت تربط صروف بالانجليز والاميركيين ، ولكن هذه العلاقات ما كانت — على ما نعتقد — تبلغ حد التبعية والعمالة !! بل ربما كانت بهدف موازنة ومواجهة الهيمنة الفرنسية .

ثانياً — الدفاع عن مواقف أبناء الطائفة والاتهام الجماعي لأبناء الطوائف الأخرى :

ان الانحياز لطائفة المؤلف ، والصاق التهم بطائفة الخصم ، هما — كما رأينا — من المظاهر الأساسية في الفكر التاريخي الطائفي . فالدعوة العربية — بالنسبة الى الدكتور كوثراني — مع المسيحيين ، هي قضية مشبوهة ومرتبطة بالغرب ، ولكنها مع المسلمين هي ظاهرة تقدمية[١٣] . والنزعة المارونية تتفق مع المشاريع العاملة لتقسيم المنطقة[١٤] ، بينما الطوائف الاسلامية تقف موقف المقاومة في مواجهة التغلغل الأوروبي[١٥] . بل ان جميع الاصلاحيين المسلمين لم يدفعهم المأزق الذي وصلوا اليه مع الاتراك الى «الارتماء في احضان أوروبا والمراهنة على مشاريعها التقسيمية»[١٦] . علماً أنه كان هناك مسلمون تعاملوا مع الدول الاوروبية وخدموا مخططاتها التقسيمية في المنطقة (ووثائق وزارات الخارجية الاوروبية خير دليل على ذلك[١٧]) ، وفي المقابل كان هناك موارنة كافحوا النفوذ الاجنبي وناضلوا لانصهار المنطقة وتقدمها .

والدكتور كوثراني لا يرى في تحرك يوسف بك كرم ضد تسوية ١٨٦٤ الا مطامح شخصية[١٨] . علماً أن الوثائق تبرز وقوف كرم مع مشروع دولة عربية مستقلة في سوريا — مع عبد القادر الجزائري — وذلك باستقلالية نسبية عن السياسة الفرنسية في هذه الفترة[١٩] .

ويحاول ، من جهة أخرى ، أن يوجد اسباباً تخفيفية نسبياً لموقف جمال باشا[٢٠] ، متسائلاً عن مدى صحة الاتهام بأن جمال باشا نفسه كان يعمل لتقويض وحدة السلطنة العثمانية ، علماً أن الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع نشرها أمين سعيد[٢١] .

وفي مجال تقييمه لتعامل بعض الموارنة مع فرنسا ، وبعض الدروز مع انكلترا ، يحاول المؤلف أن يوحي بأن التعامل الثاني أقل خطراً من التعامل الأول[٢٢] !

وعندما يتطرق الى التيارات التربوية السائدة في تلك الفترة[٢٣] يورد الدكتور كوثراني تقسيماً شبه ميكانيكي : فمؤسسات التعليم الفرنسية والمارونية تنتج ايديولوجيا صديقة لفرنسا . والمؤسسات الانكلو — أميركية تنتج ايديولوجيا مؤمنة بـ « الديمقراطية الغربية » . اما التعليم الرسمي والاسلامي فينتج ايديولوجيا « الوحدة الاسلامية » و« الوحدة المشرقية العربية » بالشكل الذي ظهرت فيه بين ١٩١٨ و١٩٢٠ ، وهو الشكل الذي يعتبره المؤلف النموذج المثالي للوحدة[٢٤] !

وعندما يتطرق الاستاذ كوثراني الى تفنيد التيارات التي تمحورت حولها القوى الاجتماعية في لبنان والمنطقة قبيل انتهاء الحرب العالمية الأولى وعندما طرحت خريطة المنطقة على بساط البحث في مؤتمر الصلح في باريس (١٩١٩ — ١٩٢٠) ، يورد المؤلف وجود تيارين :

— تيار مؤيد لفرنسا ، أما مطالب بلبنان الكبير ، أو بسوريا الكبرى ، والموارنة ينتمون إليه .

— تيار وطني متمثل بالمؤتمر السوري ومؤيد لفيصل ، وينضوي فيه السنة والدروز والشيعة والروم الاورثوذكس[٢٥] .

إن تحليلاً موضوعياً منطلقاً من استقراء مجمل الوثائق التي تعود الى هذه الفترة يؤكد الحقائق التالية :

أ— كان هناك تيار ثالث طالب بلبنان الكبير دون وصاية فرنسية ، ودون الانضمام الى فيصل . وفي طليعة العاملين تحت لواء هذا التيار « حزب الاتحاد اللبناني »[٢٦] . ولقد قدم هذا الحزب مذكرات مطولة الى مؤتمر الصلح ، رافضاً موقف الوفد اللبناني الذي ترأسه داود عمون ، مشدداً « على استقلال لبنان التام بحدوده الطبيعية »[٢٧] . ومن أبرز شخصيات هذا الحزب : يوسف السودا ، انطون الجميل ، أوغست أديب ، وغيرهم .

وكذلك ، قدمت الجمعية اللبنانية في باريس العرائض الى السلطات الفرنسية ، وشككت في قانونية تمثيل داود عمون للمصالح الحقيقية للبنان ، وطالبت بالاستقلال التام[٢٨] . ومن أبرز أعضائها : عباس بجاني وخير الله خير الله وهيكل هيكل وسيزار باسيم والياس منسى وانطوان زوين وفارس حنا والياس عاد وسعد نجيم وجوزف حويك وفرح فرح وجوزف فرح ونسيب نجيم وغيرهم . وهؤلاء ، كما ذكرنا ، اخضعوا للمراقبة من قبل السلطات الفرنسية بسبب موقفهم الوطني الاستقلالي[٢٩] . وقد عبرت السلطات الفرنسية عن انزعاجها من موقف هؤلاء — ومن بينهم ممثل البطريرك حويك في باريس عمانوئيل خوري واحد أقارب البطريرك — فأوعزت وزارة الخارجية الى نعوم مكرزل بارسال برقية احتجاج الى البطريرك حول هذا الموضوع[٣٠] .

والتقرير الذي وضعته لجنة كينغ — كراين ، بعد قيامها باستفتاء السكان في المنطقة ، أوضح ان ٣٦ عريضة قدمت الى اللجنة تطالب بلبنان الكبير دون وصاية فرنسية[٣١] .

ب— على الرغم من أن أكثرية الموارنة لم تكن مؤيدة لفيصل ، لأسباب لا مجال الآن لتحليلها ، بيد أن شخصيات مرموقة ، في قيادة الحركة الفيصلية ، كانت تنتمي الى الطائفة المارونية . فهناك أسعد داغر ، والخوري حبيب اسطفان خطيب مهرجانات فيصل ، وهناك ابن دير القمر اسكندر عمون الذي شغل منصب وزير العدل في حكومة دمشق ، والذي وصفه أحد تقارير وزارة الخارجية الفرنسية بأنه « الأخطر على مصالح فرنسا والأشد خصومة لها » ، وهناك عدة تقارير عن فعالية دعايته ضد الفرنسيين عند مجيء لجنة كينغ — كراين[٣٢] .

ج— أما اطلاق الحكم العام الحاسم بأن السنة والشيعة والدروز والروم كانوا مؤيدين ، بمجموعهم ، لفيصل ، وأنهم شكلوا « التيار الوطني » في تلك المرحلة ، فهو أمر ينم عن جهل مطبق بواقع القوى والتيارات السياسية ضمن هذه الطوائف . فلو تجشم الدكتور كوثراني مشقة الاطلاع على وثائق وزارة الخارجية

الفرنسية لوجد أن هناك عشرات بل مئات العرائض لأشخاص من جميع الطوائف طالبوا بلبنان الكبير، أو بالوصاية الفرنسية، وكانوا من المناهضين للمشروع الفيصلي، ولوجد أيضاً أن العديد من الشخصيات «الوطنية» — في نظره — كانت متعاونة مع الفرنسيين. وحسبنا أن نعطي عينة ضئيلة عما ذهبنا اليه.

فالأمير مختار الجزائري وحقي العظم مع الوصاية الفرنسية على سوريا[٣٣]. واجتماع لوجهاء الطائفة الاسلامية في بيروت يطالب أيضاً بالوصاية الفرنسية. ومن ابرز هؤلاء: عبد القادر القباني، أحمد قباني، مصطفى المخزومي، الشيخ عبد الكريم أبو النصر[٣٤]. وعزت العابد، واعضاء من عائلة الكيلاني، ومؤيد وطاهر عبد القادر، وغيرهم، يؤكدون ولاءهم لفرنسا[٣٥]. وعرائض من مسلمي بيروت تطالب بالوصاية الفرنسية[٣٦].

ومن جهة أخرى، مسؤول الاتصال الفرنسي في دمشق (Cousse) يطلب من وزارة الخارجية زيادة الدعم المالي والمعنوي للصحف السائرة مع الفرنسيين (الحقيقة، البلاغ، الاقبال، الاضحى)[٣٧].

وعلى صعيد الشيعة، نجد عرائض كثيرة من أهالي الجنوب تطلب الانضمام الى لبنان الكبير[٣٨]. وبنفس المعنى تقريباً هناك عرائض من شيعة بعلبك[٣٩]. وكذلك هناك تقارير تشير الى تحول في صفوف المتاولة الى جانب فرنسا[٤٠].

أما بالنسبة الى الدروز، فشيخ عقل بعقلين مع الفرنسيين[٤١]. والتيار الجنبلاطي كان، على ما يبدو، مؤيداً في أكثريته للفرنسيين[٤٢]. وثمة وثيقة يتعهد فيها فارس بن سعيد الاطرش، ومتعب بن هلال الاطرش، وسليمان بن عبدو الاطرش، بخدمة الحكومة الفرنسية، ومن يتراجع يدفع نسبة غير قليلة من المال[٤٣].

أما بالنسبة الى طائفة الروم الاورثوذكس، فهناك تقرير من الضابط

Thouroude عن كيفية استقباله بالعراضة والحمل على الاكتاف في الاشرفية من قبل الاورثوذكس[٤٤]. وأورثوذكس الكورة يقفون بنسبة كبيرة منهم مع الفرنسيين[٤٥].

وفي مؤتمر عقده اللبنانيون المغتربون في أميركا الجنوبية (من الروم الكاثوليك والارثوذكس والموارنة والدروز والشيعة) يتخذ المؤتمرون قراراً بتأييد الوصاية الفرنسية على سوريا ولبنان[٤٦].

اننا، اذ نعرض الوثائق والتقارير الموجودة في وزارة الخارجية الفرنسية كدليل على تهافت رأي الدكتور كوثراني، في احكامه العامة واللاعلمية، فمن الجدير بنا أن نسجل بعض التحفظ على الصحة الكاملة لتلك التقارير، ولكن، مهما كان تحفظنا صارماً، فمن الواضح تماماً وجود تنوع في المواقف السياسية، داخل كافة الطوائف اللبنانية، بالنسبة الى الموقف من لبنان الكبير أو التعاون مع فرنسا. علماً أننا نسلم، مثلاً، بوجود أكثرية مارونية تقف مع لبنان الكبير والوصاية الفرنسية، وأكثرية سنية تفضل الانضمام الى سوريا الفيصلية.

لكن ما مدى صحة اطلاق صفة الوطنية على موقف فيصل؟

د — بالرغم من وجود تيارات، في الحركة الفيصلية في الشام، كانت تشكل بذور نهضة عربية طامحة الى تحقيق الاستقلال والتقدم الاجتماعي على أسس بعيدة عن الطائفية التعصبية، فإن مختلف التقارير تؤكد أن الصراع الحقيقي كان بين الانجليز ومن يؤيدهم من جهة، وبين الفرنسيين ومن يؤيدهم من جهة أخرى. أما القوى الاستقلالية الحقيقية — اللبنانية والعربية — فلم يكن في مقدورها أن تحسم في نتائج الصراع!

كان الانجليز أكثر ذكاء في تحركهم، فقد «تلطوا» وراء شعارات جذابة (كالقضية العربية، والوحدة، والاستقلال الخ...). بينما كان الموقف الفرنسي

مكشوفاً أكثر. لكن، في العمق، كان كلا الموقفان استعمارياً يستعمل الترغيب والترهيب للوصول الى أهدافه !

فالأكيد أن فيصل كان يقبض من الانكليز جعالة شهرية (مبلغ ١٤٠ ألف ليرة استرلينية شهرياً على الأقل)[٤٧] . وكان لورنس، الضالع في العمل لسيطرة الصهيونية على فلسطين[٤٨] ، يحضر اجتماعات فيصل الرسمية والخاصة، ويكتب رسائله ومذكراته، ويعد له اتفاقاته، ويترجم له في مقابلاته، بل كان يضع له شعاراته واقواله[٤٩] .

بينما كانت السياسة الفرنسية أقل سخاء على مؤيديها —علماً بأنها كانت تدفع لبعض القيادات— ولكنها كانت تعارض توسيع فلسطين، خاصة في حدودها الشمالية، الأمر الذي جاهد الصهاينة ولورنس لتحقيقه، علماً أن هذا الموقف كان نابعاً من مصالحها هي أكثر مما كان منبثقاً عن موقف مبدئي مناهض للمشروع الاستيطاني الصهيوني في المنطقة.

فإذا كان الأمر كذلك فما هو المعيار الذي على اساسه وزع الدكتور كوثراني «شهادات الوطنية» على البعض وحجبها عن البعض الآخر؟ انها الايديولوجيا الطائفية التي توجه الكتابة التاريخية، بل ربما مصطلحات هذا «الزمن الرديء» حيث تطلق التهم بحق هذه «الطائفة الانعزالية» وتتم الاشادة بذلك «الشارع الوطني»!؟

هـ— وتأسيساً على ما تقدم، لا يمكن تقييم هذه المرحلة التاريخية الدقيقة بالتبسيط المعهود المرتكز على الأفكار المسبقة، واطلاق التهم الجماعية بحق طوائف بكاملها، الموارنة مثلاً، والزعم بأنهم كانوا هم المسؤولين عن تقسيم المنطقة، وأنهم حالوا دون تحقيق الاستقلال والوحدة.

ان عوامل الالحاق والتفكك— في الماضي وفي الحاضر— يجب أن نفتش عنها— بالنسبة الى منطقتنا— في جوانب عدة، بالاضافة الى الاطماع الاستعمارية

والمخططات الصهيونية، وخاصة في البنية الطائفية التي تقسم مجتمعاتنا عمودياً بحيث تشكل الأرض الخصبة للتغلغل الاستعماري والصهيوني. وفي هذا السياق، يجدر بنا أن نشير الى تخلف الايديولوجيا الاسلامية والمسيحية، وقصور الانتلجنتسيا التغييرية في فهم مكامن التخلف في هذه الايديولوجيا وطبيعة الرد ومقتضيات الصراع الحضاري الشامل وابعاده.

ومن حقنا التساؤل: الى أي حد يمكن اعتبار الفكر التاريخي عند مثقفين كالدكتور كوثراني عامل صحة وبشير نجاح في حلبة الصراع، ما دام هذا الفكر يعتبر نفسه معادياً لانصهار المجتمع على قاعدة العروبة العلمانية، وما دام هذا الفكر يؤيد ويدعم أولوية الانتماء الديني والطائفي على الانتماء الوطني؟!

ثالثاً— محاولة اعطاء البراهين على أن الكيان اللبناني هو ظاهرة مصطنعة من الوجهة التاريخية:

يذهب الدكتور كوثراني الى القول بأن الامارة المعنية والشهابية لم يكن لها أية خصائص مميزة عن سائر المقاطعات التي تشكل السلطنة العثمانية[٥٠] ، وظاهرة فخر الدين والأمير بشير أعطيت تفسيرات «استقلالية» و«قوموية» من قبل الصياغة التاريخية الكولونيالية، التي تكرس وتحمي التجزئة السياسية في المشرق العربي[٥١] .

ويطلق الدكتور حكماً لا يقبل النقاش وهو أن المناطق التي ضمت الى المتصرفية عام ١٩٢٠ ليتشكل لبنان الكبير منها مجتمعة لم تشملها التسمية (أي لبنان) قبل هذا التاريخ[٥٢] .

إن الموقف الذي يتخذه المؤلف من خصوصية الامارة، وخاصة تقييمه لشخصيتي فخر الدين وبشير، تتطلب مناقشته بحثاً على حدة. وسنكتفي الآن ببعض الملاحظات الأولية. لكن قبل التطرق الى عرض هذه الملاحظات نود أن نشير الى وجود خطأين في النظرة التاريخية الى الامارة اللبنانية:

— نظرة الايديولوجية الطائفية المسيحية التي تسبغ على هذه الفترة النعوت الاستقلالية والتمايز الشامل عن البيئة العربية المحيطة خاصة، وعن السلطنة العثمانية عامة .

— نظرة الايديولوجية الطائفية الاسلامية التي تقفز فوق الواقع الجغرافي والتاريخي — الاقتصادي والسياسي والسوسيولوجي — للامارة المعنية والشهابية، وتعتبر أن لا تمايز مطلقاً بينها وبين سائر مقاطعات السلطنة، وان الاستعمار هو الذي خلق التمايز الجزئي اذا وجد .

والحقيقة أن الامارة كان لها خصائصها الذاتية المتميزة ولكن في الآن ذاته كانت تخضع لأنماط مشتركة مع سائر التشكيلات المكونة للسلطنة العثمانية :

أ— الموقع الجغرافي والتركيب السكاني الاقلوي :

ان الطبيعة الجبلية كانت أحد أهم العوامل التي أدت بالاقليات المضطهدة في الداخل الى اللجوء الى القمم والوديان الوعرة في هذه البلاد[٥٣] . وتمكنت هذه الأقليات، بذلك، أن تمارس حرياتها، وخاصة الدينية، بعيداً عن رقابة السلطة المركزية في الداخل[٥٤] . والاضطهادات لم تكن دائماً من المسلمين للمسيحيين، فالموارنة هربوا من مضايقات السلطة البيزنطية[٥٥]، والروم الكاثوليك هربوا الى لبنان، أبان القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، اتقاء لمضايقات الروم الاورثوذكس[٥٦] .

وفي عهد الأمير بشير الشهابي الكبير حدثت هجرة من نصارى بلاد الشام الى لبنان بسبب القيود التي فرضت عليهم، كما أن الدروز الذين اضطهدوا في منطقة حلب استقدموا للاستيطان في الشوف والمتن، وتقاسم البشيران (شهاب وجنبلاط) نفقات نقلهم الى لبنان في عام ١٨١١[٥٧] .

ان الموقع الجبلي للبنان كان له الدور الواضح في اعطاء تركيبه الديمغرافي

طابعاً معيناً: ففي احصاء لذكور لبنان أجرى عام ١٨٣٩ (من سن ١٤ الى سن ٧٠) نجد أن العدد يبلغ ستين ألف ذكر، منهم ٣٠ ألف موارنة، ٩ آلاف من الدروز، والسنة ألف، والشيعيون ثلاثة آلاف[٥٨] . بينما في «أخبار الاعيان» نجد احصاء آخر، ان مجموع النصارى ٨٧٧٢٧ والدروز ١٣٠٢٣ والسنة والمتاولة ٦٧٤٤[٥٩] .

والطابع الديمغرافي الخاص هذا كان له أثره في اعطاء الامارة بعض الخصائص الذاتية الواضحة .

ب— التمايز في ملكية الأرض بين الامارة وأراضي الولايات :

من شبه المتفق عليه بين مؤرخي السلطنة العثمانية أن نظام ملكية الأرض، في الأقاليم العربية التابعة للامبراطورية العثمانية، كان معقداً الى أقصى حد. ولكن، يتضح، بشكل عام، انه كان هناك ثلاثة أصناف رئيسية :

— أراضي الدولة — أي الاراضي الاميرية أو «الميري» — وكان السلطان نفسه يعتبر مالكها الأعلى.

— أراضي المؤسسات الدينية، أي الأوقاف.

— الأراضي الخاصة، أي الملك الصرف.

هذا بالاضافة الى نظام الملكية المشاعية للاراضي[٦٠]، وكذلك الاراضي الموات .

وعلى الرغم من أن مصادر متنوعة وموثوقة تبين وجود تباين بين الاقطاع الذي كان سائداً في أيام الصليبيين[٦١] المماليك[٦٢]، في لبنان، بالنسبة الى المناطق الداخلية، ومن المفترض أن يبقى هذا التمايز مستمراً في الفترة العثمانية، الا أن الاستاذ دومينيك شوفالييه[٦٣] يعتبر أن الملكية في لبنان غير متمايزة عن الطابع العثماني العام — علماً أنه يقر بخصوصية الوراثة فيها — ويعتبر ان دفع

الضريبة ما هو الا دليل على كون الاملاك هي ملك للسلطان، ما عدا بعض ما يعرف باسم الاوقاف. وما اعتبره بعض الموارنة ملكية تامة ما هو الا ملكية تصرفية، وهو أمر كان موجوداً في مناطق أخرى من السلطنة.

لكن هناك آراء أخرى مناقضة لرأي الدكتور شوڤالييه.

ففولني يعتبر الملكية في جبل لبنان عند الموارنة والدروز هي ملكية حقيقية، بينما العكس هو الصحيح في سوريا، حيث المالك الحقيقي للملكية المنقولة وغير المنقولة هو السلطان[٦٤].

والأب مارون كرم، مستنداً الى صكوك وسجلات من جبل لبنان ومناطق الولاية، يؤكد أن بين الملكية في جبل لبنان والملكية في الولايات فرقاً جوهرياً. في الجبل كانت حقيقية بحيث كان للمالك حق التصرف التام بملكه من بيع ورهن وهبة ومقايضة ومشاركة... وكان على هذا الحق كثير من الموجبات. أما في الولايات فلم تكن الملكية حقيقية مثلها اليوم، بل شكلية فقط، وللمزارعين والأهلين حق الانتفاع والاستثمار لا غير[٦٥].

ويؤكد الدكتور أدمون رباط خصوصية الملكية في جبل لبنان، معتبراً أنه، بخلاف نظام الاقطاع المعتمد في باقي المناطق الاسلامية وفي الفيودالية الغربية، كان الفلاح في جبل لبنان يحتفظ بكامل الحرية الشخصية، واستطراداً بامكانية الملكية الخاصة[٦٦].

انطلاقاً من هذين الموقفين المتباينين من قضية الملكية في الامارة اللبنانية — حيث الدكتور كوثراني يعتمد الرأي الأول — ما هو الموقف الذي نراه أقرب الى الموضوعية؟

ان الفارق الأساسي بين الملكية في الامارة وباقي مناطق السلطنة يبدو أنه يكمن في تباين نسب أشكال حقوق الملكية أكثر منه في تباين الاشكال القانونية العامة للملكية. وبشكل عام يمكننا ملاحظة الفروقات التالية:

— إرتفاع نسبة الاراضي المملوكة من الافراد في الامارة عنها في باقي ولايات السلطنة.

— ارتفاع نسبة الاوقاف.

— ضعف أهمية الاراضي الاميرية (البيليك خاصة*) في جبل لبنان، بسبب عدم خصوبتها من جهة، وبسبب الضعف النسبي للسلطة المركزية العثمانية فيه من جهة أخرى.

— التحول المبكر للاراضي الاميرية شكلياً الى أراضي ملك فعلياً.

— ضعف أهمية الاراضي الموات بسبب الكثافة السكانية في الجبل اللبناني.

ج — بعض ميزات الامارة في القضاء والممارسة الدينية والتعليم:

في مجال القضاء، اعترف المؤرخ التركي جودت باشا، وزير المعارف، في الجزء الأول من تاريخه ص ٣٥٤، بالاستقلالية النسبية للامارة: «وكانوا (الامراء الشهابيون) في ادارتهم الداخلية وأحكامهم مستقلين، فلا يقدر أحد من حكام الدولة أن يتداخل في أمورهم الداخلية، حتى أن أهل الجنايات الذين كانوا يلجأون اليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على أنفسهم، وذلك لأنه كان من الأصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب اليهم ويحتمي بهم، فكان الولاة لذلك لا يقدرون على استرداده. وكان لهم امتيازات في سائر الخصوصيات على هذا الوجه. وكان حاكم الجبل اذ ذاك مرجعاً لحكام العشائر الموجودين في نواحيه. وكذلك غيرهم من الامراء والمشايخ القاطنين في اطراف الجبل كانوا خاضعين لهذه الطائفة الشهابية، فلا يقدر أحد من كبرائهم أن يقاومها بل

* كانت الأراضي الاميرية تقسم الى قسمين:
(١) البيليك: أي ملك السلطان الخاص.
(٢) الاراضي الاميرية العادية التي، مع مرور الزمن، أصبحت أكثر فأكثر في تصرف الافراد (خاصة في البقاع وعكار)، وأصبح حق الرقبة (Abusus) - الذي هو للدولة نظرياً — في متناول مستثمري الأرض فعلياً.

يوافقون على ما أرادوه ، وعلى الأخص مشايخ بلاد بشارة وحاصبيا وراشيا الذين هم أهل وادي التيم . وكذلك مشايخ بعلبك والضنية فإنهم كانوا في كل حال يراجعون الأمير الشهابي حاكم الجبل في عظائم الأمور من كمال التعظيم له »[٦٧] .

وقال الأب أوجيني روجيه ، وهو رحالة أوروبي ، بالنسبة الى الموارنة :
«وليس لهذا الشعب من قضاة سوى البطريرك والأساقفة يفصلون كل الخلافات ، وهكذا فلا علاقة للسلطة العثمانية بالدعاوى التي تنشأ بين الموارنة»[٦٨] .

وكان المشايخ الدروز يطبقون سرياً شرائعهم السرية الدرزية فيما يتعلق بالقضايا العائلية والدينية في طائفتهم ، وكانوا يموهون هذه الأحكام بمظاهر وشكليات الشريعة الاسلامية[٦٩] .

وعلى صعيد آخر ، كان هناك استقلال نسبي لبطاركة الطوائف وحرية أكثر ، وخاصة في بناء الكنائس والاديار والمحابس والمدارس ، حيث لا ضرورة الى استئذان السلطة الزمنية أياً كانت ، اذ يكفي لذلك ترخيص البطريرك أو الاسقف في أبرشيته . علماً أن هذا الأمر كان يتطلب ، خارج الامارة ، طلب رخصة من الاستانة أو من السلطة المحلية[٧٠] .

ولقد كان لوجود الارساليات الأجنبية ، والمدارس التي فتحتها ، والنشاط الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي قامت به ، الدور الهام في تطوير أوضاع الطوائف اللبنانية على المستوى العلمي ، الأمر الذي أعطى الامارة وضعاً خاصاً ، وجعلها فيما بعد تلعب دوراً هاماً في النهضة العربية الحديثة . وليس من قبيل الصدفة أن تشهد الامارة قيام مطبعة دير قزحيا ، ومطبعة الشوير[٧١] . وليس من قبيل الصدفة أن يلعب خريجو المدرسة المارونية في روما دوراً مزدوجاً : نقل تراث الشرق الى الحواضر العلمية في الغرب ، ومحاولة وضع الاصلاحات لمؤسسات الطوائف المسيحية في الشرق (المجمع الماروني في اللويزة ١٦٣٦ ودو السمعاني فيه)[٧٢] .

د ــ الامارة كانت منطلق التدخل الدولي في المنطقة :

ان الموقع الجغرافي ، والتركيب الديمغرافي للامارة ، بالاضافة الى ضعف السلطنة العثمانية من جهة ، والاطماع التوسعية للدول الاوروبية في المنطقة من جهة اخرى ، هي عوامل هامة في تفسير العديد من الاحداث التي عرفها تاريخ لبنان الحديث .

فبين تعاون الأمير فخر الدين مع الغرب[٧٣] ، ومبادرة الامير يوسف الشهابي للتعاون مع روسيا[٧٤] ، وتحالف الأمير بشير مع محمد علي بمباركة فرنسا ونجاحها الجزئي والمؤقت في السيطرة على المنطقة[٧٥] . وتسوية بروتوكول ١٨٦٤ التي أدت الى قيام المتصرفية[٧٦] ، بين كل ذلك ثمة خط رابط لا يمكن تفسيره الا اذا وقفنا عند نقاط أساسية منها :

— ان الأقليات المشكلة للامارة ترفض استمرار السيطرة الأكثرية الخارجية ، وتسعى الى تثبيت هويتها السياسية الخاصة .

— ان الدولة العثمانية تزداد ضعفاً وتفككاً وتتفاقم فيها جملة مشكلات .

— ان الدول الأوروبية ، وبخاصة فرنسا وانكلترا ، والى حد ما روسيا ، تتوسل مشكلات الأقليات في السلطنة لفرض مصالحها وتزايد تدخلها كمقدمة للسيطرة المباشرة عندما تحين الفرصة .

من هنا كانت الامارة اللبنانية مجال اهتمام دولي ، ليس لأهميتها الذاتية فحسب ، بل لكونها مدخلاً يمكن الولوج من خلاله للسيطرة على سورية التي قال فيها نابوليون : من يسيطر على سوريا يسيطر على مفتاح آسيا .

هذا ردنا ، باقتضاب ، على الموقف الطائفي للدكتور كوثراني من الامارة . وعلى صعيد آخر ، ماذا نقول عن الحكم المطلق الذي أبرمه حول عدم وجود أية علاقة رسمية بين لبنان المتصرفية والمناطق التي ضمت اليه عام ١٩٢٠ ؟

هذا الجانب يتطلب هو الآخر بحثاً مطولاً على حدة ، لكن حسبنا أن نلفت نظر الدكتور كوثراني الى بعض المراجع التي تدحض زعمه ، والتي تعود الى ما قبل عام ١٩٢٠ :

فقد ذكر طنوس الشدياق ان لبنان هو جبل... طوله من عكار الى الكرمل [٧٧] .

والبطريرك بولس مسعد[٧٨] اعتبر «ان جبل لبنان ، كما يشهد علماء الجغرافية ، يبتدي لجهة الشمال من حدود جبال النصيرية الفاصل بينه وبينها لجهة الجنوب عند مرج ابن عامر الى شرقي عكا — ويضيف — والجهة الشرقية الممتدة نحو البلاد العربية مستطيلاً لتحت دمشق يسميها اليونان انطيليبان أي مقابل لبنان ومنه جبل الشيخ فوق حاصبيا (الذي ارتفاعه عن مساواة البحر نحو عشرة آلاف قدم وقد سماه أبو الفدا جبل سنير وجبل الثلج) ويتوسط بينهما سهل أو وادي متسع يسمى البقاع» .

والأب غبرئيل يعطي تحديداً مشابهاً[٧٩] .

ويبدو أن الدكتور كوثراني لم يطلع أيضاً على كتاب بولس نجيم حول المسألة اللبنانية لأنه يؤكد في صفحة ١١ وص ٢٢٨ ان المطالبة بتوسيع حدود جبل لبنان لم تبدأ الا بعد عام ١٩١١ ، علماً أن صاحب كتاب «المسألة اللبنانية» كان من كبار المنظرين لتوسيع حدود لبنان[٨٠] ، وقد طبع كتابه عام ١٩٠٨ .

والأب لامنس منذ عام ١٩٠٢ اعتبر «ان حكومة لبنان المستقلة لا تملك الا جزءاً لا يتجاوز ثلاثة اخماس لبنان الجغرافي... أما حدود لبنان الجغرافية فهي تمتد من البحر المتوسط غرباً ، الى النهر الكبير شمالاً ، الى العاصي شرقاً ، الى الليطاني جنوباً... وقد سلخوا عن لبنان قائمقاميتي طرابلس وعكار شمالاً ، وقائمقامية صيدا جنوباً ، وأغرب من هذا ما سلخوه من الجهة الشرقية حيث الحدود الطبيعية ظاهرة للعيان يكفي فيها اتباع مجرى العاصي والليطاني...»[٨١] .

والأستاذ يوسف السودا ، من خلال مذكرات «حزب الاتحاد اللبناني» ، ومن خلال مؤلفاته خاصة «في سبيل لبنان» ، انتقد المادة الثالثة من البروتوكول التي حصرت لبنان «ضمن حدود خانقة فسلخت عنه المدن والسهول التي اعطته اياها طبيعة البلاد الجغرافية مثل بيروت وصيدا وطرابلس والبقاع...»[٨٢] .

ثم هناك الجمعيات السياسية في المهاجر ، والتي تعد بالعشرات ، وكلها وضعت في برامجها تحقيق لبنان الكبير . فهذه جمعية النهضة اللبنانية في نيويورك ، تضع في المادة الخامسة من برنامجها :

«٥ — تمديد لبنان بعد تقلصه ، أي اعادة حدوده الأولى والطبيعية اليه ما بين نهري القاسمية والعاصي . ومعنى ذلك أن تكون حدوده كما كانت على عهد أمرائه الأصلاء من القاسمية الى جبل الشيخ الى لبنان الشرقي الى حمص فالنهر الكبير ، وهي حدود تتناول بيروت وطرابلس وصيدا والسهول المحيطة به — اللبنانيون لا يطلبون التوسع بهذه المطالب بل اعادة الحدود التي انتزعها المنتزعون اليهم»[٨٣] .

وبالاضافة الى ذلك ، هناك عشرات العرائض ممهورة من أناس ينتمون الى طوائف اسلامية ومسيحية طالبت ، عشية مؤتمر الصلح ، بلبنان الكبير .

إن توقفنا ، باقتضاب ، عند بعض خصائص الامارة اللبنانية ، واثبات أن لبنان ، بحدوده الحالية ، لم يكن فقط وليد ارادة الأجنبي ، كان لا بد منه للرد على الايديولوجية الاسلامية الطائفية ، أو العروبية الرومنطيقية — بما فيها موقف الدكتور كوثراني — وهي التي تحاول ، تحت شعارات عامة كالوحدة أو التجزئة الاستعمارية والتاريخ الكولونيالي وما اليها ، أن تقفز فوق حقائق الواقع التاريخي . علماً أن معالجتنا لهذه الخصوصية ليس من أهدافه ايجاد أسس لتكريس التباعد بين لبنان ومحيطه العربي ، شأن ما يفعل البعض ، بل بهدف الانطلاق من حقائق الواقع وبناء التفاهم ، وبالتالي ، التعاون العربي ، على أسس جديدة ومفاهيم علمانية وديمقراطية انسانية .

رابعاً — تبسيط بعض الاسباب لأحداث تاريخية ومحاولة الاقلال من شأنها :

يعتبر الدكتور كوثراني ان «الكثافة السكانية في كل من كسروان والمتن والشوف وجزين تفسر الى حد لما كانت هذه المناطق خلال عشرين سنة من الزمن (١٨٤٠ — ١٨٦٠) مسرحاً رئيسياً للانتفاضات الفلاحية»[٨٤] . وعلى الرغم من استدراكه لضعف هذا التحليل ، يحاول في الصفحة ٦٨ أن يفسر الصدام الذي حصل في الشام عام ١٨٦٠ بأنه نتيجة «التناقض الرئيسي بين جماهير اسلامية تعيش على الحرف ، والانتاج الزراعي ، والتجارة الداخلية من جهة ، وبين التغلغل الاستعماري الذي شكل «غنى» المسيحيين رمزه المحلي ، من جهة ثانية» . وضمن الخط التبسيطي ، ذي الخلفيات الطائفية ، يشرح الانتفاضة الفلاحية في كسروان ويحاول أن يربط «مطالبها الديمقراطية» — بشكل ميكانيكي — بالتنظيمات العثمانية كخط كلخانة (١٨٣٩) وخط همايوني (١٨٥٦)[٨٥] .

من الواضح ، اذن ، ان اندلاع الفتن الطائفية يتحمل مسؤوليته المسيحيون. ومن الواضح أن المؤلف يحاول أن يعطي الصراع بعداً طبقياً (المسلمون فقراء ، والمسيحيون أغنياء) ، ثم أنه يحاول أن يطمس كل جوانب الوعي الاجتماعي لدى الفلاحين والاكليروس في كسروان ابان انتفاضتهم ، وبالتالي دور أشخاص كالبطريرك بولس مسعد[٨٦] والياس المنير[٨٧] ، علماً أننا لا نقلل من أهمية السبب الذي ذكره .

حاشا أن نزعم أن المسيحيين أو الموارنة لم يكونوا مسؤولين وبنسبة غير قليلة عن اندلاع الفتن الطائفية (١٨٤٠ — ١٨٦٠) ، لكن المنهجية العلمية — البعيدة عن كل ميل طائفي — تفرض علينا أن نولي الظروف الداخلية لمختلف الطوائف ، والتدخلات الأجنبية وتشعباتها (العثمانية والأوروبية) ، الأهمية اللازمة عند تصدينا لبحث «الحركات» والفتن التي عرفها لبنان ابان القرن الماضي . لكننا قبل أن نعرض أسباب الفتن — وقد بسطها الدكتور كوثراني واعتبر المسيحيين مسؤولين

عنها ، كما اعتبر الأب ضو الدروز مسؤولين عنها — يجب علينا أن نورد ملاحظتين :

— ان المجال لا يسمح لنا بالتوسع ، وبالتالي فنحن سنقتصر على الخطوط العامة .

— ان مجمل الأسباب التي سنعرضها كانت متداخلة ومتفاعلة فما بينها ، وان فصلها ما هو سوى عمل تجريدي بحت .

أ — الأسباب الداخلية للفتن :

— زيادة الضرائب وانخفاض قيمة النقد[٨٨] (٥ مرات على الأقل) ، واستخدام النهب المباشر لممتلكات المشايخ الدروز[٨٩] ، واعطاؤها للأغنياء المسيحيين وللكنيسة المارونية .

— كان الأمير بشير الكبير يشجع انتقال الفلاحين الموارنة الى الأراضي الحرة في وسط لبنان[٩٠] ، كما حطم القيادات الاقطاعية الدرزية ، خاصة بشير جنبلاط الذي اعتبر القضاء عليه ضربة أصابت الطائفة الدرزية بأكملها .

— معاملة المصريين السيئة للدروز (ضرائب ، تجنيد ، قمع ونفي ...) ، بعكس حسن المعاملة التي نعم بها النصارى — خاصة في الفترة الأولى من الحكم المصري . وبعد أن عاد زعماء الدروز من منفاهم بعد عام ١٨٤٠ وجدوا أقاربهم وأصدقاءهم في حالة يرثى لها ، فيما نعم النصارى بنوع من البحبوحة والرخاء[٩١] .

رفض النصارى القاطنون في المناطق الدرزية اعادة سيطرة المقاطعجية الدروز (جباية الضرائب ، المحافظة على الأمن ، وخاصة ممارسة السلطة القضائية في الشؤون المدنية والجزائية) ، الأمر الذي اعتبره اعيان الدروز تحدياً لسلطتهم ويجب مواجهته بالقوة .

— بذور التململ الاجتماعي والفكري ، ذلك أن التوازن الداخلي بين الدروز والموارنة كان على تحول[٩٢] ، كما كان التوازن الداخل في قلب الطائفة المارونية نفسها على تحول أيضاً . فقد رأت عائلات الجبل الاقطاعية أن سلطتها المحلية أخذت تنهار شيئاً فشيئاً بفعل تحديين : تحدي الاكليروس الذي كان يستعمل أحياناً نفوذه المتزايد لدعم الفلاحين في نزاعهم مع أسيادهم ، وتحدي تجار المرفأ الأوروبيين والشرقيين معاً الذين كانوا يستوردون البضائع المصنوعة ويصدرون الحرير ويستولون تدريجياً على وظائف الملاكين الاقتصادية ... كان ، اذن ، لهذا التوتر وللأزمة التي أدى اليها وجهان : كفاح الدروز للاحتفاظ بسيطرتهم التقليدية ، وكفاح أعيان الموارنة ضد قوى التغيير[٩٣] .

ب— الأسباب الخارجية للفتن :

— إن الوثائق الرسمية المتوفرة في سجلات وزارتي الخارجية في لندن وباريس تثبت بما لا يرقى اليه الشك أن الفتنة في لبنان لم تكن مجرد حادث محلي[٩٤] . فقد جاء في تقرير للسفير البريطاني في اسطنبول الى وزارة الخارجية البريطانية : «... ومن جهة أخرى هناك أناس لا يقلون عن هؤلاء تطرفاً في اتهامهم الأتراك ، يقولون أن هذه الأحداث ليست سوى مؤامرة هدفها القضاء على الطائفة المارونية على أيدي الدروز ، ثم القضاء على الدروز انفسهم قصاصاً لهم عما فعلوه بالموارنة ، وفي آخر الأمر يفلح الأتراك في تثبيت سيادتهم»[٩٥] .

— كان القناصل جميعاً يزكون نار التفرقة ويغذون الانقسام ويرشون الانصار . وكان الموارنة حصة فرنسا ، والدروز حصة بريطانيا ، والروم الأرثوذكس نصيب روسيا ، والروم الكاثوليك يتأرجحون بين فرنسا والنمسا وسردينيا[٩٦] . وقد كان طموح السياسة العثمانية الى فرض الرقابة المباشرة على جبل لبنان من أسباب ركون الطوائف الى القنصليات الأجنبية .

— كان ثمة دوافع اقتصادية (حرير ، رساميل ، مواصلات»[٩٧] ، وثقافية

(مدارس وارساليات) ، ودينية (زعامة الكاثوليك وتحسين موقف نابوليون الثالث ازاء البابا بعد تأييد فرنسا للوحدة الايطالية) ، وخاصة سياسية (مسألة قناة السويس وتقاعس السلطان عن اصدار فرمان البدء بحفرها تحت وطأة ضغط المعارضة الانجليزية ، وامكانية السيطرة على سوريا)[٩٨] . كل هذه الدوافع وغيرها كانت تحرك الفرنسيين لاستغلال صداقة الموارنة لهم . كما أن الانجليز في المقابل ، كان لهم دوافع مضادة تحملهم على استغلال صداقة الدروز لهم لمواجهة المخططات الفرنسية .

— كان الوفاق الذي تم التوصل اليه بين الفرنسيين والانجليز ، حول لبنان والمسألة السورية ، قد اختل ، وأخذت الدعاية الانجليزية تتصاعد ضد الفرنسيين . وزاد التأزم بين الدولتين ، في تلك الفترة ، مشكلة «تاهيتي» ، وقضية بريتشارد (L'affaire Pritchard) التي أحدثت هيجاناً في الرأي العام الفرنسي ، الأمر الذي حدا بالحكومة الى اعتزام التدخل العسكري في سوريا اذا لم يتراجع الانجليز عن مواقفهم[٩٩] .

— قال القنصل الفرنسي ادموند دي ليسيبس عام ١٨٥٩ متحدثاً عن خلفه في منصب القنصلية بونتيفوليو : «بعد ستة أشهر سيغرق لبنان في النار والدماء وسيكون بونتيفوليو من المساعدين على هذا»[١٠٠] .

— أشار كارل ماركس ، في مقال له في جريدة نيويورك ديلي تريبيون ، الى أن العملاء الفرنسيين بالذات هم الذين نظموا المعركة السياسية الدينية على الساحل السوري[١٠١] .

— ومن المتفق عليه أن عملاء الانجليز قدموا المساعدة الى الدروز . ولقد شارك الكولونيل تشرشل سراً في وضع خطط الدروز الحربية (وخاصة عملية الاستيلاء على زحلة)[١٠٢] .

خامساً— النظرة اللاعلمية الى الترابط الجدلي بين تخلف الايديولوجيات الطائفية الاسلامية والمسيحية :

يرفض الدكتور كوثراني أن يبحث تصرف الموارنة— أو على الأصح أكثريتهم— في اطار رد الفعل على تخلف الايديولوجيا الموجهة للأكثرية الاسلامية ، وخاصة عدم حسم الفصل بين الدين والدولة ، ويتبع منهجية تبريرية تلصق التهم دائماً بالاستعمار ، وبالطائفيين الاخرين ، ولا يحاول أن يرى— بالاضافة الى عامل الاستعمار الذي لا نقلل من شأنه— مكامن التخلف والتجزئة الفعلية في البنية الموضوعية للتشكيلات المكونة للمجتمعات العربية .

فموقف الطوائف— في رأي الدكتور كوثراني— تمايز بعد التغلغل الرأسمالي[١٠٣] . ولكن ، اليس صحيحاً أيضاً أن هذه الطوائف كانت متمايزة أيضاً قبل نشوء الرأسمالية ، وذلك في اطار مفهوم أهل الملة وأهل الذمة ؟

والعصبية المارونية— في رأي المؤلف— هي وليدة الامبريالية والثقافة الغربية[١٠٤] . والكيان اللبناني تحكمت في عزلته ردحاً من الزمن تركيبة اجتماعية— طائفية ، تغذت بثقافة «عنصرية» معادية للعروبة والاسلام ، ومرتكزة الى النشاط الارسالي والاستشراق الكولونيالي[١٠٥] .

فمن جهة ، وقبل مجيء الامبريالية والثقافة الغربية ، كانت المنطقة تعيش واقعاً مستمراً من الصراعات والعصبيات القبلية— الطائفية .

ومن جهة أخرى ، هذه الصراعات لم تكن فقط بين الطوائف المسيحية ، بل بين الطوائف الاسلامية نفسها (اضطهاد السنة للشيعة والدروز والاسماعيليين...) ، واضطهاد البيزنطيين للموارنة الأمر الذي يتجاهله المؤلف عندما يجزم بأن نزوح الموارنة من وادي العاصي الى لبنان كان لأسباب اقتصادية[١٠٦] ، ومضايقات الروم الاورثوذكس للروم الكاثوليك الخ...

إن التغلغل الرأسمالي لم يخلق التمايز الطائفي انما عززه وقواه واستغله . ولما كان المسيحيون أقلية في هذه المنطقة استغل الاستعمار واقعهم ، وتوسل بعضهم كأداة لتحقيق مطامحه في السيطرة والالحاق .

ازاء هذا الوضع ماذا كان ، في منطقتنا العربية ، موقف الانتلجنتسيا المسيحية ؟ وماذا كان موقف الانتلجنتسيا الاسلامية ؟

ان الجواب على هذا السؤال يتطلب هو الآخر بحثاً مفصلاً في سوسيولوجيا الفكر السياسي لا قدرة لنا الآن على التصدي له ، لكن حسبنا الملاحظات التالية :

أ— في موازاة بعض رجال الاكليروس المسيحيين وبعض المثقفين المسيحيين الملحقين بالمخططات الاجنبية ، كان هناك مجموعة من الانتلجنتسيا المسيحية العربية التي طرحت الفكرة العربية ، ببعدها العلماني ، كحل ينقل المنطقة من واقع الدولة الدينية العثمانية الى واقع قومي جديد يستطيع فيه المسيحيون العرب أن يشاركوا في جسم الدولة السياسي ضمن أفق الشعارات التي رفعتها الثورة البورجوازية الفرنسة (حرية ، عدالة ، مساواة) . من هذه الانتلجنتسيا : بطرس البستاني ، أديب اسحق ، فرنسيس المراش ، فرح انطون ، شبلي شميل ، يعقوب صروف ، فارس نمر ، خليل سعاده ، خير الله خير الله ، جميل المعلوف ، وغيرهم كثيرون .

ب— على صعيد الانتلجنسيا الاسلامية ، كان هناك تياران :

— تيار رفض الفكرة القومية بما هي فصل الدين عن الدولة ، وتمسك بالاسلام كاطار يمكن من خلاله اجراء بعض الاصلاحات لكن ضمن حدود عدم المساس بجوهر الشريعة . من هؤلاء : الافغاني ، وعبده ، ورشيد رضا ، والقباني ، وأرسلان ...

— تيار تقبل الفكرة القومية العلمانية ، ولو بحذر ، كمحمود ومحمد

المحمصاني ، وعبد الغني العريسي ، وعبد الرحمن الشهبندر ، والى حد ما الكواكبي . . .

ج — خضعت المنطقة للسيطرة الاستعمارية ، وأخذ المشروع الصهيوني يبرز الى حيز التطبيق . وفي مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى قامت عدة تيارات منها :

— التيار العلماني الذي تصدى لطرح مسألة السلطة في الاسلام ، وحسم بالفصل بين الدين والدولة ، ومن رواده : علي عبد الرزاق (صاحب «الاسلام وأصول الحكم» وأخوه مصطفى ، وطه حسين ، وأحمد لطفي السيد ، وحسين فهمي ، وخاصة الشيخ خالد محمد خالد (صاحب كتاب «من هنا نبدأ») .

— وفي موازاته نما تيار متزمت تمثل بالاخوان المسلمين (البنا ، وعودة ، والعطار . . .) ، وبمحمود شلتوت ومحمد البهي وغيرهما ، ربط بشكل مطلق بين الدين والدولة في الاسلام .

وعلى صعيد آخر كان هناك :

— تيار يدعو الى القومية العلمانية لكن في اطار سوريا الطبيعية .

وعلى الرغم من محاولات ساطع الحصري الريادية في طرح عروبة منفصلة عن الاسلام ، ومن محاولات غيره كالدكتور قسطنطين زريق وبعض القوميين العرب الآخرين ، وعلى الرغم من وجود تيار اسلامي علماني معاصر تزداد قوته مع الوقت ، فإن المسألة التي لا تزال حتى الآن تشكل مفصل الصراع في لبنان وعلى امتداد المنطقة العربية ، وربما العالم الاسلامي ، تنطلق من الأسئلة التالية :

— هل المشروع السياسي للعروبة يستفيد من الاسلام كتراث عظيم وتجربة غنية فحسب ، أم أنه يسعى — عبرها — الى اعادة احياء الشريعة الاسلامية وينظم المجتمعات العربية على أساسها ؟

— هل الرد على التحدي الصهيوني هو باحياء لون من ألوان الايديولوجية التعصبية الاسلامية التي تسعى الى قيام الدولة الدينية الاسلامية ؟

— وفي هذه الحال ما هو الفرق بينها وبين الايديولوجية التعصبية المسيحية ، بما فيها الايديولوجية المارونية الساعية الى انشاء وطن قومي لها على انقاض وحدة الشعب اللبناني ؟

— أليس هذا ما يخطط له الاستعمار ويشجعه لابقاء منطقتنا مجزأة ومتناحرة وضعيفة ومتخلفة ، وذلك بهدف استمرار سيطرته عليها واستنزاف ثرواتها الهائلة ؟

* * *

ان الايديولوجية الطائفية في كتابة التاريخ واضح ردها على هذه الأسئلة :

فالأب ضو ينطلق ، في كتابته التاريخية ، من ايجاد الخلفية التاريخية لفكرة الوطن القومي الماروني ؟

والدكتور كوثراني — بالرغم من اختبائه وراء مصطلحات «تقدمية» — يخدم ، في قاعه الفكري التاريخي ، الايديولوجية الاسلامية المعادية للعلمانية والساعيةالى اقامة الدولة الاسلامية العربية !

وعلى كل حال ، الصراع مفتوح مع دعاة هذا الفكر ، القابع في كهوف القرون الوسطى . ولئن بدا ، مؤقتاً ، ان هذا الفكر هو الأشد ساعداً والأوسع استقطاباً ، فلا شك أنه سيضطر الى التراجع ، لأن التاريخ لا يرجع الى الوراء ، ولأن ثمة ارادات متسلحة بالعقل والعلم والنظرة الوطنية والانسانية مصممة على المواجهة . وشعوبنا لا بد ستنهض من مستنقع التفكك والتخلف لتساهم ، من جديد ، في مسار الحضارة الانسانية المتجددة .

مراجع الفصل الثاني

(١) وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية — السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ — ١٩٢٠، الطبعة الأولى ١٩٧٦، ص ٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠، وص ١٠٤، وص ١١٤ الخ...

(٣) المصدر نفسه، ص ٨، وص ١١٤.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨، وص ٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٦٨.

(٧) المصدر نفسه، ص ٨.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٩) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠٤ وص ١١٢.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٦٠ و١٦٢.

(١٢) Levant - E. Syrie Liban Cilicie, Dossier général, n°. 9. p. 187.

(١٣) وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص ١٢٨ وغيرها.

(١٤) المصدر نفسه ص ١٧٩.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٣١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

(١٧) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية.

Levant - E, Syrie Liban Cilicie, Dossier général, V 1, p. 31.

(على سبيل المثال لا الحصر)

وفي تقرير للأمين العام الفرنسي أنه من الضروري مراقبة أعضاء «الجمعية اللبنانية» في باريس ورصد تحركاتهم لأنهم يشكلون خطراً على المصالح الفرنسية ويعارضون الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان، وفي طليعة الأسماء التي تلحظ مراقبتها خير الله خير الله.

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية:

Levant - E, Syrie Liban Cilicie, Dossier général N° 9, février 1919, p. 128 et 182.

(١٨) وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص ٨١.

(١٩) يمكن مراجعة الرسائل الهامة التي أرسلها يوسف كرم الى عبد القادر في كتاب: سمعان خازن، يوسف بك كرم في المنفى، مطبعة الانشاء، ١٩٥٠، ص ٣٤٦ — ٣٦٢.

(٢٠) وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص ٢٦٣.

(٢١) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مطبعة عيسى البابي، المجلد الأول، ص ١٦٥.

(٢٢) وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص ٦٦ و٦٧.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٨ و١٠.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣١٥ و٣١٧ و٣١٨.

(٢٦) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية.

Levant - E. Syrie Liban Cilicie, Dossier général, V. 7, p. 40 et 87 - 94.

(٢٧) المرجع نفسه، مجلد ٩، ص ١٢٥.

(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٢٨ و١٤٨.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٢٩.

(٣٠) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية.

Levant - E, Syrie Liban Cilicie, Dossier général, v. 13, p. 112.

(٣١) يمكن مراجعة تقرير لجنة كينغ — كراين في عدة مراجع، خاصة قدري قلعجي، جيل الفداء، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧، ص ٣١٦.

(٣٢) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية:

Levant - E. Syrie, Liban Cilicie, Dossier général, v. 14, p. 20.

(٣٣) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية:

Levant - E, Syrie Liban Cilicie, Dossier général, v. 7, p. 164.

(٣٤) المرجع نفسه، مجلد ١١، ص ١٥٧.

(٣٥) المرجع نفسه، مجلد ١٥، ص ٩٣.

(٣٦) هناك العديد من العرائض، على سبيل المثال لا الحصر:

Levant - E, Syrie Liban Cilicier, Dossie général v. 11, p. 19.

مع العلم أن الوفد اللبناني الأول كان يضم حليم الحجار، من سنة اقليم الخروب، وكان من أشد المطالبين بالوصاية الفرنسية (وثائق وزارة الخارجية، مجلد ١٠، ص ٨٦).

(٣٧) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية:

Levant - E, Syrie Liban Cilicie, Dossier général, v. 8. p. 195.

(٣٨) المرجع نفسه، مجلد ٤٤، ص ١١١ و١١٢.

(٣٩) المرجع نفسه، مجلد ١٠، ص ٢٥.

(٤٠) المرجع نفسه، مجلد ١٥، ص ٨٦، ومجلد ١٣، ص ٩٠.

(٤١) المرجع نفسه، مجلد ١٥، ص ٨٧.

(٤٢) المرجع نفسه، ص ٨٤، ومجلد ١٤ ص ٨٥

LAU-Byblos Library

وتقرير من بيكو حول موقف الدروز امام لجنة كينغ — كراين : المرجع نفسه ، مجلد ١٥ ، ص ٩٤ — ٩٥ ، ومجلد ٨ ، ص ٥٢ .

(٤٣) المرجع نفسه ، مجلد ١٣ — ص ١٢١ .

(٤٤) المرجع نفسه ، مجلد ١٣ ، ص ٨ .

(٤٥) المرجع نفسه ، مجلد ١٥ ، ص ٨٤ .

(٤٦) المرجع نفسه ، مجلد ١٢ ، ص ١٤٨ .

(٤٧) المرجع نفسه ، مجلد ١٥ ، ص ١٥٥ .
أنيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربية الكبرى ، دار الطليعة ، ١٩٦٦ ، ص ١٤٩ .

(٤٨) يمكن مراجعة عدة مطالعات للورنس مع الفرنسيين ، خاصة الجلسة التي عقدت بتاريخ ٧ نيسان ١٩١٩ حيث أكد قائلاً :

"La Palestine sera un Etat Juif"

(وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، مجلد ١١ ، ص ٢١٦) .

(٤٩) انيس صايغ ، المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(٥٠) وجيه كوثراني ، المصدر السابق ، ص ١٦ و١٧ .

(٥١) المصدر نفسه ، ص ١٩ .

(٥٢) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

(٥٣) ادمون رباط ، الوسيط في القانون الدستوري اللبناني ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٠ ، ص ٦٤ .

(٥٤) ذكر ميسلن ، الذي قام برحلة الى لبنان والمنطقة في منتصف القرن التاسع عشر ، ان مرافقه فرنسيس أجابه ، عندما أبدى هو تذمره من وعورة الجبال والطرقات : «فأجابني الشيخ فرنسيس قال : «لا تنس أنه الى هذه الجبال الصعبة المنيعة يعود الفضل الأول في حفظ كياننا وديننا . كل من حولنا قد أرغموا على ترك دينهم الا نحن هنا فاستمررنا على ايماننا . ففي أوان الحروب كل صخر عندنا هو قلعة لا تؤخذ ، وحصن لا يطال . فإذا خططت جبالنا بطرقات سهلة المراس ، خسرنا امتيازنا الأخير الذي أحسنا ضبطه والابقاء عليه الى الآن ! ! ...»
(رحلة المنسيور ميسلن ، نقله الى العربية الأب اغناطيوس طنوس الخوري ، هدية مجلة السنابل ، الاعداد ٨ و٩ و١٠ ، آب وأيلول وتشرين الأول ١٩٦٠ ، ص ٥٥٩) .

(٥٥) كمال الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، ص ٣٩ .

(٥٦) الأب يوسف الشماس ، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية ، المطبعة المخلصية ، الجزء الثالث ، ص ٨٩ .

(٥٧) كمال الصليبي ، تاريخ لبنان الحديث ، دار النهار للنشر ، ١٩٦٧ ، ص ٥٤ . وكذلك أسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٣١ . وأيضاً عيسى اسكندر المعلوف ، لبنان : مباحث علمية واجتماعية ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، ص ٣٦٣ .

(٥٨) سليم ابو اسماعيل ، الدروز : وجودهم ومذهبهم وتوطنهم ، مطابع فضول ، بدون تاريخ ، ص ٤٧ .

(٥٩) طنوس الشدياق ، اخبار الاعيان في جبل لبنان ، مطابع سميا ، ١٩٥٤ ، الجزء الأول ، ص ٣٢ .

(٦٠) فلاديمير لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، دار التقدم — موسكو ، ١٩٧١ ، ص ٩ .

(٦١) محمد علي مكي ، لبنان من الفتح العربي الى الفتح العثماني ، دار النهار للنشر ، ص ٢١٠ — ٢١١ .

(٦٢) صالح بن يحيى ، المرجع السابق ، ص ٨٤ — ٨٧ وص ٨٩ — ٩١ .
— الياس القطار ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ — ٢١٢ — ٢١٣ و٢١٤ وص ٢٣٣ .

(٦٣) دومينيك شوفالييه ، المرجع السابق ، ص ٨٠ و٨١ .

(٦٤) Volney, Voyage en Syrie et en Egypte, Paris, 1789, vol. II, p. 369.

(٦٥) الأب مارون كرم ، قصة الملكية في الرهبانية اللبنانية المارونية ، دار الطباعة اللبنانية ، ١٩٧٢ ، ص ٢٣ .

(٦٦) Edmond Rabbath, la formation historique du Liban politique et constitutionnel, 1973, p. 170.

(٦٧) فيليب الخازن ، لمحة تاريخية في استمرار استقلال لبنان التشريعي والقضائي منذ الفتح العثماني سنة ١٥١٦ ، مطبعة الاخبار ، مصر ١٩١٠ ، ص ١٥ .

(٦٨) ميشال شبلي ، التشريع والقضاء في عهد الامراء ، مجلة «المشرق» ، مجلد ٤٦ ، الجزء الثالث (أيار حزيران) ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٢ ، ص ٣٣٦ .

(٦٩) وجيه خوري ، القضاء في لبنان في عهد الحكم الاقطاعي ، مجلة «المشرق» ، مجلد ٣١ ، العدد الثاني (شباط) ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٣ ، ص ٩٨ .

(٧٠) المطران يوسف دريان ، نبذة تاريخية في أصل الطائفة المارونية ، مطبعة صادر ، ١٩١٩ ، الطبعة الثالثة ، ص ٣٠٩ — ٣١٠ .
وأيضاً حول الحرية في الإمارة :
— فيليب حتي ، المرجع السابق ، ص ٤٧٧ .
— جواد بولس ، تاريخ لبنان ، دار النهار للنشر ، ص ٣٣٥ .

(٧١) الأب لويس شيخو ، الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٢٤ ، الجزء الأول ، ص ٦ .

(٧٢) المجمع اللبناني ، ترجمة المطران يوسف نجم ، مطبعة الأرز ، جونية ١٩٠٠ .

(٧٣) يمكن مراجعة الوثائق الهامة التي نشرها الأب بولس قرألي في كتابه : فخر الدين الثاني ، مطبعة القديس بولس ، ١٩٣٨ ، الجزء الثاني ، خاصة ص ٢٦٣ حتى ص ٢٨٦ .

(٧٤) لوتسكي ، المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٧٥) يمكن مراجعة عدة مراجع حول هذا الموضوع ، خاصة :
— أسد رستم ، بشير بين السلطان والعزيز ، منشورات الجامعة اللبنانية ، ١٩٦٦ ، ص ٥٨ — ٥٩ .
— وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، وبخاصة تقارير قنصلية بيروت ، ١٨٤٠ ، مجلد رقم ١ ، ص ١٢ .

(٧٦) المحررات السياسية ، تعريب فيليب وفريد الخازن ، مطبعة العبر— جونية ، ١٩١١ ، الجزء الثالث ، وفيها اشارات كثيرة الى أن الامارة كان لها وضع خاص في السلطنة (ص ٢٣ ، وص ٦١ وص ١١٩ وص ١٩١ وص ٣٠١) .

(٧٧) طنوس الشدياق ، المرجع السابق ، ص ٥ .

(٧٨) البطريرك بولس مسعد ، الدر المنظوم رداً على الأسئلة والاجوبة الممضاة باسم السيد البطريرك مكسيموس مظلوم ، مطبعة ،بيدة طاميش ، ١٨٦٣ ، ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٧٩) الخوري ميخائيل عبد الله غبرئيل الشبابي ، تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية ، المطبعة اللبنانية ، ١٩٠٠ ، المجلد الأول ، ص ٤٩٦ — ٤٩٧ .

(٨٠) يمكن مراجعة عدة صفحات ، على سبيل المثال لا الحصر ص ٥٨٩ .

Jouplain (pseudonyme de M. Paul Noujaim), La question du Liban, 1ère édition, Paris, 1908.

(٨١) الأب هنري لامنس ، استقلال لبنان الذاتي في أربعين سنة ، مجلة الاونيفر ، ١٢ أيار ١٩٠٢ ، ص ٥ وما يليها . وكذلك : يوسف السودا ، في سبيل لبنان ، الاسكندرية ١٩١٧ ، ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٨٢) يوسف السودا ، المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .

(٨٣) مجلة «المنار» ، م ١٧ ، ج ٨ ، ص ٦١٩ .

(٨٤) وجيه كوثراني ، المصدر السابق ، ص ٣٧ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(٨٦) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، قنصلية بيروت ، مجلد ٨ ، ص ٥ (وجه وقفا) .

(٨٧) الخوري منصور الحتوني ، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ، ١٨٨٤ ، ص ٣٣٢ .

(٨٨) دومينيك شوفالييه ، المرجع السابق ، ص ١٢٢ وص ١٣٠ .

(٨٩) وضاح شرارة ، في أصول لبنان الطائفي ، دار الطليعة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٧ .

(٩٠) أ. سميليانسكايا ، الحركات الفلاحية في لبنان ، دار الفارابي ودار الجماهير ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٧ — ١٠٨ — ١٠٩ .

— أبو شقرا ، الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية ، ص ٢٥ وص ٣٢ .

(٩١) كمال الصليبي ، المرجع السابق ، ص ٧٩ .

— سميليا نسكايا ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٩٢) سميليا نسكايا ، المرجع السابق ، ص ١٠٧ . وكذلك يمكن مراجعة أبحاث ايليا حريق في هذا المجال .

(٩٣) البرت حوراني ، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ — ١٩٣٩ ، دار النهار للنشر ، ١٩٦٨ ، ص ٨٥ .

(٩٤) زين زين ، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان ، دار النهار للنشر ، ١٩٧١ ، ص ٣١ .

(٩٥) المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

(٩٦) عادل اسماعيل واميل خوري ، الساسة الدولية في الشرق العربي ، دار النشر للسياسة والتاريخ ، ١٩٦١ ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٩٧) مارسيل ايمريت ، الأزمة السورية والتوسع الاقتصادي الفرنسي ١٨٦٠ ، مجلة «دراسات عربية» ، العدد ٥ ، ١٩٧٢ ، ص ١٨ و١٩ .

(٩٨) بيير رنوثان ، تاريخ العلاقات الدولية ، ترجمة جلال يحيى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص ٣٨٥ — ١٨٦ .

— مارسيل ايمريت ، المرجع السابق ، ص ٨ و٩ .

(٩٩) Jacques Pirenne, Les grands courants de l'histoire universelle, editions Albin Michel, 1953, v. 5, p. 52.

(١٠٠) سميليا نسكايا ، المرجع السابق ص ٢٣٤ ، نقلاً عن

P. Rochemonteix, le Liban et l'expédition, p. 36.

(١٠١) سميليا نسكايا ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣ .

(١٠٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ .

(١٠٣) وجيه كوثراني ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

(١٠٥) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

(١٠٦) المصدر نفسه ، ص ٣٤ . مع العلم أن المؤلف يرفض التفسير الاقتصادي للتاريخ في مقالته : بعض خصائص الكتابة التاريخية عند العرب ، مجلة «الفكر العربي» . معهد الانماء العربي — بيروت ، عدد ٢ ، تموز وآب ١٩٧٨ ، ص ٦٧ .

دور لبنان الحضاري بين الحرب والسلم*

* محاضرة ألقيت بدعوة من الحركة الثقافية في دير مار الياس — انطلياس ٢٥/ ١/ ٨٣.

مما لا شك فيه أن الفترة التاريخية التي نعيشها تشير الى ان لبنان يواجه أزمة حضارية شاملة لا تتناول دوره وصيرورة تاريخه فحسب، بل تطال وجوده كجغرافية بشرية وسياسية وطبيعية. فبموازاة الحروب والفتن والتصارع والفساد على مختلف الأصعدة يتجه الوطن نحو نوع من الانحلال. انحلال عامودي يطال وحدة الدولة والمجتمع، بحيث نلاحظ التفتت الى وحدات سياسية شبه مستقلة بعضها عن بعض، وهيمنة قوى خارجية محتلة تعمل كأنها باقية أبداً. وانحلال أفقي يتجسد في مظاهر التحاسد والتباغض والخوف والاستغلال والقهر وتعطيل الحريات مما يؤكد انهيار أركان النظام الذي كان قائماً.

لن أتعمق في تحليل الأسباب الداخلية والخارجية والخلفيات التاريخية التي أوصلتنا الى هذا الوضع، مع العلم أن التحليل العلمي التاريخي لجذور أزمتنا الحضارية هو أمر واجب وملحّ، اذا ما أردنا أن نواجه التحديات وأن ننهض من الكارثة، وأن نبني الوطن اللبناني على أسس صلبة وقوية.

حسبي الآن أن أتوقف عند ثلاثة أدوار، اعتبرها محورية بالنسبة للبنان:

أولاً: دور لبنان نحو نفسه.

ثانياً: دور لبنان في محيطه الاقليمي.

ثالثاً: دور لبنان على المستوى الانساني.

أولاً: دور لبنان نحو نفسه:

لكي يكون للبنان دور، ولكي يكون له رسالة حضارية يجب في الأساس

أن يكون موجوداً. وهذا الوجود يجب أن يتجسد في شعب ووطن ودولة ومجتمع ومؤسسات ديمقراطية. من هنا ينبثق دفاعنا عن القضية اللبنانية واعتبارها المحور والأساس الذي يشكل قاعدة نضالنا في هذه المرحلة.

أ— معرفة الواقع اللبناني:

يمكن اختصار ملامح الواقع اللبناني بالمميزات[١] التالية:

١— المجتمع اللبناني هو مجتمع كثاري Mosaïque طائفي، وليس هو بالمجتمع المنصهر الموحّد. أي أنه ذو أصول دينية وثقافية واثنية وطائفية متعددة.

٢— إن القاعدة الأساسية للانقسام في المجتمع اللبناني هي الطائفة. والطائفة— حسب تحديد الدكتور ناصيف نصار[٢]— هي جماعة منظمة من الناس يمارسون معتقداً دينياً بوسائل وطرق وفنون معينة. إنها إذن تجمع ديني في الاصل والممارسة والغاية. اما الانقسامات القبلية والاقليمية والاقتصادية فهي ظهواهر ثانوية بينما ينعدم الانقسام العرقي.

٣— ان امكان التعايش، ضمن المجتمع التعددي، يفترض وجود أسس مشتركة بين جماعاته. والا فالتنظيم المجتمعي الكثاري يميل الى التفكك تحت وطأة النزاع.

٤— ان مسألة الهوية هي التي شكلت ولا تزال جوهر الخلاف ضمن المجتمع اللبناني.

فغالبية المسيحيين يعتبرون لبنان دولة قومية مستقلة قائمة بحد ذاتها.

وغالبية المسلمين يعتبرون لبنان جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية.

وانطلاقاً من هذا التباين كان هناك تباين حول عدة قضايا مصيرية، وبخاصة حول الموقف من القضية الفلسطينية.

٥— ازدواجية في اللغة والايديولوجيا : يكاد يكون اللبناني العادي ، وحتى المثقف ، بعدة أوجه وبعدة السنة . فهو علماني تارة ، وهو مع الصيغة والتعايش طوراً ، وهو مع كانتونه الطائفي مستقلاً أو مهيمناً مرات . هناك حذر ومراوغة بين الطوائف المختلفة .

٦— تراجع الولاء للوطن لحساب الولآات المجزئة : فبالاضافة الى الولاء الطائفي هناك الولاء العشائري والاقليمي . فالدكتور سمير خلف[٣] يذكر «ان الروابط البدائية لا تزال تؤلف الأطر الأساسية للتنظيم في المجتمع اللبناني الى درجة تجد معها الكتل والجبهات السياسية تضيع في حمّى النزاعات العشائرية والشخصية الى درجة تجد نفسها فيها عاجزة عن خدمة أهداف المجتمع ككل ، «كذلك يورد م. هدسون[٤] «ان الانشقاق الديني والاقليمي والعشائري جعل لبنان سياسياً ، ساحة جماعات تمارس حق نقض تقليدي وان الأهواء البدائية تقسم لبنان وتؤخر تحديثه السياسي» . وتبرز دراسة لعالمي النفس ليفون ميليكيان ولطفي دياب[٥] أن طلاب الجامعة الأميركية اللبنانيين يبدون ميلاً لعائلاتهم أولاً ، ثم لمجموعتهم الأثنية ثانياً ، وللمذهب ثالثاً وللمواطنية رابعاً وللحزب السياسي خامساً .

ومن جهة أخرى تبرز الروح الفردية كعائق يحول دون تحقيق التعاون الوطني ، وهي من عادات البدو . الا أن هذه الفردية تنسجم مع الجماعة العشائرية أو الطائفية . فالفرد ينصر أخاه ظالماً كان أو مظلوماً ويساهم في التبرع لمصلحة الطائفة والعشيرة ، ويشارك في القتال دفاعاً عنها . وباقي الافراد والطوائف ينظرون اليه كجزء لا ينفصل عن الطائفة ، فقد يحملونه جريرة غيره ويقتلونه مقابل قتيل لهم قتله أحد أفراد عشيرته أو طائفته[٦] .

٧— البنية الهرمة للأحزاب القائمة وضعف السلطة التنفيذية : تكاد تكون الأكثرية الساحقة من الاحزاب تجمعات حول زعامات تقليدية ، تفتقر الى البرامج الشاملة في كافة المجالات ، وتدور همومها حول المصالح الفردية أو

الفئوية . وغالباً ما تكون الحكومات والمجالس النيابية أدوات لالتقاء مصالح الزعامات العشائرية والطائفية .

٨— هيمنة الطائفية في الدولة والمجتمع والثقافة : تشكل الطائفية الظاهرة المهيمنة في المؤسسات السياسية (البرلمان ، الحكومة ، الاحزاب ، توزع الرئاسات) ، (وفي الجيش ، القضاء والادارة العامة) ، وفي المؤسسات الاجتماعية والتربوية (القوانين الطائفية للأحوال الشخصية والمحاكم المذهبية ، والأوقاف والمستشفيات ، هيمنة المدارس والجامعات الخاصة على حساب التعليم الرسمي والجامعة اللبنانية) ، الاعلام ذو اللون الطائفي (صحف ، اذاعات ...) .

٩— التمايز الاجتماعي — الاقتصادي : ثمة خلل اجتماعي — اقتصادي واضح . فهناك أغلبية فقيرة من كل الطوائف ، وقلة قليلة من الاغنياء من كل الطوائف أيضاً . وهناك مشاكل في التعليم والاستشفاء والبطالة والسكن ، وهناك مشاكل بين الريف والمدن ، ومشاكل على أصعدة الفوضى في التجارة وعدم حماية الصناعة الوطنية وعدم تشجيع الزراعة ، وبالتالي هناك غياب لأي تخطيط انمائي .

نصل الآن الى النقطة الثانية من دور لبنان نحو نفسه الا وهي :

ب— وجهة تخطي الواقع :

سأحاول أن أضع بعض العناوين — المفاتيح :

١— بالنسبة للهوية :

أخال أن الأحداث أوصلت الأكثرية الساحقة من اللبنانيين الى التسليم بالحقائق التالية :

— ان لبنان له خصوصياته في الجغرافية والتاريخ ، ولئن كان هناك ما يجمعه

مع محيطه العربي من مصالح الاقتصاد والثقافة والسياسة ، فإن هناك من المميزات ما يعطيه حق المطالبة باستقلاله الكامل عن كل وصاية أو تبعية .

من هنا وجوب تخطي المنطقين اللذين كانا سائدين لدى أكثرية المسلمين أو أكثرية المسيحيين قبل الحرب .

* فاستقلال لبنان لا ينني امكانية كونه جزءاً من بيئة حضارية عربية يستطيع ، بل يجب ، أن يتفاعل معها ويقود فيها تيار الحداثة ، والعلمانية والديمقراطية .

* وعروبة لبنان لا تعني التبعية لهذا النظام أو ذاك ، وكذلك لا تعني سيادة أية منظمة أو أية دولة عربية على أي شبر من ترابه الوطني (١٠٤٥٢ كلم^{2}) .

فلا سيادة فوق السيادة اللبنانية على أرض لبنان ، ولا حدود لمجالات التعاون ، اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وسياسياً مع البيئة العربية . شرط الانطلاق من المصلحة اللبنانية في الأساس والمصلحة العربية تالياً .

٢ — بالنسبة للمشكلة الطائفية :

ان الحل المنسجم مع حركة التقدم التاريخي لهذه المسألة هو الحل العلماني . ونعني بالعلمانية حركة الصراع التاريخي التي تسعى لتحرير المجتمع والدولة والثقافة من هيمنة المؤسسات والرموز الدينية ، واعتبار الدين علاقة بين الانسان وربه . في هذا السياق :

— يصبح للوطن اللبناني الأولوية في الانتماء على الطوائف والعشائر والمناطق .

— تتم السيطرة التامة للتعليم الرسمي على حساب التعليم الخاص . ويعزز التعليم المهني والجامعة اللبنانية . مع وضع مناهج ترتكز على العلم والديمقراطية .

— تؤمم الاوقاف للصالح العام .

— تستلم الدولة المستشفيات .

— يفرض الزواج المدني الالزامي ، مع السماح بالزواج الديني .

— تتم المساواة في كل مجالات القطاع العام ، ويصبح المعيار هو الكفاءة العلمية والمناقبية الاخلاقية .

— تتعلمن البنى السياسية (احزاب ، مؤسسات تمثيلية ، حكومات...) على نحو تدريجي وواقعي .

— يفرض التجنيد الاجباري ، بحيث يقوم الجيش ، بالاضافة الى مهماته الدفاعية والامنية ، بمهمات انمائية اجتماعية (كمحو الأمية ، وبناء المدارس وسائر المنشآت المهدمة ، تعلّم تقنيات صناعية وزراعية والقيام بأعمال صحية ، وتأمين وسائل المواصلات واستصلاح الأراضي والتشجير وغيرها) .

٣ — بالنسبة لمسألة الديمقراطية :

بين الديمقراطية الليبرالية والديمقراطية الماركسية ، ومشاريع الديمقراطيات الاسلامية والطوائفية ؟ هناك خط آخر الا وهو الديمقراطية بمضامينها السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتكاملة . فمن واجب الدولة في هذه الديمقراطية تأمين الحقوق التالية :

— الحق في الانتظام الحزبي ، وتعددية الاحزاب .

— الحق في ممارسة الحريات الجسدية ، والضميرية ، والدينية ، وحرية القول والصحافة والاعلام ...

— تنظيم الاقتصاد على أساس التخطيط والمشاركة وعدم الابقاء على الفوضى القائمة . وحسم مسألة الضريبة التصاعدية .

— تأمين حقوق العائلة في العيش.

— الحق في التعليم (المجاني والالزامي).

— الحق في الثقافة.

— الحق في المسكن.

— الحق في الاستشفاء على حساب الحكومة.

— الحق في العمل.

— الحق في الضمان الاجتماعي.

— الحق في الانتظام النقابي.

— الحق في الرفاه والراحة.

٤— بالنسبة للدور الثقافي :

ان صحافة بيروت ومجلات بيروت ومطابع بيروت والمنابر الجامعية في بيروت هي التي حملت، منذ القرن الماضي، هم طرح مفاهيم الحداثة والتغيير في الثقافة العربية المعاصرة. هذه الثقافة التي سعت لأن تستجيب لتحديات المستقبل ولتحطيم اصفاد الماضي. والمثقفون اللبنانيون أو المثقفون العرب الذين لجأوا الى لبنان كانوا من طلائع دعاة مجابهة النظام المملوكي العربي السائد والعاملين لارتقاء انسان هذه المنطقة. وليس من قبيل الصدفة أن يتحالف هذا النظام المملوكي العربي مع قوات شارون على تدمير بيروت.

أما رسالة لبنان الحضارية فهي التشدد في الحفاظ على هذا الدور بل العمل على تجذيره.

من جهة أخرى يجب أن يكون دور لبنان تيسير الظروف للانتاج الفني والفكري المبدع، وقيام الدولة بواجبها في هذا المجال (تقدير مادي ومعنوي

للثقافة والمثقفين). وكذلك انشاء المسارح الوطنية والمتاحف الفنية والوثائقية، وتعزيز الكتاب والحفاظ على المخطوطات وجمعها ووضعها في متناول الباحثين وتعزيز الجمعيات العلمية وفرق البحث في مختلف العلوم، والعمل على عودة الادمغة المهاجرة. وكذلك تعميق عملية الترجمة من كل اللغات الحضارية الى اللغة العربية وبالعكس (وذلك من ضمن مؤسسة ترعاها الدولة).

وفي هذا السياق يجب على لبنان أن يستمر في دوره كقائد في عملية تحديث اللغة العربية (من حيث تعليمها، وحل مسائل كتابتها وتطوير حروفها، ومعالجة مسألة العامية والفصحى، وكذلك استيعابها للمصطلحات العلمية والتكنولوجية والفلسفية والاجتماعية وغيرها ...).

من هنا نحن على طرف نقيض مع التيارات المتخوفة من «الغزو الحضاري» و«الاستعمار الثقافي» «والدفاع عن الأصالة» وما الى ذلك. نحن مع الوعي الانتقادي التحليلي، مع استيعاب التراث ونقده وتخطيه، ومع تمثل وهضم منجزات الثقافة العالمية (الغربية والشرقية).

انه قدر هذا الوطن، من قم وكربلاء الى روما وباريس والاميركتين، مروراً بدمشق والأزهر وآثينا وموسكو، واطياف الرها ونصيبين وانطاكية، هذه خريطة الثقافة اللبنانية في الماضي ولا يجب أن تنكفئ هذه الخريطة حاضراً ومستقبلاً.

٥— بالنسبة للوعي التاريخي :

الشعب اللبناني، أو مشروع الشعب اللبناني، يجب أن ينكب على حضارته الماضية، أن يفهم ماضي تاريخه بدقائقه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية في أوقات ذلّه وفي أوقات انتصاره. في عامياته الشعبية، وفي ظل السخرة والتعصب والاقتتال. في أوقات الازدهار والترف الاقتصادي والاجتماعي وفي ظلمات المجاعة والتشرد.

ان درس التاريخ يزيدنا احساساً بالاخوة البشرية وبقيمة السلام والعلم والوطنية .

٦ـــ مسألة الهجرة اللبنانية :

يجب أن يكون هناك اتصال مستمر بين لبنان وعالم الاغتراب اللبناني . وطبيعة هذه الصلة يجب الا تقتصر على النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فحسب ، وانما يجب أن تطال خاصة الجذور الروحية والثقافية العميقة .

المغتربون اللبنانيون ــ من كل الطوائف ــ هم شريان اتصالنا مع المجتمعات الانسانية ، ولهم منجزاتهم المشرقة والمشرفة في كل المجالات ، من هنا يجب استحداث مؤسسات متخصصة أو معاهد ابحاث تجمع تراث اللبنانيين في المهاجر ، وتحاول أن توصل تراث الوطن الأم الى جالياتنا فيما وراء البحار .

٧ـــ دور المثقفين في هذه المرحلة :

ان النخب الاجتماعية المثقفة من كل الطوائف اللبنانية ، مدعوة لممارسة النقد الصارم لغياب الديمقراطية في السياسة ، للعنف المجنون الذي يمارس ، مستوعبة في موقفها هذا كل ما خلفه التطور الانساني من تقاليد وقيم نبيلة .

وان دور لبنان الانساني الحضاري ، من خلال المثقفين ، يجب أن يؤكد على أن الديمقراطية هي طريق الخلاص للبنان وللمنطقة العربية . والانسانية في جوهرها هي معرفة للانسان والانطلاق للدفاع عن كرامته وحقوقه . والكارثة ستكون كبيرة اذا استمر بالصعود هذا الفكر المناقض للديمقراطية ، وللتقدم ، هذا الفكر التعصبي العنصري المعادي للانسانية .

ثانياً : دور لبنان في محيطه الاقليمي :

ان تحليل الدور الحضاري للبنان اقليمياً ، يفترض منا تحليلاً للواقع الحضاري

وللمواقف السياسية لمختلف الدول والقوى الموجودة في المستطيل الجغراسي الكبير من تركيا الى المحيط الهندي . الا أننا ستوقف عند قوى ثلاث كان ولا يزال لها الدور الفعال والمؤثر بالنسبة للوضع اللبناني .

١ـــ سوريا :

شبه احد الباحثين الفرنسيين في شؤون المنطقة سوريا ولبنان بأنهما يشبهان توأمين سياميين. ولقد كان قادة سوريا ينظرون باستمرار الى سوريا ولبنان على أنهما جزء أساسي من سوريا الكبرى ، وأن جعلهما بلدين منفصلين كان عملية اصطناعية قام بها الاستعمار ليحافظ على مصالحه(٧) . وفي ضوء ذلك كان تحرير لبنان أو قسماً من أراضيه أحد الملامح الرئيسية لسياسة الحكومة السورية تجاه لبنان منذ العام ١٩٢٠ . وبالرغم من ميثاق الجامعة العربية الذي أكد على استقلال لبنان ، وموافقة الحكومة السورية على هذا الميثاق ، الا أنها ترى أن انشاء علاقات ديبلوماسية بينها وبين لبنان أمر غير طبيعي . فكيف يقيم جزء ما علاقات مع الجزء الآخر عبر القنوات الديبلوماسية .

ما هي المصالح السورية في لبنان؟ وما هي الاهداف التي حددتها هذه المصالح ؟

١ـــ قبيل اندلاع الحرب اللبنانية ، كان عدد العمال السوريين في لبنان يزيد على الـ ٤٠٠ ألف عامل .

٢ـــ كان لبنان يشكل مقراً سياسياً للاجئين السياسيين المطرودين من سوريا . والعديد من الانقلابات ــ الفاشل منها والناجح في سوريا ــ تم اعدادها في لبنان .

٣ـــ المطابع اللبنانية ، والصحافة اللبنانية ، وأغلبية الاحزاب في لبنان ، هي منبر مفتوح لكل التيارات العربية .

٤ — معظم المنظمات والقيادات السياسية الفلسطينية استقرت في لبنان. ولقد اعتبرت سوريا أن من واجبها مراقبة القيادة الفلسطينية عن كثب.

٥ — اعتبر العسكريون السوريون وربما بايحاء من الخبراء السوفيات — أن للبنان أهمية كبرى كخط دفاعي سوري وخاصة في منطقة البقاع.

٦ — إن سياسة مصر ما بعد مرحلة حرب أكتوبر أوجدت فراغاً اقليمياً سارعت القيادة السورية المستقرّة والفعالة لاستغلاله وفرض نوع من توجه لايجاد ما سمي الجبهة الشرقية (من الاردن ومنظمة التحرير ولبنان وبزعامة سوريا)، الأمر الذي يقوى القيادة السورية في تعاملها مع القوى العظمى ومع القوى الاقليمية العربية (مصر، السعودية، العراق)، واسرائيل.

٧ — كانت قاعدة السياسة السورية منذ نيسان ١٩٧٥ تقوم على تقديم الامدادات لحلفائها (الفلسطينيون، والحركة الوطنية) ومحاولة التوسط بين الفريقين المتصارعين لفرض نفوذها.

٨ — مع تطور الاحداث باتجاه لون من الوان التقسيم، اعتبرت القيادة السورية ان انشاء دولة راديكالية اسلامية يسيطر عليها الفلسطينيون ودولة مسيحية يسيطر عليها الموارنة، هو مدخل لتفكيك شامل للمنطقة، الأمر الذي يهدد سيطرتها في الداخل السوري، كما عزمت على استغلال هذا الوضع — برضى اميركي وسكوت اسرائيلي — للتدخل العسكري في لبنان. وهكذا عشية وصول كوسيجين في تموز ١٩٧٦ بدأ السوريون دخولهم العسكري للبنان.

٩ — بين صيف ١٩٧٦ وصيف ١٩٧٨ كان الهدف السياسي لسوريا هو تأمين حل يؤمن هيمنتها التامة، دون أن يتطلب ذلك أي نشاط عسكري. لا سيا وأن الوجود السوري في لبنان نال موافقة عربية وأصبح ممولاً من دول النفط.

١٠ — ازاء تصاعد الحوار المصري — الاسرائيلي حصل تقارب سوري —

سوفياتي من جديد، وتم تقارب بين مجموعات اسلامية ومن الحركة الوطنية (في لبنان) مع سوريا. بيد أن التوتر تصاعد مع القوى المسيحية.

١١ — وهكذا حصلت صدامات في الشمال وفي بيروت وفي زحلة شكلت عامل تباعد بين المسيحيين والقيادة السورية.

١٢ — وجاءت حرب حزيران وما تلاها من نتائج لا تزال تتفاعل حتى الآن حيث يربط السوريون انسحابهم من الأراضي اللبنانية بانسحاب الاسرائيليين.

٢ — الفلسطينيون:

كان عدد الفلسطينيين عشية اندلاع الازمة اللبنانية ١٩٧٥ يزيد على المائتي ألف لاجئ[٨]. وكانت أهم مصالح وأهداف قياداتهم باتجاه لبنان تندرج ضمن النقاط التالية:

أ — ترسيخ المكاسب التي حققتها المقاومة الفلسطينية على حساب السيادة اللبنانية (وخاصة من خلال اتفاقية القاهرة).

ب — الحق في تأمين الحماية العسكرية والامنية بكافة الوسائل للمؤسسات والمخيمات، وبعدئذ السيطرة شبه التامة على مناطق واسعة من الاراضي اللبنانية.

ج — دعم وتقوية اصدقاء المقاومة من الاحزاب والقيادات (عسكرياً ومالياً واعلامياً).

د — توسيع شبكة من العناصر والخلايا المرتبطة باجهزتها داخل المؤسسات السياسية والعسكرية للدولة اللبنانية والعمل لشل أو تقسيم المؤسسات الحكومية.

هـ — اللعب على التناقضات الاسلامية والمسيحية، والعمل على جمع القواعد الاسلامية ضمن أفق طائفي.

و— توظيف التحركات المطلبية اللبنانية ، وتكوين وتدعيم تنظيمات لبنانية مستحدثة مرتبطة مباشرة باجهزة المقاومة .

ز— استنزاف الثروات الاقتصادية اللبنانية (الصناعية والزراعية والتجارية وغيرها) لمصلحة القدرة المالية للمقاومة الفلسطينية .

ح— استجلاب الغالبية الساحقة من الكوادر العسكرية والمدنية الفلسطينية وتوطينها في أماكن معينة من المناطق اللبنانية ، والتحكم بمصالح الناس ومصادرة بيوتهم ومنشآتهم تحت ستار العمل لمصلحة الثورة .

ط— الرهان على أن السيطرة على رقعة جغرافية معينة من لبنان هو من السبل التي تشكل عامل ضغط على اميركا لحل القضية الفلسطينية بما يتناسب وطروحات قيادة المقاومة ، أو في أسوأ الأحوال تأمين أرض تفرض عليها مقتضيات السيادة الفلسطينية[٩] .

ما هي خلفيات الموقفين الفلسطيني والسوري— وبالتالي العربي— من القضية اللبنانية ؟ وما هو دورنا الحضاري بالمواجهة ؟

لن أدخل في تشريح مظاهر الانحطاط الحضاري على امتداد المنطقة العربية ان بالنسبة لمفهوم الدولة ومؤسساتها ، أو لمظاهر الفكر الديني المتخلف أو لجوانب القهر الاجتماعي والاستغلال والتبعية في الاقتصاد ، أو بالنسبة للفكر السياسي السائد .

حسبي أن أؤكد أن ردنا الحضاري على هذا الموقف العربي الذي أساء للقضية اللبنانية يجب أن ينطلق من معايير تتخطى ردود الفعل السطحية .

أ— يجب علينا كلبنانيين أن نعتبر أن المصلحة العميقة للشعب اللبناني لا تتناقض مع المصالح العميقة للشعوب العربية .

ب— ان جوهر القضية اللبنانية (القائم على ركيزتي تحرير الأرض وتحقيق الديمقراطية) لا يتناقض مع جوهر القضايا العربية .

ج— ان حل القضية اللبنانية ضمن الأفق الذي عرضنا هو النموذج الأمثل لما يمكن أن تحل عليه القضية العربية .

د— ان من واجب الشعوب العربية— بما فيها الشعب اللبناني— ان لا تسكت على أخطاء القيادات ، كل القيادات ، التي أساءت الى لبنان والى العرب على السواء .

٣— اسرائيل :

لا يمكن تحليل أهداف ومصالح اسرائيل باتجاه لبنان الا من خلال تحليل أهداف ومصالح اسرائيل بالنسبة للمنطقة ككل. فهي دولة تعتبر نفسها قوة اقليمية — وبالحقيقة هي أكثر من ذلك— الا أن مقتضيات الايجاز تفرض علينا عرض النقاط التالة :

أ— لم تعترف الحركة الصهيونية بحدود اسرائيل الدولية مع لبنان ، لا في مذكرتها الى مؤتمر الصلح (شباط ١٩١٩) ، ولا عندما قامت المفاوضات الانجليزية الفرنسية لترسيم الحدود (١٩٢٠— ١٩٢٣) ، ولا أخيراً في المفاوضات الدائرة في خلدة أو في كريات شمونة .

ان اسرائيل تعتبر السيطرة على مياه حرمون ، وخاصة على مياه الليطاني ، أمراً يرتبط بوجودها واستقلالها الاقتصادي والسياسي[١٠] .

ب— ان قيام اسرائيل على أرض فلسطين كان هو السبب في تحميل لبنان العبء الديمغرافي للفلسطينيين مع كل النتائج التي ترتبت على هذا الوجود .

ج— ان اندلاع الحرب اللبنانية كان منسجماً مع خطتها بتعريب الصراع ، وهذا ما سمح لها بالتركز في الاراضي اللبنانية تحت شعار حماية امنها الوطني .

د— ان ارهاق الدول العربية على كافة المستويات يضعفها أمام الرأي العام الدولي ، ويقوي حجة اسرائيل كدولة حضارية تحمي الاقليات في المنطقة ، بينما الطوائف في لبنان تذبح بعضها البعض على أساس الانتماء المذهبي .

هـ— يمكن طمس القضية الفلسطينية بايجاد قضايا اخرى توازيها ، وربما تفوقها أهمية على مستوى السياسة الدولية .

و— تهديم الاقتصاد اللبناني بكافة مقوماته (الزراعة والصناعة والسياحة والمصارف وغيرها) وذلك لكي تحل اسرائيل مكان لبنان على مستوى المنطقة .

ز— ضرب بيروت كمركز للثقافة والكتاب العربي ، وبخاصة تلك الكتب والمجلات التي تتناول المسألة الفلسطينية .

ح— ان زيادة عدد اللاجئين اللبنانيين والغارات على الأهداف المدنية قبل ١٩٧٥ وبعدها ، كان من نتائجها اضعاف النظام اللبناني واسقاطه .

ط— كان استمرار القتال— ولا يزال— يخدم مصالح اسرائيل والا كيف كانت تصل شحنات الاسلحة ، بحراً ، الى الفلسطينيين في صور وصيدا ؟ وكيف تستمر الآن معارك الشوف وعاليه ؟

كل هذه المصالح والأهداف تعتبر أموراً جزئية بالنسبة للخطة الاسرائيلية الساعية الى بلقنة المنطقة وتفكيك دولها الى كيانات طائفية . وهذه الخطة ليست نتاج تصورات ذاتية بقدر ما هي نابعة من وثائق قديمة ومعاصرة . آخرها الوثيقة التي نشرها اسرائيل شاهاك وهي بعنوان (خطة اسرائيل في الثمانينات)[١١] .
A Strategy for Israel in the nineteen Eghties

ما هو باختصار مضمون هذه الوثيقة ؟

— يشبه العالم العربي الاسلامي ببيت هش يسهل هدمه بسبب خليط الاقليات العرقية المتعادية والحروب الأهلية الدائرة بين أهله وسيطرة فئات معينة على الحكم .

— ثمة مجموعات قليلة غنية وغالبية فقيرة ، وموارد نفطية هائلة .

— الوضع العربي يخلق فرصاً جيدة للسيطرة الصهيونية على المنطقة في الثمانينات من هذا القرن . وليس امام الكيان الصهيوني من مفر غير السيطرة على الموارد العربية اذا ما أراد الاستمرار في الوجود .

— ان تجزئة مصر اقليمياً الى مناطق جغرافية متميزة (دولة قبطية مسيحية في الصعيد بجانب عدد من الدول الضعيفة بدون حكومة مركزية) هو الهدف السياسي لاسرائيل في الثمانينات على جبهتها الغربية .

— تجزئة لبنان بأكمله الى خمس مقاطعات .

— تجزئة سوريا والعراق الى مناطق عرقية أو دينية هو الهدف الاسرائيلي الأولي على الجبهة الشرقية على المدى البعيد ، كما أن انهاك القوة العسكرية لهذه الدول يعتبر هدف اسرائيل الأول على المدى القريب .

— في سوريا سيكون هناك دولة شيعية علوية على طول الساحل السوري ، ودولة سنية في منطقة حلب ودولة سنية أخرى في دمشق معادية لجارتها السنية في الشمال وكذلك الدروز سيقيمون دولتهم في الجولان وحوران وشمالي الأردن .

— يقسم العراق الى ثلاث دول : الشيعة في الجنوب (حول البصرة) ، السنة في الوسط (حول بغداد) ، والأكراد في الشمال .

— تجزئة الجزيرة العربية الى مرحلة ما قبل (آل سعود) أي تفكيكها الى مشيخات وامارات وقبائل .

— نقل السلطة في الاردن الى الفلسطينيين (على المدى القريب) .

— السيطرة على مصادر المياه الجبلية .

— تحويل البنية الاقتصادية السياسية وعدم الاستمرار في الاعتماد على دافعي الضرائب في الولايات المتحدة من ضمن منظار وقوف اسرائيل لوحدها في الثمانينات دون مساعدة اجنبية عسكرية كانت أم اقتصادية.

هذه الوثيقة لا تحتاج الى تعليق، انها تختصر ملامح العصر العبري الآتي.

ما هو دور لبنان في مواجهة هذا العصر؟

١— لا يمكن تجاهل وجود انقسامات طائفية في التشكيلات الاجتماعية المكوّنة للبنان وللمنطقة العربية. ومن هذه الثغرة تنفذ اسرائيل، وكانت تنفذ ولا تزال العديد من القوى الدولية. والاستمرار في تجاهل هذه الانقسامات (تحت شعار الوحدة والعروبة وما اليها من شعارات رومنسية) يصب في مخطط التفكيك.

دور لبنان هو التأكيد على ان التنوع الطائفي هو اثراء تكاملي، وأن ثمة علاقات انسانية ووطنية يمكن أن تجمع هذه الطوائف، وأن الحروب والأحقاد فيما بينها هي طريق الى دمار شامل.

٢— دور لبنان عبر مفكريه ومثقفيه وعبر مقومات دولته عليه أن ينقض مقولة الكيانات العنصرية بالتأكيد على المنحى الديمقراطي العلماني في الثقافة وفي تنظيم المجتمع والدولة، ويجب اعتبار الطوائف كيانات تاريخية يمكن أن تتطور وهي نتاج تلاحق الحضارات وتلاقحها على أرضنا المشرقية، وثمة دورة حياتية اقتصادية واجتماعية تجمعها. من هنا وجوب الدفاع عن وحدة الدولة والأرض اللبنانية، ومن خلال هذا الموقف نكوّن خط الدفاع الأول عن أمن المنطقة وسلامها.

٣— بالنسبة لاسرائيل يجب أن نفرق بين حقها في العيش فوق رقعة جغرافية معينة من فلسطين عليها تمارس حرياتها السياسية والثقافية والدينية على

نحو آمن ومستقل في اطار ديمقراطي غير عنصري، وبين طموحها بالتوسع والاستيطان وفرض جغرافية بشرية وسياسية جديدة على المنطقة.

الاعتبار الأول أمر مشروع، أما المنحى الثاني فهو منحى عدواني يناقض أبسط بديهيات حقوق الانسان.

٤— ان من دور لبنان أن يشير الى مأزق الايديولوجية الصهيونية فهي من جهة قد ورثت عن الحضارة الاوروبية مفاهيم الأمة والديمقراطية والتكنولوجيا والعلم، وهي مفاهيم نمت في كنف الثورات الدينية والصناعية والاتجاهات العلمانية والليبرالية والاشتراكية.

اما دولة اسرائيل فهي دولة غير علمانية[١٢]، حتى ان سيطرة التقاليد، التي هي أعتى من الدين، تكاد توجه مجمل الحياة اليومية منذ الصباح حتى المساء. وما أزمة توقف طيران العال يوم السبت سوى احدى الأدلة على قوة الشريعة والتقاليد المتشددة.

وعليه فدور لبنان أن يطرح على الرأي العام العالمي: هل ان الديمقراطية الاسرائيلية هي ديمقراطية انسانية علمانية، أم أنها ديمقراطية فئوية مجزوءة.

وهكذا فدور لبنان الحضاري، في رأينا، هو دور صراعي:

ان باتجاه الداخل العربي وشعاره علمنة العروبة وديمقراطيتها، واحترام حق لبنان في السيادة والحرية والحياد.

وان باتجاه الخطر الاسرائيلي، وشعاره كذلك العلمنة والديمقراطية ورفض كل ألوان العنصرية والتوسع، واحترام حق الشعوب في تقرير مصيرها.

ثالثاً: دور لبنان الانساني:

لن أدخل في متاهات السياسات الدولية وموقفها من الأزمة اللبنانية—

باعتبار أن هذا الأمر موضوع ندوة أخرى — ولن أتوقف عند مشاركة لبنان في المحافل الدولية وبخاصة في صياغة وثيقة حقوق الانسان.

ولكن بما أن لبنان يشكل أرض التلاقي العملي بين المسيحية والاسلام، فإن استمراره كدولة موحدة ديمقراطية حرّة، يطرح تحدياً حضارياً باتجاهي المسيحية والاسلام.

أ — تحديات مطروحة على الاسلام :

١ — هل يجب على المسلمين أن يفسروا النصوص الدينية كما كانت تفسر في العصور الأولى لنشأة الاسلام، أم يجب عليهم أن يفسروا هذه النصوص تبعاً لمقتضيات العصر؟ بحيث تتخذ مصطلحات كالديمقراطية والوطن والأمة والشعب والحكومة مفاهيم متفقة مع الوضعية التاريخية الحديثة؟

٢ — وهل يمكن الفصل بين العقيدة والشريعة؟ واستطراداً هل ان العقيدة يمكن أن تكون قائمة على الصلاة والصوم والايمان بالآخرة (كما يؤكد الشيخ الازهري خالد محمد خالد)[١٣] وفي ضوء ذلك لا مشكلة بين العلمانية والاسلام.

وهل ان الشريعة انتاج تاريخي تخضع لعوامل التغير وبالتالي يمكن بل يجب استيعاب القوانين والنظم المنطلقة من الاعلان العالمي لحقوق الانسان.

٣ — كيف يمكن أن يرفض الفكر الديني الأسلامي النظام الطائفي من جهة، ويرفض الحل العلماني من جهة أخرى؟ أليس ان هذا الموقف يعني — بشكل واع أو غير واع — ارادة بالعودة الى مفهوم الحكم الديني الاسلامي حيث لا مساواة ولا مواطنية بل أهل ملّة وأهل ذمّة؟

٤ — أليس من الواجب أن يكون المفكرون المسلمون اللبنانيون هم طليعة دعاة الثورة في الفكر الديني الاسلامي، ومن أقوى المدافعين عن القضية اللبنانية، وخاصة في بعدي التحرير وتحقيق الديمقراطية المتكاملة المضامين؟

٥ — أليس من الواجب أن يكون المفكرون المسلمون (اللبنانيون والعرب) هم أول من دعي للرد على التحدي الصهيوني بانجاح تجربة علمانية في لبنان وعلى مستوى كامل المنطقة العربية. ذلك ان الرد على الصهيونية بايديولوجية دينية تعصبية اسلامية هو نذير خسارة محتملة.

٦ — هل ان المنظرين للثورة الخمينية، ولطروحات الاخوان المسلمين هنا وثمة هم حقاً دعاة نهضة للاسلام والمسلمين، أم أنهم يعملون — بشكل ارادي أو غير ارادي — لاستمرار التبعية والتخلف؟

ب — تحديات مطروحة على المسيحية :

١ — أليس ان الثورة التي عرفها الفكر الديني المسيحي هي نتاج ثورات المجتمعات الغربية؟ وعليه ألا يجب على مسيحي الشرق (بمثقفيهم وكنائسهم) أن يقوموا هم بثوراتهم الدينية والاجتماعية من ضمن خصوصيات مجتمعاتهم ومصالحهم التاريخية؟

٢ — هل ان النموذج المرتجى للفكر الديني المسيحي في لبنان، وهل ان الشهادة للمسيح تم من خلال اقامة كيانات عنصرية على أنقاض التجربة الميثاقية اللبنانية، أم أن الحل الأمثل يكون بارساء الدولة والمجتمع في لبنان وبالتالي على امتداد المنطقة — على أسس الديمقراطية والعلمانية؟

٣ — إذا كانت مجتمعات الشرق قد عرفت التعصب والاضطهاد للمسيحيين في فترات معينة ولأسباب تاريخية محددة، هل يجب على الفكر الديني المسيحي المشرقي أن يتشرنق ضمن هذه العقد؟ أم عليه أن يسعى للاتعاظ بعبرها، ويحاول مع الفكر الديني الاسلامي ارساء التجربة اللبنانيةعلى قواعد من الاخاء والديمقراطية والمساواة، ويمكن أن تشكل هذه التجربة نموذجاً مستقبلياً لشعوب المنطقة وشعوب العالم الثالث؟

٤ — هل ان دور المثقفين المسلمين هو التحريض على المسيحية؟ وهل ان

دور المثقفين المسيحيين هو التحريض على الاسلام ؟ أليس ان كل طائفة وكل دين هو ذو صفات نوعية وليس هناك من طائفة خارقة أو استثنائية .

ان الأحداث الأخيرة برهنت ان ثمة خصوصيات لكل الطوائف اللبنانية ، وأن هذه الخصائص صلبة وناشطة في قدرتها . لكن هذه الطوائف ليست خارجة عن التحليل ، وبالتالي ليست مؤبدة لا ماضياً ولا مستقبلاً وهي تخضع لقوانين التحليل الاجتماعي والتاريخي . كان لها تاريخ وسيكون لها تاريخ آخر . والمسألة — المحور ضمن أي توجه سيكون تاريخها ، وضمن اين مسار سيكون صراعها ؟

٥ — إذا كانت دول الغرب سابقاً واسرائيل حالياً قد اعتبروا أن مصالحهم الاستراتيجية تؤمن من خلال استغلال مسائل الأقليات في منطقتنا ، فإن من واجب الفكر المسيحي — المشرقي والمسكوني — ان يتساءل طويلاً وأن يفكر طويلاً اذا كانت مصالح المسيحية التاريخية والمستقبلية تتأمن من خلال قيام احلاف أقليات في هذا المشرق معادية للاسلام وترفع شعار الثأر من اذلال قرون غبرت ؟

ج — هل يشكل الحياد اللبناني أحد مرتكزات الحل ؟

في ظل تصاعد الصراع بين القوى الدولية الكبرى (روسيا وأميركا) من جهة ، وتصاعد موجة القوى الدينية (المسيحية والاسلام واليهودية) من جهة أخرى .

أليس من مصلحة لبنان أن يحيّد نفسه على نحو يحفظ استقلاله ويؤمن أفضل العلاقات مع سائر الدول من ضمن تأمين حقه في الاستقرار والسلام والحرية ؟

أفهل يأتي تساؤلنا ساذجاً وطوباوياً . في ظل وجودنا أمام خيارى السلم الاسرائيلي المبلقن ، والسلم الأميركي التابع ؟!

أيها السادة

اذ تحاول اسرائيل أن تكرس شرعياً دخولها في الشرق الأدنى كواقع سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي ، لا يجب أن نسمح لأنفسنا كلبنانيين أن نخرج من هذا الشرق ، ونحن الذين ساهمنا في تقدم لغته وصحافته وفكره وشعره وفنونه واقتصاده .

دور لبنان الحضاري يجب أن يتجذر أكثر فأكثر في تربة هذا الشرق العظيم . ولا يمرّن في ذهننا أدنى ريب — مهما كان الواقع الحالي قاتماً — بأن هذا المستطيل الجغراسي العظيم من طوروس الى المحيط الهندي ، سيصبح بؤرة الحضارة الانسانية المستقبلية . فكما كان في الماضي مركز اشعاع الحضارات الأرقى في التاريخ القديم ، سيعود هذا الشرق مهداً لدورة حضارية متقدمة وسيكون للبنان القسط الفعال في صياغة هذه الحضارة .

مراجع

(١) اعتمدنا، في عرض بعض هذه المميزات، على عدة دراسات أبرزها بحث الدكتور حليم بركات:
Social and political integration in Lebanon: a case of social mosaïc. The Middle East Journal, v. 27, summer 1973, N° 3, p. 301 - 317.

(٢) د. ناصيف نصار، نحو مجتمع جديد، دار النهار للنشر، ١٩٧٠، ص ١٣٥.

(٣) Samir Khalaf, Primordial Ties and Politics in Lebanon, Middle Easterm Studies, v. 4, april 1968, n. 3. p. 243.

(٤) Micheal C. Hudson, the precarious Republic: Political Modernization in Lebanon, New York: Rando, House, 1968, p. 17 - 46.

(٥) L. Melikian and L.N. Diab, "Group affiliations of University students in the Arab Middle East, journal of Social Psychology, v. 44. 1959.

(٦) د. أحمد صالح العلي، محاضرات في تاريخ العرب، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٤، ص ١٥٣.

(٧) راجع مجلة المجلة، العدد ٤٦، ٢٧ك١، ١٩٨٠، ص ١٥. ومجلة الحوادث، العدد ١٣٦٧، ١٤ك٢ ١٩٨٣، ص ٣٤.

(٨) هذا الرقم اعطته الأونروا. الا أن الرقم الحقيقي يزيد عن ذلك بكثير.

(٩) ان ما ذكره أحد الوزراء الاسرائيليين من أن القيادة الفلسطينية في جنوب لبنان عرضت على الاسرائيليين اتفاق عدم اعتداء قبل الهجوم الأخير، يطرح تساؤلات حول مصداقيتها بالنسبة للتحرير والعودة!!

(١٠) حول مسألة الحدود بين لبنان واسرائيل لدينا دراسة مطولة سننشرها قريباً. (راجع مجلة المستقبل، العدد ٣٢٢، ٢٣/ ٤/ ١٩٨٣، ص ٢٩ — ٣٤.

(١١) راجع نص هذه الوثيقة في مجلة الثقافة العالمية، العدد ٧، السنة ٢، تشرين الثاني ١٩٨٢، ص ٧ — ٢٢.
وكذلك Le Monde Diplomatique العدد ٣٤٦، السنة ٣٠، كانون الثاني ١٩٨٣، ص ٢ — ٣.

(١٢) André Siegfried, Les voies d'Israël, Hachette, 1958, p. 171 - 172; et la laïcité, P.U.F., 1960, p. 45 - 58.

(١٣) خالد محمد خالد، الديمقراطية ابداً، المطبعة العمومية بدمشق، ١٩٥٨، ص ١٣٢ و١٤٩.